المغني في التفسير

المُحَرِّرُ الجَامِعُ لِتفَاسِيرِ السَّلَفِ

[تَهْذِيبُ التَّفْسِيرِ المُحَرَّرِ لِلدُّرَرِ السَّنِيَّةِ]

[مُطَرَّزًا بِحَاشِيَةٍ مِنْ تَحْرِيرَاتٍ وَتَرْجِيحَاتٍ وَتَعْلِيقَاتِ عُيُونِ تَفَاسِيرِ المُحَقِّقِينَ فِي التَّفْسِيرِ:

{ابْنِ جَرِيرٍ، وَابْنِ عَطِيَّةَ، وَابْنِ تَيْمِيَّةَ، وَابْنِ قَيِّمِ الجَوْزِيَّةِ، وَابْنِ كَثِيرٍ، رَحِمَهُمُ اللَّهُ تَعَالَى}

كَتَبَهُ وَاعْتَنَى بِهِ

د/ هَانِي بْن عَبْده

د/ آلَاء رِضَا

«المُغْنِي فِي التَّفْسِيرِ»

المُحرِّرُ الجَامِعُ لِتَفَاسِيرِ السَّلَفِ

[تَهْذِيبُ التَّفْسِيرِ المُحَرَّرِ لِلدُّرَرِ السَّنِيَّةِ]

[مُطَرَّزًا بِحَاشِيَةٍ مِنْ تَحْرِيرَاتٍ وَتَرْجِيحَاتٍ وَتَعْلِيقَاتِ عُيُونِ تَفَاسِيرِ المُحَقِّقِينَ فِي التَّفْسِيرِ:

{ابْنِ جَرِيرٍ، وَابْنِ عَطِيَّةَ، وَابْنِ تَيْمِيَّةَ، وَابْنِ قَيِّمِ الجَوْزِيَّةِ، وَابْنِ كَثِيرٍ، رَحِمَهُمُ اللَّهُ تَعَالَى}

مُقْتَبَسَةً مِنْ مُوسُوعَةِ التَّفْسِيرِ المَأْثُورِ

كَتَبَهُ وَاعْتَنَى بِهِ

د/ هَانِي بْنُ عَبْدِهِ

د/ آلَاء رِضَا

غَفَرَ اللَّهُ لَهُمَا وَلِوَالِدَيْهِمَا وَلِمَشَايِخِهِمْ وَلِلْمُسْلِمِينَ

بسم الله الرحمن الرحيم

«المُغْنِي فِي التَّفْسِيرِ»

المُحَرِّرُ الجَامِعُ لِتَفَاسِيرِ السَّلَفِ

سُورةُ يُونُس

(المجلدُ التَّاسعُ)

" نُسْخَةٌ إِلِكْتِرُونِيَّةٌ، حُقُوقُهَا مَحْفُوظَةٌ لِكُلِّ مُسْلِمٍ "

نسخة إلكترونية

تَفْسِيرُ
سُورَةِ يُونُس

سورةُ يُونُس

سُمِّيَت هذه السُّورةُ بِسُورةِ يُونُس.[1]

سورةُ يُونُسَ مَكِّيَّةٌ،[2] ونقَلَ غَيرُ واحدٍ الإجماعَ على ذلك.[3]

---

(1) سُمِّيَت بذلك لذِكْرِها قِصَّةَ يُونُسَ عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ مع قَومِه في قَولِه تعالى: فَلَوْلَا كَانَتْ قَرْيَةٌ آمَنَتْ فَنَفَعَهَا إِيمَانُهَا إِلَّا قَوْمَ يُونُسَ [يونس: 98].

يُنظر: ((بصائر ذوي التمييز)) للفيروزابادي (1/238)، ((تفسير القاسمي)) (6/3).

قال ابنُ عاشـورٍ: (والأظهرُ عندي أَنَّها أُضـيفَتْ إلى يونسَ تمييزًا لها عن أخواتِها الأربعِ المفتتحةِ بـــ «الر»، ولذلك أُضـيفَتْ كلُّ واحدةٍ مِنها إلى نبيٍّ أوْ قومِ نَبيٍّ عوضًا عن أنْ يُقالَ: «الر» الأُولَى و«الر» الثَّانيةُ).

((تفسير ابن عاشور)) (11/77).

وقد وردتْ آثارٌ فيها تسميتُها بذلك: منها ما أخرَجه النحاسُ في ((الناسخ والمنسوخ)) (ص: 529)، وأبو الشيخ وابنُ مردويه- كما في ((الدر المنثور)) للسيوطي (4/339)- عن ابنِ عبَّاسٍ رَضِيَ الله عنهما، قال: (نزَلَت سورةُ يُونُسَ بمكَّةَ).

ومنها ما أخرجه ابنُ أبي شـيبةَ في ((المصـنف)) (3566) عَنِ الأحنفِ قالَ: (صـليتُ خلفَ عمرَ الغداةَ، فقرأ بيونسَ، وهودٍ، ونحوِهما).

(2) يُنظر: ((تفسير السمرقندي)) (2/102)، ((الهداية)) لمكي القيسي (5/3205)، ((جمال القراء)) للسخاوي (1/121)، وممَّا يدُلُّ على كَونِها مكيَّةً ما اشتمَلَت عليه من موضوعات تَميَّزَت بها السُّوَرُ المكيَّةُ؛ مِن تقريرٍ للعَقيدةِ والرِّسالةِ، والنبوات، وأخبارِ الأُمَمِ الماضيةِ.

وقيل: إنَّها مكيَّةٌ إلَّا ثلاثَ آياتٍ، مِن قَولِه تعالى: فَإِنْ كُنْتَ فِي شَـكٍّ مِمَّا أَنْزَلْنَا إِلَيْكَ [يونس: 94] إلى آخر الآياتِ الثلاث، فمَدَنيَّةٌ، وقيل: مكيَّةٌ إلَّا قَولَه تعالى: وَمِنْهُمْ مَنْ يُؤْمِنُ بِهِ وَمِنْهُمْ مَنْ لَا يُؤْمِنُ بِهِ ... [يونس: 40] مع الثلاثِ السَّابقة، فمدنيَّةٌ، وقيل: نزل مِن أوَّلها نحوٌ من أربعينَ آيةً بمكَّةَ، وباقيها بالمدينة.

ينظر ((تفسير السمعاني)) (2/364)، ((تفسير البغوي)) (4/117)، ((تفسير الزمخشري)) (2/326))، ((تفسير ابن عطية)) (3/102).

(3) ممَّن نقل الإجماعَ على ذلك الفيروزابادي، والبقاعي، ومحمد رشيد رضا.

مِن أهَمِّ مقاصِدِ سُورةِ يُونُس:

1- تقريرُ أصولِ العقيدةِ، وإثباتُ التوحيدِ والرسالةِ والبعثِ.

2- دفعُ شُبَهِ المشركِينَ.

مِن أهَمِّ الموضوعات التي اشتَمَلت عليها السُّورةُ:

1- إثباتُ رسالةِ محمَّدٍ صلَّى الله عليه وسلَّم.

2- إثباتُ انفرادِ الله تعالَى بالإلهيةِ.

3- إثباتُ الحشرِ والجزاءِ، والتَّذكيرُ بمَصيرِ الخَلائِقِ إليه، وانقسامِ البَشَرِ إلى مُؤمنينَ وكُفَّارٍ، وجزاء كُلٍّ منهم.

4- توضيحُ عقائدِ المُشرِكينَ، وموقفِهم من القُرآنِ، مع ذكرِ شُبهِهم والردِّ عليها، وإثباتُ أنَّ القُرآنَ كَلامُ اللهِ.

5- التذكيرُ بما حلَّ بأهلِ القرونِ الماضيةِ لَمَّا أشركوا وكذَّبوا الرسلَ.

6- الاعتبارُ بما خلَقَ الله للناسِ مِن القدرةِ على السيرِ في البرِّ والبحرِ، وما في أحوالِ السيرِ في البحرِ من الألطافِ.

يُنظر: ((بصائر ذوي التمييز)) للفيروزابادي (238/1)، ((مصاعد النظر)) للبقاعي (162/2)، ((تفسير المنار)) لمحمد رشيد رضا (116/11).

7- ضربُ المَثَل للدُّنيا وبَهجَتِها، وسرعة زوالِها.

8- ذِكرُ اختلافِ أحوالِ المُؤمنين والكافرينَ في الآخرة، وتبرُّؤ الآلهةِ الباطلةِ مِن عَبَدتِها، وإبطال إلهيَّةِ غيرِ الله تعالى.

9- إثباتُ أنَّ القرآنَ منزَّلٌ من عندِ الله، وأنَّ الدلائلَ على بطلانِ أن يكونَ مفترًى واضحةٌ، وتحدِّي المشركين بأن يأتوا بسورةٍ مثلِه.

10- إثباتُ عُمومِ العِلمِ لله تعالى، وذِكرُ آثارِ القُدرةِ الإلهيَّةِ الباهِرةِ.

11- تَبشيرُ أولياءِ الله في الحياةِ الدُّنيا وفي الآخرةِ، وتمييزُهم عن غيرِهم، وتَسليةُ الرَّسولِ عَمَّا يقولُه الكافِرونَ.

12- الأمرُ بإظهارِ السُّرورِ والفَرَحِ بالإسلامِ والقُرآنِ.

13- تَسليةُ النَّبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم بذِكرِ شَيءٍ مِن قِصَّةِ نوح عليه السلام، وقِصَّةِ موسى عليه السلام، وبني إسرائيلَ مع قومِ فِرعونَ، ونجاةِ قَومِ يُونُسَ بإخلاصِ الإيمانِ في وقت اليَأسِ.

14- تأْكيدُ نبوَّةِ النبيِّ صلَّى الله عليه وسلَّم، وأَمرُه بالصبرِ على جفاءِ المشركين وأذاهم.

سُورةُ يُونُس

الآيتان (1-2)

الر تِلْكَ آيَاتُ الْكِتَابِ الْحَكِيمِ (1) أَكَانَ لِلنَّاسِ عَجَبًا أَنْ أَوْحَيْنَا إِلَى رَجُلٍ مِنْهُمْ أَنْ أَنْذِرِ
النَّاسَ وَبَشِّرِ الَّذِينَ آمَنُوا أَنَّ لَهُمْ قَدَمَ صِدْقٍ عِنْدَ رَبِّهِمْ قَالَ الْكَافِرُونَ إِنَّ هَذَا لَسَاحِرٌ مُبِينٌ
(2)

غريب الكلمات:

قَدَمَ صِدْقٍ: أي: تَقدِمةَ خَيرٍ مِن الأعمالِ الصَّالحةِ. وكلُّ سَابقٍ فِي خيرٍ أَو شَرٍّ، فهو عند العَربِ قَدَمٌ. وأصلُ (قدم): يدلُّ على سَبْقٍ، والصِّدقُ يُعبَّرُ به عن كلِّ فعلٍ فاضلٍ ظاهرًا وباطنًا، وكلُّ شيءٍ أُضيفَ إليه فهو ممدوحٌ، وأصلُ (صدق): يدلُّ على قُوَّةٍ في الشَّيءِ قولًا وغيرَه.

تفسير الآيتين:

الر تِلْكَ آيَاتُ الْكِتَابِ الْحَكِيمِ (1).

الر.

هذه الحروفُ المقطَّعةُ التي افتُتِحَت بها هذه السُّورةُ وغَيرُها، تأتي لبيانِ إعجازِ القرآنِ؛ حيث تُظهِرُ عجْزَ الخَلْقِ عن مُعارَضتِه بمِثلِه، مع أنَّه مركَّبٌ من هذه الحُروفِ العربيَّةِ التي يتحدَّثونَ بها.

تِلْكَ آيَاتُ الْكِتَابِ الْحَكِيمِ.

أي: تلك الآيات الرَّفيعة الشَّأن هي آياتُ القرآنِ المحكَم، المشتملِ على الحكمةِ والأحكامِ، قد أحكَم الله ألفاظَه ومعانيَه، وجعَله حاكمًا بينَ عبادِه؛ يبيِّنُ لهم الحقَّ مِن الباطل، والصَّواب من الخطأ، والحلالَ مِن الحرامِ.(4)

كما قال تعالى: الر كِتَابٌ أُحْكِمَتْ آيَاتُهُ ثُمَّ فُصِّلَتْ مِنْ لَدُنْ حَكِيمٍ خَبِيرٍ [هود: 1].

---

(4) اختُلف في المراد بالكتاب؛ فقال قوم: التوراة والإنجيل.
وذكر ابنُ جرير (١٢/ ١٠٥ - ١٠٦ بتصرف) قولًا آخر بأنّه القرآن، ولم ينسبه.
ورجَّح ابنُ جرير القول الثاني مستندًا إلى السياق، فقال: «وأولى التأويلين في ذلك بالصواب تأويلُ مَن تأوّله: هذه آيات القرآن. ووجّه معنى ﴿تلك﴾ إلى معنى: هذه؛ لأنّه لم يجيء للتوراة والإنجيل قبلُ ذكرٌ ولا تلاوةٌ بعدُ، فيوجه إليه الخبر».
وكذا رجَّحه ابنُ عطية (٤/ ٤٤٥) فقال: «وهو الأظهر».
لم يذكر مستندًا.
وانتقَد ابنُ كثير (٧/ ٣٣١) القولَ الأول، فقال: «وهذا القولُ لا أعرف وجهَه، ولا معناه».

وقال سبحانه: وَأَنْزَلَ مَعَهُمُ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ لِيَحْكُمَ بَيْنَ النَّاسِ فِيمَا اخْتَلَفُوا فِيهِ [البقرة: 213].

أَكَانَ لِلنَّاسِ عَجَبًا أَنْ أَوْحَيْنَا إِلَى رَجُلٍ مِّنْهُمْ أَنْ أَنذِرِ النَّاسَ وَبَشِّرِ الَّذِينَ آمَنُوٓاْ أَنَّ لَهُمْ قَدَمَ صِدْقٍ عِندَ رَبِّهِمْ قَالَ الْكَافِرُونَ إِنَّ هَـذَا لَسَاحِرٌ مُّبِينٌ (2).

أَكَانَ لِلنَّاسِ عَجَبًا أَنْ أَوْحَيْنَا إِلَى رَجُلٍ مِّنْهُمْ أَنْ أَنذِرِ النَّاسَ.

أي: كيف يتعجَّبُ كفَّارُ قُريشٍ وكُفَّارُ العَرَبِ من إيحائِنا القرآنَ إلى رجلٍ من البَشَرِ، يُنذِرُ جميعَ النَّاسِ عِقابَ اللهِ، على الكُفرِ به ومَعصِيَتِه؟![5]

---

(5) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (106/12)، ((الوجيز)) للواحدي (ص: 489)، ((تفسير ابن كثير)) (245/4)، ((تفسير الألوسي)) (58/6)، ((تفسير المنار)) لمحمد رشيد رضا (118/11، 119)، ((تفسير السعدي)) (ص: 357)، ((تفسير ابن عاشور)) (84/11).

قال ابن تيمية: (قال تعالى: أَكَانَ لِلنَّاسِ عَجَبًا أَنْ أَوْحَيْنَا إِلَى رَجُلٍ مِنهُمْ أَنْ أَنْذِرِ النَّاسَ أولَمْ يعلَموا أنَّ إرسالَ رسولٍ مِن البشَرِ يُبَلِّغُهم رسالاتِ رَبِّهم، ويهديهم إلى صراطٍ مُستقيمٍ، أبلَغُ في قدرةِ الرَّبِّ، ورَحمتِه بعبادِه، وإحسانِه إليهم، وأعظَمُ إثباتًا للكمالِ مِن كَونِ ذلك [غيرَ] ممكنٍ له، ومِن امتناعِه عن فِعْلِه).

((درء تعارض العقل والنقل)) (24/10).

وَبَشِّرِ الَّذِينَ آمَنُواْ أَنَّ لَهُمْ قَدَمَ صِدْقٍ عِندَ رَبِّهِمْ.

أي: وكيف عَجِبَ الكُفَّارُ مِن إيحائِنا إلى بَشَرٍ منهم، أن يبشِّرَ المُؤمِنينَ بأنَّه سبَقَت لهم مِن الله السَّعادةُ في اللَّوحِ المحفوظِ بما قَدَّموا من أعمالٍ صالحةٍ، وإيمانٍ بمحَمَّدٍ – ﷺ –، الذي أرشَدَهم إلى ذلك الخَيرِ الذي ينالون به الجنَّةَ؟![6]

---

(6) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (12/111، 112)، ((تفسير ابن عطية)) (3/103)، ((حادي الأرواح)) لابن القيم (ص: 101)، ((شفاء العليل)) لابن القيم (ص: 28)، ((تفسير ابن كثير)) (4/246)، ((تفسير القاسمي)) (6/5)، ((تفسير السعدي)) (ص: 357)، ((تفسير ابن عاشور)) (11/84).

قال ابنُ القيِّم: (وفسَّر قومٌ قَدَمَ صِدْقٍ بالجنةِ، وفسِّر بالأعمالِ التي تُنالُ بها الجنةُ، وفُسِّر بالسابقةِ التي سبَقت لهم مِن الله، وفسِّر بالرسولِ الذي على يدِه وهدايتِه نالوا ذلك، والتحقيقُ أنَّ الجميعَ حقٌّ؛ فإنَّهم سبَقت لهم مِن الله الحسنَى بتلك السابقةِ، أي: بالأسبابِ التي قدَّرها لهم على يدِ رسولِه، وادَّخر لهم جزاءَها يومَ لقائِه).

((حادي الأرواح)) (ص: 101).

اختُلِف في معنى قوله: ﴿قدم صدق﴾ على أقوال: الأول: الأعمال الصالحة من العبادات.

الثاني: السعادة السابقة لهم في اللوح المحفوظ.

الثالث: شفاعة النبي – ﷺ –.

ورجَّح ابنُ جرير (١٢/ ١١١) مستندًا إلى اللغة القولَ الأول الذي قاله عبد الله بن عباس من طريق العوفي، والضحاك بن مزاحم، ومجاهد بن جبر، والربيع بن أنس، وعبد الرحمن بن زيد بن أسلم، فقال: «وذلك أنّه محكيٌّ عن العرب: هؤلاء أهْلُ القَدَم في الإسلام.

أي: هؤلاء الذين قدَّموا فيه خيرًا، فكان لهم فيه تقديم.

ويقال: له عندي قدم صِدْق، وقدم سوء، وذلك ما قدّمت إليه من خير أو شر».

وعلَّق عليه ابنُ كثير (٧/ ٣٣٢) بقوله: «وهذا كقوله تعالى: ﴿لِيُنْذِرَ بَأْسًا شَدِيدًا مِن لَدُنْهُ وَيُبَشِّرَ الْمُؤْمِنِينَ الَّذِينَ يَعْمَلُونَ الصَّالِحَاتِ أَنَّ لَهُمْ أَجْرًا حَسَنًا مَاكِثِينَ فِيهِ أَبَدًا﴾ [الكهف: ٢ – ٣]».

ورجَّح ابنُ عطية (٤/ ٤٤٦) القول الثاني الذي قاله عبد الله بن عباس من طريق علي، فقال: «وهو أليق الأقوال بالآية».

ولم يذكر مستندًا.

وذكر ابنُ القيم (٢/ ٣١ بتصرف) أنّه لا يعارض بقية الأقوال، فقال: «فإنّه سبق لهم من الله في الذِّكْر الأوَّلِ السعادةُ بأعمالهم على يد محمد – ﷺ –، فهو خير تَقَدُّم لهم من الله، ثم قدّمه لهم على يد رسوله، ثم يقدمهم عليه يوم لقائه».

قَالَ الْكَافِرُونَ إِنَّ هَذَا لَسَاحِرٌ مُّبِينٌ.

أي: مع أنَّا بعَثْنا إليهم رسولًا منهم، رجلًا مِن جنسِهم، بشيرًا ونذيرًا، قال الكافرون: إنَّ هذا الرَّجُلَ لَساحِرٌ ظاهِرُ السِّحرِ، يسحَرُ النَّاسَ بالقُرآنِ الذي جاء به.

القراءاتُ التي لها أثَرٌ في التَّفسيرِ:

1- قراءةُ لَسَاحِرٌ يقصِدُ الكافرونَ النبيَّ - ﷺ -.(7)

2- قراءةُ لَسِحْرٌ يَعْنون القُرآنَ الكريمَ.(8)

(7) قرأ بها عاصمٌ، وحمزةُ، والكسائيُّ، وابنُ كثيرٍ، وخلفٌ.

يُنظر: ((النشر)) لابن الجزري (256/2).

ويُنظر لمعنَى هذه القراءةِ: ((الحجة في القراءات السبع)) لابن خالويه (ص: 179)، ((الحجة للقراء السبعة)) لأبي علي الفارسي (251/4، 252)، ((حجة القراءات)) لابن زنجلة (ص: 327)، ((تفسير ابن عاشور)) (86/11).

(8) قرَأ بها الباقونَ.

يُنظر: ((النشر)) لابن الجزري (256/2).

ويُنظر لمعنى هذه القراءة: ((الحجة في القراءات السبع)) لابن خالويه (ص: 179)، ((الحجة للقراء السبعة)) لأبي علي الفارسي (251/4، 252)، ((حجة القراءات)) لابن زنجلة (ص: 327)، ((تفسير ابن عاشور)) (86/11).

سُورةُ يُونُس

الآيتان (3–4)

إِنَّ رَبَّكُمُ اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ اسْتَوَى عَلَى الْعَرْشِ يُدَبِّرُ الْأَمْرَ مَا مِنْ شَفِيعٍ إِلَّا مِنْ بَعْدِ إِذْنِهِ ذَلِكُمُ اللَّهُ رَبُّكُمْ فَاعْبُدُوهُ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ (3) إِلَيْهِ مَرْجِعُكُمْ جَمِيعًا وَعْدَ اللَّهِ حَقًّا إِنَّهُ يَبْدَأُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ لِيَجْزِيَ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ بِالْقِسْطِ وَالَّذِينَ كَفَرُوا لَهُمْ شَرَابٌ مِنْ حَمِيمٍ وَعَذَابٌ أَلِيمٌ بِمَا كَانُوا يَكْفُرُونَ (4)

غريب الكلمات:

شَفِيعٍ: أي: ناصرٍ ومُعينٍ؛ يقال: شفَع لفلانٍ: إذا جاء مُلتَمِسًا مطلبَه، ومعينًا له، والشَّفْعُ: ضمُّ الشيءِ إلى مثلِه، وأصلُ (شفع): يدلُّ على مُقارنةِ الشَّيئَينِ.

حَمِيمٍ: الحميمُ: الماءُ الشَّديدُ الحرارةِ، وأصل (حمم): يدلُّ على الحرَارةِ، وعلى معانٍ أخرى متفاوِتةٍ.

تفسير الآيتين:

إِنَّ رَبَّكُمُ اللهُ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ اسْتَوَى عَلَى الْعَرْشِ يُدَبِّرُ الأَمْرَ مَا مِن شَفِيعٍ إِلاَّ مِن بَعْدِ إِذْنِهِ ذَلِكُمُ اللّهُ رَبُّكُمْ فَاعْبُدُوهُ أَفَلاَ تَذَكَّرُونَ (3).

إِنَّ رَبَّكُمُ اللهُ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ.

أي: إنَّ مالِكَكم- أيُّها النَّاسُ- وخالقَكم، ومدبِّرَ شُؤونِكم، هو المُستحِقُّ للعبادةِ وَحْدَه؛ الذي خلَقَ السَّمواتِ السَّبعَ، والأَرَضينَ السَّبعَ في ستَّة أيَّامٍ.[9]

كما قال تعالى: إِنَّ رَبَّكُمُ اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ اسْتَوَى عَلَى الْعَرْشِ [الأعراف: 54].

وقال سبحانه: اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ اسْتَوَى عَلَى الْعَرْشِ [السجدة: 4].

---

(9) قال ابن عطيَّةَ: (قَولُه فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ قيل: هي من أيَّامِ الآخرةِ، وقال الجمهور- وهو الصواب- بل من أيَّامِ الدنيا.
قال القاضي أبو محمد: وذلك في التقديرِ؛ لأنَّ الشَّمسَ وجَرْيَها لم يتقَدَّمْ حِينئذٍ).
((تفسير ابن عطية)) (104/3).

ثُمَّ اسْتَوَى عَلَى الْعَرْشِ.

أي: ثمَّ علا اللهُ وارتفعَ على عَرشِه المُحيطِ بِجَميعِ خَلْقِه.

يُدَبِّرُ الأَمْرَ.

أي: يُدبِّر أمورَ جَميعِ خَلْقِه وشُؤونهم.[10]

كما قال تعالى: وَسِعَ كُرْسِيُّهُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَلَا يَئُودُهُ حِفْظُهُمَا [البقرة: 255].

وقال سبحانه: وَمَا مِنْ دَابَّةٍ فِي الْأَرْضِ إِلَّا عَلَى اللَّهِ رِزْقُهَا وَيَعْلَمُ مُسْتَقَرَّهَا وَمُسْتَوْدَعَهَا كُلٌّ فِي كِتَابٍ مُبِينٍ [هود: 6].

وقال عزَّ وجلَّ: اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ اسْتَوَى عَلَى الْعَرْشِ مَا لَكُمْ مِنْ دُونِهِ مِنْ وَلِيٍّ وَلَا شَفِيعٍ أَفَلَا تَتَذَكَّرُونَ * يُدَبِّرُ الْأَمْرَ مِنَ السَّمَاءِ إِلَى الْأَرْضِ [السجدة: 4، 5].

(10) ذكر ابنُ عطية (٤/ ٤٤٩) أنّ قوله: ﴿يدبر الأمر﴾ يَصِحُّ أن يريد بـ ﴿الأمر﴾ اسم الجنس من الأمور، ثم قال: «ويحتمل أن يريد الأمر الذي هو مصدر أَمَرَ يأمرُ أمرًا، وتدبيره –لا إله إلا هو– إنّما هو الإنفاذ؛ لأنّه قد أحاط بكل شيء علمًا».

مَا مِن شَفِيعٍ إِلاَّ مِن بَعْدِ إِذْنِهِ.

أي: لا يَشفَعُ عندَ اللهِ أيُّ شافعٍ يومَ القِيامةِ إلَّا مِن بَعدِ أن يأذَنَ اللهُ بذلك.[11]

كما قال تعالى: مَنْ ذَا الَّذِي يَشْفَعُ عِنْدَهُ إِلَّا بِإِذْنِهِ [البقرة: 255].

وقال عزَّ وجلَّ: وَكَمْ مِنْ مَلَكٍ فِي السَّمَاوَاتِ لَا تُغْنِي شَفَاعَتُهُمْ شَيْئًا إِلَّا مِنْ بَعْدِ أَنْ يَأْذَنَ اللَّهُ لِمَنْ يَشَاءُ وَيَرْضَى [النجم: 26].

ذَلِكُمُ اللّهُ رَبُّكُمْ فَاعْبُدُوهُ.

أي: ذلكم الذي هذا شأنُه، وهذه صفتُه، وفعَلَ تلك الأشياءَ العظيمةَ، هو المستَحِقُّ لإفرادِ العبادةِ له دونَ مَن سِواه، وهو مالِكُكم وخالِقُكم ومُدَبِّرُ أمورِكم- أيُّها النَّاسُ- فاعبُدوه وَحْدَه، ولا تَعبُدوا غيرَه.

(11) قال الزَّجَّاج: (قولُه: مَا مِنْ شَفِيعٍ إِلَّا مِن بَعْدِ إِذْنِهِ ولم يجْرِ للشَّفيعِ ذِكرٌ قبلَ هذا، ولكِنَّ الذين خُوطِبوا كانوا يقولونَ: إنَّ الأصنامَ شُفَعاؤُنا عند الله، فالذِّكرُ جرى بعدُ في الشُّفَعاءِ).

((معاني القرآن وإعرابه)) (6/3).

وقال ابنُ عطيةَ: (قَولُه: مَا مِنْ شَفِيعٍ إِلَّا مِنْ بَعْدِ إِذْنِهِ ردٌّ على العَرَبِ في اعتقادِها أنَّ الأصنامَ تَشفَعُ لها).

((تفسير ابن عطية)) (104/3).

أَفَلاَ تَذَكَّرُونَ.

أي: أفلا تتَّعِظونَ- أيُّها النَّاسُ- بتلك الآياتِ والبَراهينِ، وتتذكَّرون أنَّ اللهَ هو المتفرِّدُ بالخَلقِ، فتعبُدونَه وَحْدَه، وتَتْركون عبادةَ غيرِه مِن مخلوقاتِه؟!

كما قال تعالى: قُلْ مَنْ يَرْزُقُكُمْ مِنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ أَمَّنْ يَمْلِكُ السَّمْعَ وَالْأَبْصَارَ وَمَنْ يُخْرِجُ الْحَيَّ مِنَ الْمَيِّتِ وَيُخْرِجُ الْمَيِّتَ مِنَ الْحَيِّ وَمَنْ يُدَبِّرُ الْأَمْرَ فَسَيَقُولُونَ اللَّهُ فَقُلْ أَفَلَا تَتَّقُونَ * فَذَلِكُمُ اللَّهُ رَبُّكُمُ الْحَقُّ فَمَاذَا بَعْدَ الْحَقِّ إِلَّا الضَّلَالُ فَأَنَّى تُصْرَفُونَ [يونس: 31-32].

وقال سبحانه: قُلْ لِمَنِ الْأَرْضُ وَمَنْ فِيهَا إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ * سَيَقُولُونَ لِلَّهِ قُلْ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ * قُلْ مَنْ رَبُّ السَّمَاوَاتِ السَّبْعِ وَرَبُّ الْعَرْشِ الْعَظِيمِ * سَيَقُولُونَ لِلَّهِ قُلْ أَفَلَا تَتَّقُونَ * قُلْ مَنْ بِيَدِهِ مَلَكُوتُ كُلِّ شَيْءٍ وَهُوَ يُجِيرُ وَلَا يُجَارُ عَلَيْهِ إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ * سَيَقُولُونَ لِلَّهِ قُلْ فَأَنَّى تُسْحَرُونَ [المؤمنون: 84 - 89].

إِلَيْهِ مَرْجِعُكُمْ جَمِيعًا وَعْدَ اللهِ حَقًّا إِنَّهُ يَبْدَأُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ لِيَجْزِيَ الَّذِينَ آمَنُواْ وَعَمِلُواْ الصَّالِحَاتِ بِالْقِسْطِ وَالَّذِينَ كَفَرُواْ لَهُمْ شَرَابٌ مِّنْ حَمِيمٍ وَعَذَابٌ أَلِيمٌ بِمَا كَانُواْ يَكْفُرُونَ (4).

إِلَيْهِ مَرْجِعُكُمْ جَمِيعًا.

أي: إلى اللهِ وَحْدَه مَرجِعُكم جميعًا- أيُّها النَّاسُ- يوم تخرُجونَ مِن قُبورِكم أحياءً يومَ القِيامةِ.

وَعْدَ اللّهِ حَقًّا.

أي: يَعِدُكم اللهُ– أيُّها النَّاسُ– وعدًا صِدقًا لا يُخلَفُ: أنَّه سيبعَثُكم مِن قُبورِكم أحياءً.

إِنَّهُ يَبْدَأُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ.

أي: إنَّ اللهَ يبدأُ إنشاءَ الخَلْقِ، وإيجادَه مِن العَدَمِ، ثمَّ يعيدُه بعدَ مَوتِه، ويُحييه يومَ القيامةِ كما بدأه أوَّلَ مرَّةٍ.

كما قال تعالى: قُلْ هَلْ مِنْ شُرَكَائِكُمْ مَنْ يَبْدَأُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ قُلِ اللَّهُ يَبْدَأُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ فَأَنَّى تُؤْفَكُونَ [يونس: 34].

وقال سبحانَه: أَوَلَمْ يَرَوْا كَيْفَ يُبْدِئُ اللَّهُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ إِنَّ ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرٌ [العنكبوت: 19].

وقال عزَّ وجلَّ: اللَّهُ يَبْدَأُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ ثُمَّ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ [الروم: 11].

لِيَجْزِيَ الَّذِينَ آمَنُواْ وَعَمِلُواْ الصَّالِحَاتِ بِالْقِسْطِ.

أي: يُحيي اللهُ الخَلقَ بعدَ مَوتِه، يومَ القِيامةِ؛ لِيُثيبَ المُؤمنينَ الذين عَمِلوا ما أمَرَهم اللهُ به، وترَكوا ما نَهاهم عنه، بالعَدلِ، وهو مجازاتُهم على الحَسَنِ مِن أعمالِهم، الحَسَنَ من الثوابِ في الآخرةِ.

وَالَّذِينَ كَفَرُواْ لَهُمْ شَرَابٌ مِّنْ حَمِيمٍ وَعَذَابٌ أَلِيمٌ بِمَا كَانُواْ يَكْفُرُونَ.

أي: وللكفَّارِ في الآخرةِ ماءٌ قد أُغلِيَ، وبلَغَت حرارتُه الغايةَ، ولهم أيضًا عذابٌ مُوجِعٌ؛ وذلك كلُّه بسبَبِ كُفرِهم في الدُّنيا.

كما قال تعالى: وَإِنْ يَسْتَغِيثُوا يُغَاثُوا بِمَاءٍ كَالْمُهْلِ يَشْوِي الْوُجُوهَ بِئْسَ الشَّرَابُ وَسَاءَتْ مُرْتَفَقًا [الكهف: 29].

وقال سبحانه: هَذَا وَإِنَّ لِلطَّاغِينَ لَشَرَّ مَآبٍ * جَهَنَّمَ يَصْلَوْنَهَا فَبِئْسَ الْمِهَادُ * هَذَا فَلْيَذُوقُوهُ حَمِيمٌ وَغَسَّاقٌ * وَآخَرُ مِنْ شَكْلِهِ أَزْوَاجٌ [ص: 55 – 58].

وقال عزَّ وجلَّ: لَا يَذُوقُونَ فِيهَا بَرْدًا وَلَا شَرَابًا * إِلَّا حَمِيمًا وَغَسَّاقًا * جَزَاءً وِفَاقًا * إِنَّهُمْ كَانُوا لَا يَرْجُونَ حِسَابًا * وَكَذَّبُوا بِآيَاتِنَا كِذَّابًا [النبأ: 24 – 28].

سُورةُ يُونُس

الآيتان (5–6)

هُوَ الَّذِي جَعَلَ الشَّمْسَ ضِيَاءً وَالْقَمَرَ نُورًا وَقَدَّرَهُ مَنَازِلَ لِتَعْلَمُوا عَدَدَ السِّنِينَ وَالْحِسَابَ مَا
خَلَقَ اللَّهُ ذَلِكَ إِلَّا بِالْحَقِّ يُفَصِّلُ الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ (5) إِنَّ فِي اخْتِلَافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ
وَمَا خَلَقَ اللَّهُ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَتَّقُونَ (6)

تفسير الآيتين:

هُوَ الَّذِي جَعَلَ الشَّمْسَ ضِيَاء وَالْقَمَرَ نُورًا وَقَدَّرَهُ مَنَازِلَ لِتَعْلَمُواْ عَدَدَ السِّنِينَ وَالْحِسَابَ مَا خَلَقَ اللّهُ ذَلِكَ إِلاَّ بِالْحَقِّ يُفَصِّلُ الآيَاتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ (5).

هُوَ الَّذِي جَعَلَ الشَّمْسَ ضِيَاء وَالْقَمَرَ نُورًا.

أي: اللهُ هو الَّذي صيَّرَ الشَّمسَ مُضيئةً إضاءةً ساطِعةً قَويَّةً في النَّهارِ، وصيَّرَ القمَرَ مُنيرًا في اللَّيلِ.

كما قال سُبحانه: تَبَارَكَ الَّذِي جَعَلَ فِي السَّمَاءِ بُرُوجًا وَجَعَلَ فِيهَا سِرَاجًا وَقَمَرًا مُنِيرًا [الفرقان: 61].

وقال عزَّ وجلَّ: وَجَعَلَ الْقَمَرَ فِيهِنَّ نُورًا وَجَعَلَ الشَّمْسَ سِرَاجًا [نوح: 16].

وقال تبارك وتعالى: وَجَعَلْنَا النَّهَارَ مَعَاشًا * وَبَنَيْنَا فَوْقَكُمْ سَبْعًا شِدَادًا * وَجَعَلْنَا سِرَاجًا وَهَّاجًا [النبأ: 11 – 13].

وَقَدَّرَهُ مَنَازِلَ.

أي: وقدَّر اللهُ وقضى مَسيرَ القَمَرِ في منازِلَ، يَنْزِلُ في كلِّ يومٍ وليلةٍ مَنزِلًا منها، وهيَّأ ذلك في كلِّ شَهرٍ.[12]

كما قال تعالى: وَالْقَمَرَ قَدَّرْنَاهُ مَنَازِلَ حَتَّى عَادَ كَالْعُرْجُونِ الْقَدِيمِ [يس: 39].

لِتَعْلَمُواْ عَدَدَ السِّنِينَ وَالْحِسَاب.

أي: قدَّرَ اللهُ القَمَرَ منازِلَ؛ لِتَعرِفوا- أيُّها النَّاسُ- عدَدَ السَّنواتِ، وتَعرِفوا حساب اللَّيالي والشُّهورِ، فتنتَفِعوا بذلك في أمورِ دِينِكم ودُنياكم.

مَا خَلَقَ اللّهُ ذَلِكَ إِلاَّ بِالْحَقِّ.

أي: لم يخلُقِ اللهُ الشَّمسَ والقَمَرَ ومَنازِلَه، إلَّا لحكمةٍ عظيمةٍ تدلُّ على وحدانيَّتِه وعظمةِ صِفاتِه، ولم يخلُقْ ذلك عَبَثًا وباطِلًا.

كما قال تعالى: وَمَا خَلَقْنَا السَّمَاءَ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا لَاعِبِينَ [الأنبياء: 16].

---

(12) قال البغوي: (مَنازِلُ القَمَرِ ثمانيةٌ وعِشرونَ مَنزِلًا...
وهذه المنازِلُ مَقسومةٌ على البُروجِ، وهي اثنا عشر بُرجًا...
فلكُلِّ بُرجٍ مَنزِلانِ وثُلُثُ مَنزِلٍ، فينزلُ القَمَرُ كُلَّ ليلةٍ مَنزِلًا منها، ويستَتِرُ ليلتينِ إن كان الشَّهرُ ثلاثينَ، وإن كان الشَّهرُ تِسعًا وعشرينَ، فليلة واحدة، فيكونُ انقضاءُ الشَّهرِ بنُزولِ تلك المنازِلِ، ويكونُ مقامُ الشَّمسِ في كلِّ مَنزلةٍ ثلاثةَ عَشَرَ يومًا وثلُثَ يومٍ، فيكون انقضاءُ السَّنةِ مِن انقضائِها).
((تفسير البغوي)) (2/410-411).

وقال سبحانه: وَمَا خَلَقْنَا السَّمَاءَ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا بَاطِلًا ذَلِكَ ظَنُّ الَّذِينَ كَفَرُوا فَوَيْلٌ لِلَّذِينَ كَفَرُوا مِنَ النَّارِ [ص: 27].

يُفَصِّلُ الآيَاتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ.

أي: يُبيِّنُ اللهُ الحُجَجَ والأدلَّةَ الباهرةَ لقومٍ يَعلَمونَ– إذا تدبَّروها– وَحدانيَّةَ اللهِ تعالى وقُدرتَه، وآثارَ إحسانِه، ويستدِلُّونَ بها على شُؤونِ وصِفاتِ مُبدِعِها سُبحانه.

كما قال تعالى: فَالِقُ الْإِصْبَاحِ وَجَعَلَ اللَّيْلَ سَكَنًا وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ حُسْبَانًا ذَلِكَ تَقْدِيرُ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ * وَهُوَ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ النُّجُومَ لِتَهْتَدُوا بِهَا فِي ظُلُمَاتِ الْبَرِّ وَالْبَحْرِ قَدْ فَصَّلْنَا الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ [الأنعام: 96، 97].

وقال سبحانه: كَذَلِكَ نُفَصِّلُ الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ [الروم: 28].

إِنَّ فِي اخْتِلَافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَمَا خَلَقَ اللَّهُ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَتَّقُونَ (6).

أي: إنَّ في تعاقُبِ اللَّيلِ والنَّهارِ، وخَلْفِ أحدِهما الآخَرَ، وفي كلِّ ما خلَقَ اللهُ في السَّمواتِ والأرضِ، لَأدلَّةً واضحةً على خالِقِها، وعلى ثُبوتِ المَعادِ إليه يومَ القيامةِ، لقومٍ يتَّقونَ غضَبَ اللهِ وعِقابَه، فيَصرِفونَ العبادةَ له وَحْدَه لا شَريكَ له، ويَمتَثِلونَ أوامِرَه، ويجتَنِبونَ نواهِيَه، لا يحمِلُهم هواهم على خِلافِ ما وضَحَ لهم من الحَقِّ.

كما قال تعالى: إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاخْتِلَافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَالْفُلْكِ الَّتِي تَجْرِي فِي الْبَحْرِ بِمَا يَنْفَعُ النَّاسَ وَمَا أَنْزَلَ اللَّهُ مِنَ السَّمَاءِ مِنْ مَاءٍ فَأَحْيَا بِهِ الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا وَبَثَّ فِيهَا مِنْ كُلِّ دَابَّةٍ وَتَصْرِيفِ الرِّيَاحِ وَالسَّحَابِ الْمُسَخَّرِ بَيْنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ [البقرة: 164].

وقال سُبحانه: إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاخْتِلَافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ لَآيَاتٍ لِأُولِي الْأَلْبَابِ [آل عمران: 190].

وقال تبارك وتعالى: إِنَّ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ لَآيَاتٍ لِلْمُؤْمِنِينَ * وَفِي خَلْقِكُمْ وَمَا يَبُثُّ مِنْ دَابَّةٍ آيَاتٌ لِقَوْمٍ يُوقِنُونَ * وَاخْتِلَافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَمَا أَنْزَلَ اللَّهُ مِنَ السَّمَاءِ مِنْ رِزْقٍ فَأَحْيَا بِهِ الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا وَتَصْرِيفِ الرِّيَاحِ آيَاتٌ لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ * تِلْكَ آيَاتُ اللَّهِ نَتْلُوهَا عَلَيْكَ بِالْحَقِّ فَبِأَيِّ حَدِيثٍ بَعْدَ اللَّهِ وَآيَاتِهِ يُؤْمِنُونَ [الجاثية: 3 – 6].

سُورةُ يُونُس

الآيتان (7-10)

إِنَّ الَّذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَاءَنَا وَرَضُوا بِالْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَاطْمَأَنُّوا بِهَا وَالَّذِينَ هُمْ عَنْ آيَاتِنَا غَافِلُونَ (7) أُولَئِكَ مَأْوَاهُمُ النَّارُ بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ (8) إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ يَهْدِيهِمْ رَبُّهُمْ بِإِيمَانِهِمْ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهِمُ الْأَنْهَارُ فِي جَنَّاتِ النَّعِيمِ (9) دَعْوَاهُمْ فِيهَا سُبْحَانَكَ اللَّهُمَّ وَتَحِيَّتُهُمْ فِيهَا سَلَامٌ وَآخِرُ دَعْوَاهُمْ أَنِ الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ (10)

غريب الكلمات:

وَاطْمَأَنُّوا بِهَا: أي: سَكَنوا إليها، والطُّمأنينةُ والاطمِئنانُ: السُّكونُ بعد الانزِعاجِ.

دَعْوَاهُمْ فِيهَا: أي: دُعاؤُهم وقولُهم وكلامُهم؛ فالدَّعوى تُطلَقُ على: الادِّعاءِ والدُّعاءِ والقَولِ كذلِك، وأصلُ (دعو): أنْ يُمِيلَ الشَّخصُ الشَّيءَ إليه بصَوتٍ وكَلامٍ يكونُ منه.

تفسير الآيات:

إِنَّ الَّذِينَ لاَ يَرْجُونَ لِقَاءنَا وَرَضُواْ بِالْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَاطْمَأَنُّواْ بِهَا وَالَّذِينَ هُمْ عَنْ آيَاتِنَا غَافِلُونَ (7).

إِنَّ الَّذِينَ لاَ يَرْجُونَ لِقَاءنَا.

أي: إنَّ الَّذين لا يتوقَّعونَ لِقاءَنا يومَ القيامةِ، فلا يَخافونَ مِن لِقاءِ اللَّهِ، ولا يَطمَعونَ فيه، ولا يَخافونَ مِن عِقابِه، ولا يَطمَعونَ في ثوابِه.

وَرَضُواْ بِالْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَاطْمَأَنُّواْ بِهَا.

أي: ورضُوا بالحياةِ الدُّنيا بدلًا من الآخرةِ، وفرِحوا بها ورَكَنوا وسَكَنوا إليها.

وَالَّذِينَ هُمْ عَنْ آيَاتِنَا غَافِلُونَ.

أي: والذين هم عن آياتِنا الكونيَّةِ والتَّنزيليَّةِ مُعرِضونَ، لا يتفكَّرونَ فيها، ولا يَعتَبِرونَ بها.

أُوْلَئِكَ مَأْوَاهُمُ النُّارُ بِمَا كَانُواْ يَكْسِبُونَ (8).

أي: أولئك الذين تلك صِفاتُهم، مَقَرُّهم ومَسكَنُهم في الآخرةِ: النَّارُ؛ بسبَبِ ما كانوا يكسِبونَه في الدُّنيا مِنَ الكُفرِ والشِّركِ والمعاصي.

إِنَّ الَّذِينَ آمَنُواْ وَعَمِلُواْ الصَّالِحَاتِ يَهْدِيهِمْ رَبُّهُمْ بِإِيمَانِهِمْ تَجْرِي مِن تَحْتِهِمُ الأَنْهَارُ فِي جَنَّاتِ النَّعِيمِ (9).

إِنَّ الَّذِينَ آمَنُواْ وَعَمِلُواْ الصَّالِحَاتِ يَهْدِيهِمْ رَبُّهُمْ بِإِيمَانِهِمْ.

أي: إنَّ الذين آمَنوا بكُلِّ ما وجَبَ عليهم الإيمانُ به، وعَمِلوا الأعمالَ الصَّالِحاتِ؛ يَزيدُهم ربُّهم في الدُّنيا هدًى إلى هداهم، ويُرشِدُهم في الآخرةِ إلى جنَّاتِه، وذلك بِسَببِ إيمانِهم.[13]

كما قال تعالى: اللَّهُ وَلِيُّ الَّذِينَ آمَنُوا يُخْرِجُهُمْ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ [البقرة: 257].

وقال سبحانه: يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنْ تَتَّقُوا اللَّهَ يَجْعَلْ لَكُمْ فُرْقَانًا وَيُكَفِّرْ عَنْكُمْ سَيِّئَاتِكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ وَاللَّهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ [الأنفال: 29].

وقال عزَّ وجلَّ: وَيَزِيدُ اللَّهُ الَّذِينَ اهْتَدَوْا هُدًى [مريم: 76].

تَجْرِي مِن تَحْتِهِمُ الأَنْهَارُ فِي جَنَّاتِ النَّعِيمِ.

أي: تَجري مِن تحتِ هؤلاءِ- الذين آمَنوا وعَمِلوا الصَّالحاتِ- الأنهارُ، فتَجْري مِن تحتِ غُرَفِهم ومقاعِدِهم وسُرُرِهم في بساتينِ النَّعيم.

---

(13) ذكر ابنُ عطية (٤/ ٤٥٥) أنّ قوله: ﴿بإيمانهم﴾ يحتمل احتمالين:

الأول: أن يريد بسبب إيمانهم، ويكون مقابلًا لقوله قبل: ﴿مأواهم النار بما كانوا يكسبون﴾.

الثاني: أن يكون الإيمان هو نفس الهدى، أي: يهديهم إلى طرق الجنة بنور إيمانهم.

دَعْوَاهُمْ فِيهَا سُبْحَانَكَ اللَّهُمَّ وَتَحِيَّتُهُمْ فِيهَا سَلَامٌ وَآخِرُ دَعْوَاهُمْ أَنِ الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ (10).

دَعْوَاهُمْ فِيهَا سُبْحَانَكَ اللَّهُمَّ.

أي: دُعاءُ المؤمِنينَ في الجنَّةِ أن يقولوا: سُبحانَك اللَّهُم، أي: ننزِّهُك يا اللهُ تنزيهًا مِن كلِّ عيبٍ ونَقصٍ.

عن جابرِ بنِ عَبدِ اللهِ رَضِيَ اللهُ عنهما، قال: سمعتُ النبيَّ - ﷺ - يقولُ: ((إنَّ أهلَ الجنَّةِ يأكلونَ فيها ويَشرَبونَ، ولا يَتفِلونَ ولا يَبولونَ، ولا يتغوَّطونَ ولا يَمتَخِطونَ. قالوا: فما بالُ الطَّعامِ؟! قال: جُشاءٌ ورَشحٌ كرَشحِ المِسكِ، يُلهَمونَ التَّسبيحَ والتَّحميدَ، كما تُلهَمونَ النَّفَسَ)).(14)

وَتَحِيَّتُهُمْ فِيهَا سَلَامٌ.

أي: وتحيَّةُ المؤمنينَ في الجنَّةِ: دعاءُ بَعضِهم لِبَعضٍ بالسَّلامةِ مِن كُلِّ سُوءٍ.(15)

(14) رواه مسلم (2835).
(15) ذكر ابنُ عطية (٤/ ٤٥٦) أنّ بعض العلماء قال: «﴿وتحيتهم﴾، يريد: تسليم الله - عز وجل - عليهم».

وَآخِرُ دَعْوَاهُمْ أَنِ الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ.

أي: وخاتِمةُ دُعائِهم أن يقولوا: الحمدُ لِلَّهِ رَبِّ العالَمينَ، أي: جميعُ المحامِدِ مُستحَقَّةٌ لله تعالى ربِّ العالمينَ؛ فهو وَحدَه الموصوفُ بالكَمالِ، مع محبَّتِه وتعظيمِه عزَّ وجلَّ.(16)

(16) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (129/12)، ((تفسير ابن عطية)) (108/3)، ((تفسير ابن كثير)) (250/4، 251)، ((تفسير المنار)) لمحمد رشيد رضا (253/11).

قال ابنُ كثيرٍ: (جاءَ في الحديثِ: «إنَّ أهلَ الجنةِ يُلْهَمونَ التَّسبيحَ والتَّحميدَ كما يُلْهَمونَ النَّفَسَ» وإنَّما يكونُ ذلك كذلك؛ لِمَا يَرَونَ مِن تضاعُفِ نِعَمِ اللهِ عليهم، فتُكَرَّرُ وتُعادُ وتُزادُ، فليس لها انقضاءٌ ولا أمَدٌ، فلا إلهَ إلَّا هو، ولا ربَّ سواه).

((تفسير ابن كثير)) (251/4).

وقال ابن عاشور: (معنى آخِرِ دَعواهم: أنَّهم يَختِمونَ به دُعاءَهم، فهم يكرِّرونَ: سُبحانَك اللهُمَّ، فإذا أرادوا الانتقالَ إلى حالةٍ أخرى مِن أحوالِ النَّعيمِ، نَهَّوْا دعاءَهم بجملةِ: الحمدُ لِلَّهِ رَبِّ العالَمينَ).

((تفسير ابن عاشور)) (104/11).

سُورةُ يُونُس

الآيتان (11–12)

وَلَوْ يُعَجِّلُ اللَّهُ لِلنَّاسِ الشَّرَّ اسْتِعْجَالَهُمْ بِالْخَيْرِ لَقُضِيَ إِلَيْهِمْ أَجَلُهُمْ فَنَذَرُ الَّذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَاءَنَا فِي طُغْيَانِهِمْ يَعْمَهُونَ (11) وَإِذَا مَسَّ الْإِنْسَانَ الضُّرُّ دَعَانَا لِجَنْبِهِ أَوْ قَاعِدًا أَوْ قَائِمًا فَلَمَّا كَشَفْنَا عَنْهُ ضُرَّهُ مَرَّ كَأَنْ لَمْ يَدْعُنَا إِلَى ضُرٍّ مَسَّهُ كَذَلِكَ زُيِّنَ لِلْمُسْرِفِينَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ (12)

غريب الكلمات:

طُغْيَانِهِمْ: أي: عُتُوِّهِمْ وتكبُّرِهم. وأصلُ الطُّغيانِ: مُجاوزةُ الحدِّ.

يَعْمَهُونَ: أي: يتردَّدونَ ويتَحيَّرونَ. وأصلُ (عمه): يدلُّ على حَيرةٍ، وقِلَّةِ اهتداءٍ.

تفسير الآيتين:

وَلَوْ يُعَجِّلُ اللّهُ لِلنَّاسِ الشَّرَّ اسْتِعْجَالَهُم بِالْخَيْرِ لَقُضِيَ إِلَيْهِمْ أَجَلُهُمْ فَنَذَرُ الَّذِينَ لاَ يَرْجُونَ لِقَاءنَا فِي طُغْيَانِهِمْ يَعْمَهُونَ (11).

وَلَوْ يُعَجِّلُ اللّهُ لِلنَّاسِ الشَّرَّ اسْتِعْجَالَهُم بِالْخَيْرِ لَقُضِيَ إِلَيْهِمْ أَجَلُهُمْ.

أي: ولو يُعجِّلُ الله للنَّاسِ الشرَّ إذا دَعَوْا به، كاستعجالِهم بالخيرِ،[17] لهلَكوا.[18]

---

(17) ذهب بعض المفسِّرين إلى أنَّ قولَه تعالى: اسْتِعْجَالَهُمْ بِالْخَيْرِ يعني تعجيلَ اللهِ الخيرَ لهم.

أي: ولو يعجِّلُ الله للنَّاسِ إجابةَ دُعائِهم فيما فيه عليهم مضَرَّةٌ، كتعجيلِه لهم الإجابةَ في الخيرِ إذا دَعَوه به.

وممن اختار ذلك: ابنُ جريرٍ، وابنُ كثيرٍ، والسعدي.

يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (129/12)، ((تفسير ابن كثير)) (251/4)، ((تفسير السعدي)) (ص: 359).

وجعل بعضُ المفَسِّرينَ الاستعجالَ مِن فِعلِ العبادِ، كما قال تعال: وَيَدْعُ الْإِنْسَانُ بِالشَّرِّ دُعَاءَهُ بِالْخَيْرِ وَكَانَ الْإِنْسَانُ عَجُولًا [الإسراء: 11].

ومنهم: ابنُ قتيبةَ، والواحديُّ، والبغويُّ، وابنُ عطيةَ.

يُنظر: ((تأويل مشكل القرآن)) لابن قتيبة (ص: 226)، ((البسيط)) للواحدي (134/11)، ((تفسير البغوي)) (412/2)، ((تفسير ابن عطية)) (108/3).

(18) يُنظر: ((تأويل مشكل القرآن)) لابن قتيبة (ص: 225، 226)، ((تفسير ابن جرير)) (129/12)، ((البسيط)) للواحدي (133/11-136)، ((تفسير البغوي)) (412/2)، ((تفسير ابن عطية)) (108/3)، ((تفسير ابن كثير)) (251/4)، ((تفسير السعدي)) (ص: 359).

قال الواحدي: (قولُه تعالى: لَقُضِيَ إِلَيْهِمْ أَجَلُهُمْ، قال عامة المفَسِّرين: أي: لَماتوا وهلكوا جميعًا وفُرِغَ مِن هلاكهم، وقال أبو عبيدةَ: لفُرِغَ عن أجَلِهم، والتقدير: لفُرِغَ مِن أجلهم ومدَّتِهم المضروبةِ للحياة، فإذا انتهت مدَّتُهم المضروبةُ للحياة هلكوا، ومعنى الفراغِ مِن المدة: انقضاؤها، والشَّيءُ إذا انقضى فُرِغَ منه).

((البسيط)) (136/11).

وقال ابنُ جُزي: (نزلت الآيةُ- عند قومٍ- في دعاءِ الإنسانِ على نفسِه ومالِه وولده، وقيل: نزلَتْ في الذينَ قالوا: إِنْ كَانَ هَذَا هُوَ الْحَقَّ مِنْ عِنْدِكَ فَأَمْطِرْ عَلَيْنَا حِجَارَةً مِنَ السَّمَاءِ).

عن جابرِ بنِ عَبدِ اللهِ، رَضِيَ اللهُ عنه، قال: قال رسولُ اللهِ – ﷺ –: ((لا تَدْعُوا على أنفُسِكم، ولا تَدْعُوا على أولادِكم، ولا تَدعُوا على أمْوالِكم؛ لا تُوافِقوا مِن اللهِ ساعةً يُسألُ فيها عطاءً، فيستجيبَ لكم))[19].

فَنَذَرُ الَّذِينَ لاَ يَرْجُونَ لِقَاءنَا فِي طُغْيَانِهِمْ يَعْمَهُونَ.

أي: فنَترُكُ الذين لا يُؤمِنونَ بلِقائِنا، فلا يخافونَ عِقابَنا، ولا يَطمَعونَ في ثوابِنا، نَترُكُهم في تمَرُّدِهم مُترَدِّدين مُتحَيِّرين، لا يَهتَدونَ إلى الحَقِّ.

كما قال تعالى: إِنَّ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ زَيَّنَّا لَهُمْ أَعْمَالَهُمْ فَهُمْ يَعْمَهُونَ [النمل: 4]

وَإِذَا مَسَّ الْإِنسَانَ الضُّرُّ دَعَانَا لِجَنبِهِ أَوْ قَاعِدًا أَوْ قَآئِمًا فَلَمَّا كَشَفْنَا عَنْهُ ضُرَّهُ مَرَّ كَأَن لَّمْ يَدْعُنَا إِلَى ضُرٍّ مَّسَّهُ كَذَلِكَ زُيِّنَ لِلْمُسْرِفِينَ مَا كَانُواْ يَعْمَلُونَ (12).

((تفسير ابن جزي)) (1/353).

وقال ابنُ عطيةَ: (حُذف بعدَ ذلك مِن القولِ جملةٌ يتضمَّنُها الظاهرُ، تقديرُها: «ولا يفعلُ ذلك، ولكن يذرُ الذين لا يَرْجون...» فاقتضَب القولَ، وتوصَّل إلى هذا المعنَى بقولِه: فَنَذَرُ الَّذِينَ لا يَرْجُونَ لِقاءَنا فتأملْ هذا التقديرَ تجِدْه صحيحًا).

((تفسير ابن عطية)) (3/ 108).

(19) أخرجه مسلم (3009).

وَإِذَا مَسَّ الإِنسَانَ الضُّرُّ دَعَانَا لِجَنبِهِ أَوْ قَاعِدًا أَوْ قَآئِمًا.

أي: وإذا أصابَ الإنسانَ الشِّدَّةُ والكَربُ اجتهَدَ في دعائِنا في جميعِ أحوالِه؛ مُضطَجِعًا على جَنْبِه، أو قاعدًا، أو قائمًا.

كما قال تعالى: وَإِذَا غَشِيَهُمْ مَوْجٌ كَالظُّلَلِ دَعَوُا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ فَلَمَّا نَجَّاهُمْ إِلَى الْبَرِّ فَمِنْهُمْ مُقْتَصِدٌ وَمَا يَجْحَدُ بِآيَاتِنَا إِلَّا كُلُّ خَتَّارٍ كَفُورٍ [لقمان: 32].

وقال سُبحانه: وَإِذَا أَنْعَمْنَا عَلَى الْإِنْسَانِ أَعْرَضَ وَنَأَى بِجَانِبِهِ وَإِذَا مَسَّهُ الشَّرُّ فَذُو دُعَاءٍ عَرِيضٍ [فصلت: 51].

فَلَمَّا كَشَفْنَا عَنْهُ ضُرَّهُ مَرَّ كَأَن لَّمْ يَدْعُنَا إِلَى ضُرٍّ مَّسَّهُ.

أي: فلمَّا فَرَّجْنا عن الإنسانِ المُضطَرِّ، واستجَبْنا دُعاءَه، استمَرَّ على ما كان عليه مِن الكُفرِ أو المعاصي، ونَسِيَ أو تناسى ما كان فيه مِن الشِّدَّةِ، ولم يتَّعِظْ بذلك، ولم يَشكُرِ، كأنَّه لم يَدْعُنا إلى رَفعِ ما أصابَه!

كما قال تعالى: فَإِذَا رَكِبُوا فِي الْفُلْكِ دَعَوُا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ فَلَمَّا نَجَّاهُمْ إِلَى الْبَرِّ إِذَا هُمْ يُشْرِكُونَ * لِيَكْفُرُوا بِمَا آتَيْنَاهُمْ وَلِيَتَمَتَّعُوا فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ [العنكبوت: 65-66].

وقال سُبحانه: وَإِذَا مَسَّ الْإِنْسَانَ ضُرٌّ دَعَا رَبَّهُ مُنِيبًا إِلَيْهِ ثُمَّ إِذَا خَوَّلَهُ نِعْمَةً مِنْهُ نَسِيَ مَا كَانَ يَدْعُو إِلَيْهِ مِنْ قَبْلُ وَجَعَلَ لِلَّهِ أَنْدَادًا لِيُضِلَّ عَنْ سَبِيلِهِ قُلْ تَمَتَّعْ بِكُفْرِكَ قَلِيلًا إِنَّكَ مِنْ أَصْحَابِ النَّارِ [الزمر: 8].

كَذَلِكَ زُيِّنَ لِلْمُسْرِفِينَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ.

أي: كما زُيّنَ للإنسانِ الدُّعاءُ عند البَلاءِ، والإعراضُ عند الرَّخاءِ، واستمرارُه على ما كان عليه مِن كُفرانٍ بعد كَشْفِ ضُرِّه، كذلك زُيّنَ للكافرين المُجاوِزينَ الحَدَّ في الكُفرِ والعِصيانِ ما كانوا يَعملونَه من ذلك.[20]

(20) قال الشوكاني: (والتزيينُ هو إمَّا مِن جهةِ الله تعالى على طريقةِ [التخليةِ] وعدمِ اللطفِ بهم، أو مِن طريقِ الشيطانِ بالوسوسةِ، أو مِن طريقِ النفسِ الأمَّارة بالسوءِ).
((تفسير الشوكاني)) (2/488).
وقال ابنُ عطيةَ: (ولفظةُ التَّزيينِ قد جاءت في القرآنِ بهذينِ المَعنَيينِ: مِن فِعلِ الله تعالى، ومرَّةً مِن فِعلِ الشَّياطينِ).
((تفسير ابن عطية)) (3/109).

سُورةُ يُونُس

الآيتان (13-14)

وَلَقَدْ أَهْلَكْنَا الْقُرُونَ مِنْ قَبْلِكُمْ لَمَّا ظَلَمُوا وَجَاءَتْهُمْ رُسُلُهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ وَمَا كَانُوا لِيُؤْمِنُوا كَذَلِكَ نَجْزِي الْقَوْمَ الْمُجْرِمِينَ (13) ثُمَّ جَعَلْنَاكُمْ خَلَائِفَ فِي الْأَرْضِ مِنْ بَعْدِهِمْ لِنَنْظُرَ كَيْفَ تَعْمَلُونَ (14)

غريب الكلمات:

الْقُرُونَ: جمعُ قَرْنٍ، والقرنُ: القومُ أو الأُمَّةُ مِنَ النَّاسِ المقترنونَ في زمنٍ واحدٍ، غَيْرَ مُقَدَّرٍ بمدةٍ مُعَيَّنةٍ، وقيل: مدَّة القرنِ مئةُ سنةٍ، وقيل: ثمانونَ، وقيل: ثلاثون، وقيل غيرُ ذلك، وهو مأخوذٌ مِن الاقترانِ، وهو اجتماعُ شيئينِ، أو أشياءَ في معنًى مِن المعاني، وأصلُ (قرن): يدلُّ على جمعِ شيءٍ إلى شيءٍ.

خَلَائِفَ: أي: سُكَّانًا يخلُفُ بَعضُكم بعضًا، وأصلُ (خلف): أن يَجِيءَ شَيءٌ بعدَ شَيءٍ يقومُ مَقامَه.

تفسير الآيتين:

وَلَقَدْ أَهْلَكْنَا الْقُرُونَ مِن قَبْلِكُمْ لَمَّا ظَلَمُواْ وَجَاءتْهُمْ رُسُلُهُم بِالْبَيِّنَاتِ وَمَا كَانُواْ لِيُؤْمِنُواْ كَذَلِكَ نَجْزِي الْقَوْمَ الْمُجْرِمِينَ (13).

وَلَقَدْ أَهْلَكْنَا الْقُرُونَ مِن قَبْلِكُمْ لَمَّا ظَلَمُواْ.

أي: ولقد أهلكْنا بالاستئصالِ الأمم الماضيةِ التي كانت قَبْلَكم- أيُّها المُشرِكونَ - لَمَّا أشرَك أهلُها باللهِ، وكَذَّبوا رُسُلَه، وخالفوا أمْرَه ونَهْيَه.

كما قال سُبحانه: أَوَلَمْ يَهْدِ لَهُمْ كَمْ أَهْلَكْنَا مِنْ قَبْلِهِمْ مِنَ الْقُرُونِ يَمْشُونَ فِي مَسَاكِنِهِمْ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ أَفَلَا يَسْمَعُونَ [السجدة: 26].

وقال عزَّ وجلَّ: وَكَمْ أَهْلَكْنَا قَبْلَهُمْ مِنْ قَرْنٍ هُمْ أَشَدُّ مِنْهُمْ بَطْشًا فَنَقَّبُوا فِي الْبِلَادِ هَلْ مِنْ مَحِيصٍ [ق: 36].

وَجَاءتْهُمْ رُسُلُهُم بِالْبَيِّنَاتِ.

أي: وأتت الأممَ الماضيةَ رُسُلُ اللهِ بالمُعجِزاتِ والبَراهينِ الواضِحةِ التي تدُلُّ على صِدقِهم.

كما قال تعالى: أَلَمْ يَأْتِهِمْ نَبَأُ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ قَوْمِ نُوحٍ وَعَادٍ وَثَمُودَ وَقَوْمِ إِبْرَاهِيمَ وَأَصْحَابِ مَدْيَنَ وَالْمُؤْتَفِكَاتِ أَتَتْهُمْ رُسُلُهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ فَمَا كَانَ اللَّهُ لِيَظْلِمَهُمْ وَلَكِنْ كَانُوا أَنْفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ [التوبة: 70].

وَمَا كَانُواْ لِيُؤْمِنُواْ.

أي: فلم يكُن أهلُ القُرونِ الماضيةِ لِيُؤمِنوا برُسُلِ اللهِ الذين جاؤوهم بالمُعجِزاتِ؛ لأنَّ اللهَ طبَعَ على قُلوبِهم لشِدَّةِ كُفرِهم، ومُعاندَتِهم للحَقِّ.

كما قال تعالى: تِلْكَ الْقُرَى نَقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنْبَائِهَا وَلَقَدْ جَاءَتْهُمْ رُسُلُهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ فَمَا كَانُوا لِيُؤْمِنُوا بِمَا كَذَّبُوا مِنْ قَبْلُ كَذَلِكَ يَطْبَعُ اللَّهُ عَلَى قُلُوبِ الْكَافِرِينَ [الأعراف: 101].

وقال سُبحانه: ثُمَّ بَعَثْنَا مِنْ بَعْدِهِ رُسُلًا إِلَى قَوْمِهِمْ فَجَاءُوهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ فَمَا كَانُوا لِيُؤْمِنُوا بِمَا كَذَّبُوا بِهِ مِنْ قَبْلُ كَذَلِكَ نَطْبَعُ عَلَى قُلُوبِ الْمُعْتَدِينَ [يونس: 74].

كَذَلِكَ نَجْزِي الْقَوْمَ الْمُجْرِمِينَ.

أي: كما أهلَكْنا أهلَ القُرونِ الماضيةِ مِن قَبلِكم- أيُّها المُشرِكونَ- بسبَبِ شِرْكِهم، كذلك نُهلِكُكم إذا لم تَتوبوا وتُؤمِنوا باللهِ ورُسُلِه، ونُهلِكُ كُلَّ مُشركٍ وكافرٍ كذلك.

كما قال سبحانه: أَلَمْ نُهْلِكِ الْأَوَّلِينَ * ثُمَّ نُتْبِعُهُمُ الْآخِرِينَ *كَذَلِكَ نَفْعَلُ بِالْمُجْرِمِينَ [المرسلات: 16-18].

ثُمَّ جَعَلْنَاكُمْ خَلاَئِفَ فِي الأَرْضِ مِن بَعْدِهِم لِنَنظُرَ كَيْفَ تَعْمَلُونَ (14).

ثُمَّ جَعَلْنَاكُمْ خَلَائِفَ فِي الْأَرْضِ مِن بَعْدِهِم

أي: ثمَّ جَعَلْناكم[21] سكَّانًا في الأرضِ، تكونون فيها مِن بَعدِ الأمَمِ الماضيةِ التي أهلَكْناها.

لِنَنظُرَ كَيْفَ تَعْمَلُونَ.

أي: استَخلَفْناكم بَعْدَهم؛ لِننظُرَ أيَّ عَمَلٍ تَعملونَ من أعمالِ الخَيرِ أو الشَّرِّ، فنُجازيكم عليه.

عن أبي سعيدٍ الخُدْريّ رَضِيَ اللهُ عنه، عن النبيِّ – ﷺ – قال: ((إنَّ الدُّنيا حُلوةٌ خَضِرةٌ،[22] وإنَّ اللهَ مُستَخلِفُكم فيها، فينظُرُ كيف تَعمَلونَ)).[23]

---

(21) قال الخازن: (الخطابُ لأهلِ مَكَّةَ الذين أُرسِلَ فيهم رسولُ الله صلَّى اللهُ عليه وسلَّم، والمعنى: ثمَّ جَعَلْناكم– أيُّها النَّاسُ– خُلَفاءَ في الأرضِ مِن بَعدِ القُرونِ الماضيةِ الذين أهلَكْناهم).

((تفسير الخازن)) (432/2).

وقال ابنُ عاشور: (المرادُ بـ (الأرض) بلادُ العَرَب، فالتعريفُ فيه للعَهدِ؛ لأنَّ المُخاطَبينَ خَلَفوا عادًا وثَمودَ وطَسمًا وجَدِيسًا وجُرْهُمًا في منازِلِهم على الجملةِ).

((تفسير ابن عاشور)) (114/11).

(22) حُلْوَة خَضِرة: أي: غضَّةٌ ناعِمةٌ طيِّبةٌ، مُزيَّنةٌ في عيونِكم وقلوبِكم، وإنَّما وصَفَها بالخَضِرَة؛ لأنَّ العربَ تُسمِّي الشَّيءَ النَّاعِمَ خَضِرًا، أو لتشَبُّهِها بالخُضْرواتِ في سرعةِ زَوالِها.

يُنظر: ((المعلم بفوائد مسلم)) للمازري (33/2) ((مرقاة المفاتيح)) للمُلا الهروي (2044/5).

(23) رواه مسلم (2742).

سُورةُ يُونُس

الآيتان (15–17)

وَإِذَا تُتْلَى عَلَيْهِمْ آيَاتُنَا بَيِّنَاتٍ قَالَ الَّذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَاءَنَا ائْتِ بِقُرْآنٍ غَيْرِ هَذَا أَوْ بَدِّلْهُ قُلْ مَا يَكُونُ لِي أَنْ أُبَدِّلَهُ مِنْ تِلْقَاءِ نَفْسِي إِنْ أَتَّبِعُ إِلَّا مَا يُوحَى إِلَيَّ إِنِّي أَخَافُ إِنْ عَصَيْتُ رَبِّي عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ (15) قُلْ لَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا تَلَوْتُهُ عَلَيْكُمْ وَلَا أَدْرَاكُمْ بِهِ فَقَدْ لَبِثْتُ فِيكُمْ عُمُرًا مِنْ قَبْلِهِ أَفَلَا تَعْقِلُونَ (16) فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَى عَلَى اللَّهِ كَذِبًا أَوْ كَذَّبَ بِآيَاتِهِ إِنَّهُ لَا يُفْلِحُ الْمُجْرِمُونَ (17)

تفسير الآيات:

وَإِذَا تُتْلَى عَلَيْهِمْ آيَاتُنَا بَيِّنَاتٍ قَالَ الَّذِينَ لاَ يَرْجُونَ لِقَاءنَا ائْتِ بِقُرْآنٍ غَيْرِ هَـذَا أَوْ بَدِّلْهُ قُلْ مَا يَكُونُ لِي أَنْ أُبَدِّلَهُ مِن تِلْقَاء نَفْسِي إِنْ أَتَّبِعُ إِلاَّ مَا يُوحَى إِلَيَّ إِنِّي أَخَافُ إِنْ عَصَيْتُ رَبِّي عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ (15).

وَإِذَا تُتْلَى عَلَيْهِمْ آيَاتُنَا بَيِّنَاتٍ قَالَ الَّذِينَ لاَ يَرْجُونَ لِقَاءنَا ائْتِ بِقُرْآنٍ غَيْرِ هَـذَا أَوْ بَدِّلْهُ.

أي: وإذا قُرئَ على مُشركي قُريشٍ آياتُ القُرآنِ واضحاتٍ دالَّاتٍ على الحَقِّ، قال الذين يكَذِّبونَ بالبَعثِ، ولا يخافونَ عِقابَنا، ولا يَطمعونَ في ثَوابِنا: أحضِرْ- يا محمَّدُ- قُرآنًا آخَرَ ليس فيه ما نَكْرَهُ مِن التَّوحيدِ، والنَّهيِ عن الشِّركِ، وعَيبِ آلهتِنا، وذِكرِ البَعثِ والنُّشورِ، أو غيِّرْ هذا القُرآنَ بنَفسِك على الوَجهِ الذي نُحِبُّ.

قُلْ مَا يَكُونُ لِي أَنْ أُبَدِّلَهُ مِن تِلْقَاء نَفْسِي.

أي: قُلْ- يا مُحمَّدُ- لهؤلاءِ الكُفَّارِ: لا يحِقُّ لي أن أُغيِّرَ القُرآنَ بمَحضِ رأيي، ومُقتضَى اجتهادي، بِغَيرِ وَحْيٍ مِن اللَّهِ؛ فليس لي مِن الأمرِ شَيءٌ.

إِنْ أَتَّبِعُ إِلاَّ مَا يُوحَى إِلَيَّ.

أي: قُلْ- يا مُحمَّدُ- لهؤلاءِ الكُفَّارِ: إنَّما أنا عبدٌ مأمورٌ، ليس لي إلَّا أن أتَّبِعَ ما يُوحيه اللَّهُ إليَّ ويأمُرُني به، مِن غَيرِ زيادةٍ ولا نُقصانٍ، ولا تبديلٍ ولا تحريفٍ.

إِنِّي أَخَافُ إِنْ عَصَيْتُ رَبِّي عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ.

أي: إنِّي أخشى- إن خالَفْتُ أمْرَ اللهِ، وبدَّلْتُ شَيئًا مِن كِتابِه- عذابَ يومِ القيامةِ العظيمِ الأهوالِ.

كما قال تعالى عن يومِ القِيامةِ: إِنَّ زَلْزَلَةَ السَّاعَةِ شَيْءٌ عَظِيمٌ * يَوْمَ تَرَوْنَهَا تَذْهَلُ كُلُّ مُرْضِعَةٍ عَمَّا أَرْضَعَتْ وَتَضَعُ كُلُّ ذَاتِ حَمْلٍ حَمْلَهَا وَتَرَى النَّاسَ سُكَارَى وَمَا هُمْ بِسُكَارَى وَلَكِنَّ عَذَابَ اللَّهِ شَدِيدٌ [الحج: 1-2].

قُل لَّوْ شَاء اللّهُ مَا تَلَوْتُهُ عَلَيْكُمْ وَلاَ أَدْرَاكُم بِهِ فَقَدْ لَبِثْتُ فِيكُمْ عُمُرًا مِّن قَبْلِهِ أَفَلاَ تَعْقِلُونَ

(16).

قُل لَّوْ شَاء اللّهُ مَا تَلَوْتُهُ عَلَيْكُمْ.

أي: قُلْ- يا مُحمَّدُ- لهؤلاءِ الكُفَّارِ: لو أراد اللَّهُ ما تَلَوتُ عليكم القُرآنَ؛ فاللهُ وَحْدَه هو الذي أنزَلَه عليَّ، وأمَرَني بتِلاوَتِه عليكم، فهو ليس من قِبَلي، ولا أقدِرُ على ذلك، ولا أقدِرُ على الإتيانِ بقرآنٍ غيرِه.

وَلَاَ أَدْرَاكُم بِهِ.

أي: ولو أراد اللهُ لَمَا أعلَمَكم بالقرآنِ، ولا أخبَرَكم به، لكِنَّه أدْراكم به بعد أنْ لم تكونوا كذلك، فلو كان كَذِبًا وافتراءً كما تقولونَ، لأمكَنَ لِغَيري أن يَتلوَه عليكم، وتَدرونَ به مِن جِهَتِه؛ لأنَّ الكَذِبَ لا يَعجِزُ عنه البشَرُ، وأنتم لم تَدْروا بهذا مِن قَبْلُ، ولم تَسمَعوه مِن بشَرٍ غَيري.

فَقَدْ لَبِثْتُ فِيكُمْ عُمُرًا مِّن قَبْلِهِ أَفَلاَ تَعْقِلُونَ.

أي: فقد أقمْتُ فيكم– يا أهلَ مَكَّةَ– حينًا طويلًا مِن عُمُري– أربعينَ سنةً– قبلَ أن يُوحَى إليَّ هذا القرآنُ، ما جرَّبتُم عليَّ كذبًا قطُّ، تَعرِفونَ صدقي وأمانتي، وأنِّي لستُ ممَّن يقرأُ أو يكتبُ، ثمَّ جِئتُكم بالقُرآنِ، أفلا تَعقِلونَ بذلك أنَّه وحيٌ مِن عندِ الله تعالى؟!

كما قال تعالى: أَمْ لَمْ يَعْرِفُوا رَسُولَهُمْ فَهُمْ لَهُ مُنْكِرُونَ * أَمْ يَقُولُونَ بِهِ جِنَّةٌ بَلْ جَاءَهُمْ بِالْحَقِّ وَأَكْثَرُهُمْ لِلْحَقِّ كَارِهُونَ [المؤمنون: 69–70].

وعن ابن عبَّاسٍ رَضِيَ اللهُ عنهما: ((أنَّ أبا سُفيانَ أخبرَه أنَّ قَيصَرَ سألَه عن النبيِّ – ﷺ –، فقال: هل كُنتُم تتَّهِمونَه بالكَذِب قبلَ أن يقولَ ما قال؟ قلتُ: لا...)) وذكر الحَديثَ بطولِه، وفيه: ((قال: سألتُك هل كُنتُم تتَّهِمونَه بالكَذِب قبلَ أن يقولَ ما قال؟ فذَكَرْتَ أنْ لا، فقد أعرِفُ أنَّه لم يكُنْ لِيَذَرَ الكَذِبَ على النَّاسِ ويكذِبَ على اللهِ!)). (24)

(24) رواه البخاري (7) ومسلم (1773).

فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَى عَلَى اللهِ كَذِبًا أَوْ كَذَّبَ بِآيَاتِهِ إِنَّهُ لاَ يُفْلِحُ الْمُجْرِمُونَ (17).

فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَى عَلَى اللهِ كَذِبًا أَوْ كَذَّبَ بِآيَاتِهِ.

أي: فلا أحَدَ أشَدُّ كَذِبًا، وأوضَعُ لِقَولِه في غيرِ مَوضِعِه ممَّن تقوَّلَ الكَذِبَ على اللهِ سُبحانه– كمَن زعَمَ أنَّ اللهَ أوحَى إليه– أو كذَّبَ بآياتِ كِتابِه فلم يُصَدِّقْها.

إِنَّهُ لاَ يُفْلِحُ الْمُجْرِمُونَ.

أي: إنَّه لا يفوزُ الكافرونَ.

سُورةُ يُونُس

الآيات (18–20)

وَيَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَضُرُّهُمْ وَلَا يَنْفَعُهُمْ وَيَقُولُونَ هَؤُلَاءِ شُفَعَاؤُنَا عِنْدَ اللَّهِ قُلْ أَتُنَبِّئُونَ اللَّهَ بِمَا لَا يَعْلَمُ فِي السَّمَاوَاتِ وَلَا فِي الْأَرْضِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى عَمَّا يُشْرِكُونَ (18) وَمَا كَانَ النَّاسُ إِلَّا أُمَّةً وَاحِدَةً فَاخْتَلَفُوا وَلَوْلَا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِنْ رَبِّكَ لَقُضِيَ بَيْنَهُمْ فِيمَا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ (19) وَيَقُولُونَ لَوْلَا أُنْزِلَ عَلَيْهِ آيَةٌ مِنْ رَبِّهِ فَقُلْ إِنَّمَا الْغَيْبُ لِلَّهِ فَانْتَظِرُوا إِنِّي مَعَكُمْ مِنَ الْمُنْتَظِرِينَ (20)

تفسير الآيات:

وَيَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللّهِ مَا لاَ يَضُرُّهُمْ وَلاَ يَنفَعُهُمْ وَيَقُولُونَ هَؤُلاء شُفَعَاؤُنَا عِندَ اللّهِ قُلْ أَتُنَبِّئُونَ اللّهَ بِمَا لاَ يَعْلَمُ فِي السَّمَاوَاتِ وَلاَ فِي الأَرْضِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى عَمَّا يُشْرِكُونَ (18).

وَيَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللّهِ مَا لاَ يَضُرُّهُمْ وَلاَ يَنفَعُهُمْ.

أي: ويَعبُدُ المُشرِكونَ مِن دُونِ الله آلهةً مِن الأصنامِ وغَيرِها، لا تَضُرُّهم إن تركوا عِبادتَها، ولا تنفَعُهم في الدُّنيا ولا في الآخرةِ إنْ عَبَدوها.

كما قال تعالى: وَيَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَمْلِكُ لَهُمْ رِزْقًا مِنَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ شَيْئًا وَلَا يَسْتَطِيعُونَ [النحل: 73].

وقال سُبحانه: وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّنْ يَدْعُو مِنْ دُونِ اللَّهِ مَنْ لَا يَسْتَجِيبُ لَهُ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ وَهُمْ عَنْ دُعَائِهِمْ غَافِلُونَ * وَإِذَا حُشِرَ النَّاسُ كَانُوا لَهُمْ أَعْدَاءً وَكَانُوا بِعِبَادَتِهِمْ كَافِرِينَ [الأحقاف: 6].

وَيَقُولُونَ هَؤُلاء شُفَعَاؤُنَا عِندَ اللّهِ.

أي: ويقولُ المُشرِكونَ: هؤلاء الذين نعبُدُهم يَشفَعونَ لنا عند الله.

قُلْ أَتُنَبِّئُونَ اللّهَ بِمَا لاَ يَعْلَمُ فِي السَّمَاوَاتِ وَلاَ فِي الأَرْضِ.

أي: قُل– يا مُحمَّدُ– لهؤلاءِ المُشرِكينَ: أتُخبِرونَ اللهَ بما لا يقعُ، ولا يَكونُ أبدًا في السَّمواتِ ولا في الأرضِ، وهو أنَّ له شركاءَ يشفعون لكم عندَ الله، وقد أخبركم بأنَّه ليس له شريكٌ، أفتخبرونَه بأمرٍ خفِي عليه، وعلِمْتوه؟

ثمَّ نزَّه نفسه عمَّا افتروه، فقال:

سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى عَمَّا يُشْرِكُونَ.

أي: تقدَّس اللهُ وتنزَّهَ عن أن يكونَ له شريكٌ.

وَمَا كَانَ النَّاسُ إِلاَّ أُمَّةً وَاحِدَةً فَاخْتَلَفُواْ وَلَوْلاَ كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِن رَّبِّكَ لَقُضِيَ بَيْنَهُمْ فِيمَا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ (19).

وَمَا كَانَ النَّاسُ إِلاَّ أُمَّةً وَاحِدَةً فَاخْتَلَفُواْ.

أي: وما كان النَّاسُ إلَّا مُجتَمِعينَ على توحيدِ اللهِ، فاختَلَفوا في دينِهم، وأشرَكوا باللهِ.

وَلَوْلاَ كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِن رَّبِّكَ لَقُضِيَ بَيْنَهُمْ فِيمَا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ.

أي: ولولا أنَّه سبقَ مِن اللهِ أنَّه يُمهِلُ المُشرِكينَ والعُصاةَ، ويؤخِّرُ جزاءَهم إلى يومِ القيامةِ؛ لحَكَم في الدُّنيا بين المُختلِفينَ، فيُنَجِّي أهلَ التَّوحيدِ، ويعجِّلُ عُقوبَتَه على المُشرِكينَ، وينزلُ بهم عذابَه.

كما قال تعالى: وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ لَجَعَلَ النَّاسَ أُمَّةً وَاحِدَةً وَلَا يَزَالُونَ مُخْتَلِفِينَ * إِلَّا مَنْ رَحِمَ رَبُّكَ وَلِذَلِكَ خَلَقَهُمْ وَتَمَّتْ كَلِمَةُ رَبِّكَ لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنَ الْجِنَّةِ وَالنَّاسِ أَجْمَعِينَ [هود: 118– 119].

وقال سبحانه: وَلَوْلَا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِنْ رَبِّكَ لَكَانَ لِزَامًا وَأَجَلٌ مُسَمًّى * فَاصْبِرْ عَلَى مَا يَقُولُونَ [طه: 129– 130].

وقال عزَّ وجلَّ: وَمَا تَفَرَّقُوا إِلَّا مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَهُمُ الْعِلْمُ بَغْيًا بَيْنَهُمْ وَلَوْلَا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِنْ رَبِّكَ إِلَى أَجَلٍ مُسَمًّى لَقُضِيَ بَيْنَهُمْ [الشورى: 14].

وَيَقُولُونَ لَوْلاَ أُنزِلَ عَلَيْهِ آيَةٌ مِّن رَّبِّهِ فَقُلْ إِنَّمَا الْغَيْبُ لِلّهِ فَانْتَظِرُواْ إِنِّي مَعَكُم مِّنَ الْمُنتَظِرِينَ (20).

وَيَقُولُونَ لَوْلاَ أُنزِلَ عَلَيْهِ آيَةٌ مِّن رَّبِّهِ.

أي: ويقولُ مُشركو قُريشٍ: هلَّا أَنزلَ اللهُ على محمَّدٍ مُعجزةً مِمَّا نقترِحُ عليه؛ حتَّى نعلَمَ أنَّه رسولٌ مِن عندِ الله حقًّا؟

كما قال تعالى: وَلَقَدْ صَرَّفْنَا لِلنَّاسِ فِي هَذَا الْقُرْآنِ مِنْ كُلِّ مَثَلٍ فَأَبَى أَكْثَرُ النَّاسِ إِلَّا كُفُورًا * وَقَالُوا لَنْ نُؤْمِنَ لَكَ حَتَّى تَفْجُرَ لَنَا مِنَ الْأَرْضِ يَنْبُوعًا * أَوْ تَكُونَ لَكَ جَنَّةٌ مِنْ نَخِيلٍ وَعِنَبٍ فَتُفَجِّرَ الْأَنْهَارَ خِلَالَهَا تَفْجِيرًا * أَوْ تُسْقِطَ السَّمَاءَ كَمَا زَعَمْتَ عَلَيْنَا كِسَفًا أَوْ تَأْتِيَ بِاللَّهِ وَالْمَلَائِكَةِ قَبِيلًا * أَوْ يَكُونَ

لَكَ بَيْتٌ مِنْ زُخْرُفٍ أَوْ تَرْقَى فِي السَّمَاءِ وَلَنْ نُؤْمِنَ لِرُقِيِّكَ حَتَّى تُنَزِّلَ عَلَيْنَا كِتَابًا نَقْرَؤُهُ قُلْ سُبْحَانَ رَبِّي هَلْ كُنْتُ إِلَّا بَشَرًا رَسُولًا [الإسراء: 89 – 93].

وقال سبحانه: وَقَالُوا مَالِ هَذَا الرَّسُولِ يَأْكُلُ الطَّعَامَ وَيَمْشِي فِي الْأَسْوَاقِ لَوْلَا أُنْزِلَ إِلَيْهِ مَلَكٌ فَيَكُونَ مَعَهُ نَذِيرًا * أَوْ يُلْقَى إِلَيْهِ كَنْزٌ أَوْ تَكُونُ لَهُ جَنَّةٌ يَأْكُلُ مِنْهَا وَقَالَ الظَّالِمُونَ إِنْ تَتَّبِعُونَ إِلَّا رَجُلًا مَسْحُورًا [الفرقان: 7–8].

فَقُلْ إِنَّمَا الْغَيْبُ لِلَّهِ.

أي: فقُل– يا مُحمَّدُ– لهؤلاءِ المُشرِكِينَ: إنزالُ الآياتِ مِن الغيبِ الذي لا يَعلَمُه إلَّا اللهُ، ولا يَقدِرُ أن يُنزِلَ آيةً إلَّا اللهُ، فإن شاء أنزَلَها، وإن شاء لم يُنزِلْها.

كما قال تعالى: وَأَقْسَمُوا بِاللَّهِ جَهْدَ أَيْمَانِهِمْ لَئِنْ جَاءَتْهُمْ آيَةٌ لَيُؤْمِنُنَّ بِهَا قُلْ إِنَّمَا الْآيَاتُ عِنْدَ اللَّهِ وَمَا يُشْعِرُكُمْ أَنَّهَا إِذَا جَاءَتْ لَا يُؤْمِنُونَ [الأنعام: 109].

وقال سُبحانه: وَقَالُوا لَوْلَا أُنْزِلَ عَلَيْهِ آيَاتٌ مِنْ رَبِّهِ قُلْ إِنَّمَا الْآيَاتُ عِنْدَ اللَّهِ وَإِنَّمَا أَنَا نَذِيرٌ مُبِينٌ * أَوَلَمْ يَكْفِهِمْ أَنَّا أَنْزَلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ يُتْلَى عَلَيْهِمْ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَرَحْمَةً وَذِكْرَى لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ [العنكبوت: 50– 51].

فَانْتَظِرُواْ إِنِّي مَعَكُم مِّنَ الْمُنتَظِرِينَ.

أي: قُلْ لهم- يا مُحَمَّدُ: فانتَظِروا حُكمَ اللهِ فينا، بعقوبةِ المُبطِلِ مِنَّا، ونَصرِ المُحِقِّ، إِنِّي معكم ممَّن ينتَظِرُ ذلك.

كما قال تعالى: فَهَلْ يَنْتَظِرُونَ إِلَّا مِثْلَ أَيَّامِ الَّذِينَ خَلَوْا مِنْ قَبْلِهِمْ قُلْ فَانْتَظِرُوا إِنِّي مَعَكُمْ مِنَ الْمُنْتَظِرِينَ * ثُمَّ نُنَجِّي رُسُلَنَا وَالَّذِينَ آمَنُوا كَذَلِكَ حَقًّا عَلَيْنَا نُنْجِ الْمُؤْمِنِينَ [يونس: 102-103].

وقال سبحانه: قُلْ كُلٌّ مُتَرَبِّصٌ فَتَرَبَّصُوا فَسَتَعْلَمُونَ مَنْ أَصْحَابُ الصِّرَاطِ السَّوِيِّ وَمَنِ اهْتَدَى [طه: 135].

وقال عزَّ وجلَّ: وَيَقُولُونَ مَتَى هَذَا الْفَتْحُ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ * قُلْ يَوْمَ الْفَتْحِ لَا يَنْفَعُ الَّذِينَ كَفَرُوا إِيمَانُهُمْ وَلَا هُمْ يُنْظَرُونَ * فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ وَانْتَظِرْ إِنَّهُمْ مُنْتَظِرُونَ [السجدة: 28-30].

سُورةُ يُونُس

الآيتان (21–23)

وَإِذَا أَذَقْنَا النَّاسَ رَحْمَةً مِنْ بَعْدِ ضَرَّاءَ مَسَّتْهُمْ إِذَا لَهُمْ مَكْرٌ فِي آيَاتِنَا قُلِ اللَّهُ أَسْرَعُ مَكْرًا إِنَّ
رُسُلَنَا يَكْتُبُونَ مَا تَمْكُرُونَ (21) هُوَ الَّذِي يُسَيِّرُكُمْ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ حَتَّى إِذَا كُنْتُمْ فِي الْفُلْكِ
وَجَرَيْنَ بِهِمْ بِرِيحٍ طَيِّبَةٍ وَفَرِحُوا بِهَا جَاءَتْهَا رِيحٌ عَاصِفٌ وَجَاءَهُمُ الْمَوْجُ مِنْ كُلِّ مَكَانٍ وَظَنُّوا
أَنَّهُمْ أُحِيطَ بِهِمْ دَعَوُا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ لَئِنْ أَنْجَيْتَنَا مِنْ هَذِهِ لَنَكُونَنَّ مِنَ الشَّاكِرِينَ (22)
فَلَمَّا أَنْجَاهُمْ إِذَا هُمْ يَبْغُونَ فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّمَا بَغْيُكُمْ عَلَى أَنْفُسِكُمْ
مَتَاعَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا ثُمَّ إِلَيْنَا مَرْجِعُكُمْ فَنُنَبِّئُكُمْ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ (23)

غريب الكلمات:

ضَرَّاءَ: أي: مرَضًا وضُرًّا، والضَّرَّاءُ كذلك: سوءُ الحالِ، والفقرُ والقحطُ، والضرُّ: خلافُ النَّفْعِ.

مَكْرٌ: أي: استِهزاءٌ وتَكذيبٌ، والمكرُ: صَرفُ الغَيرِ عمَّا يَقصِدُه بحيلةٍ، فسمَّى استهزاءَهم وتكذيبَهم مكرًا؛ لاحتيالِهم لدفعِ آياتِ الله بكلِّ سبيلٍ، وأصلُ (مكر): يدلُّ على احتيالٍ وخِداعٍ.

الْفُلْكِ: أي: السُّفنِ، وواحده وجمْعه بلفظٍ واحد، وأصلُ (الفلك): الاستدارةُ في الشَّيءِ، ولعلَّ السُّفن سُمِّيت فُلكًا؛ لأنَّها تُدارُ في الماءِ.

عَاصِفٌ: أي: شَديدةُ الهُبوبِ. وأصلُ (عصف): يدلُّ على خِفَّةٍ وسُرعةٍ.

أُحِيطَ بِهِمْ: أي: هلَكوا، وأصلُ هذا أنَّ العدوَّ إذا أحاطَ ببلدٍ، فقد دنَا أهلُه مِن الهلَكَةِ، وأصلُ (حوط): الشيءُ يطيفُ بالشيءِ.

مَتَاعَ: المتاع: المَنفعةُ، وكلُّ ما حَصَل التمتُّع والانتفاعُ به على وجهٍ ما، أو ما يُنتفعُ به انتفاعًا قليلًا غيرَ باقٍ، بل يَنقضي عن قَريبٍ، وأصل (متع): يدلُّ على مَنفعةٍ، وامتدادِ مُدَّةً في خيرٍ.

تفسير الآيات:

وَإِذَا أَذَقْنَا النَّاسَ رَحْمَةً مِّن بَعْدِ ضَرَّاء مَسَّتْهُمْ إِذَا لَهُم مَّكْرٌ فِي آيَاتِنَا قُلِ اللّهُ أَسْرَعُ مَكْرًا إِنَّ رُسُلَنَا يَكْتُبُونَ مَا تَمْكُرُونَ (21).

وَإِذَا أَذَقْنَا النَّاسَ رَحْمَةً مِّن بَعْدِ ضَرَّاء مَسَّتْهُمْ إِذَا لَهُم مَّكْرٌ فِي آيَاتِنَا.

أي: وإذا فرَّجنا عن المُشرِكينَ ورَحِمناهم، من بعدِ بَلاءٍ أصابَهم، سَعَوا بكلِّ حيلةٍ بالباطِلِ؛ لإبطالِ آياتِنا وردِّها وتكذيبِها!

كما قال تعالى: وَإِذَا مَسَّ الْإِنْسَانَ الضُّرُّ دَعَانَا لِجَنْبِهِ أَوْ قَاعِدًا أَوْ قَائِمًا فَلَمَّا كَشَفْنَا عَنْهُ ضُرَّهُ مَرَّ كَأَنْ لَمْ يَدْعُنَا إِلَى ضُرٍّ مَسَّهُ [يونس: 12].

وقال سبحانه: وَإِذَا مَسَّ النَّاسَ ضُرٌّ دَعَوْا رَبَّهُمْ مُنِيبِينَ إِلَيْهِ ثُمَّ إِذَا أَذَاقَهُمْ مِنْهُ رَحْمَةً إِذَا فَرِيقٌ مِنْهُمْ بِرَبِّهِمْ يُشْرِكُونَ * لِيَكْفُرُوا بِمَا آتَيْنَاهُمْ فَتَمَتَّعُوا فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ [الروم: 33-34].

وقال عزَّ وجلَّ: وَإِذَا مَسَّ الْإِنْسَانَ ضُرٌّ دَعَا رَبَّهُ مُنِيبًا إِلَيْهِ ثُمَّ إِذَا خَوَّلَهُ نِعْمَةً مِنْهُ نَسِيَ مَا كَانَ يَدْعُو إِلَيْهِ مِنْ قَبْلُ وَجَعَلَ لِلَّهِ أَنْدَادًا لِيُضِلَّ عَنْ سَبِيلِهِ قُلْ تَمَتَّعْ بِكُفْرِكَ قَلِيلًا إِنَّكَ مِنْ أَصْحَابِ النَّارِ [الزمر: 8].

وقال تبارك وتعالى: وَلَئِنْ أَذَقْنَاهُ رَحْمَةً مِنَّا مِنْ بَعْدِ ضَرَّاءَ مَسَّتْهُ لَيَقُولَنَّ هَذَا لِي وَمَا أَظُنُّ السَّاعَةَ قَائِمَةً وَلَئِنْ رُجِعْتُ إِلَى رَبِّي إِنَّ لِي عِنْدَهُ لَلْحُسْنَى فَلَنُنَبِّئَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بِمَا عَمِلُوا وَلَنُذِيقَنَّهُمْ مِنْ عَذَابٍ

غَلِيظٍ * وَإِذَا أَنْعَمْنَا عَلَى الْإِنْسَانِ أَعْرَضَ وَنَأَى بِجَانِبِهِ وَإِذَا مَسَّهُ الشَّرُّ فَذُو دُعَاءٍ عَرِيضٍ [فصلت: 50-51].

وعن زيدِ بنِ خالدٍ الجُهَني رَضِيَ الله عنه، قال: ((صلَّى بنا رسولُ الله - ﷺ - صلاةَ الصُّبحِ بالحُدَيبية في إثْرِ السَّماءِ[25] كانت من اللَّيلِ، فلما انصرَفَ أقبَلَ على النَّاسِ فقال: هل تَدرونَ ماذا قال ربُّكم؟ قالوا: اللهُ ورَسولُه أعلَمُ، قال: قال: أصبحَ مِن عبادي مؤمِنٌ بي وكافِرٌ، فأمَّا من قال: مُطِرْنا بفَضلِ اللهِ ورَحمتِه، فذلك مُؤمِنٌ بي، كافِرٌ بالكوكَبِ، وأمَّا من قال: مُطِرْنا بنَوءِ كذا وكذا،[26] فذلك كافِرٌ بي، مُؤمِنٌ بالكوكبِ)).[27]

قُلِ اللَّهُ أَسْرَعُ مَكْرًا.

أي: قُل- يا مُحَمَّدُ- لهؤلاء المُشركِينَ: اللهُ أعجَلُ مَكرًا بكم- باستدراجِكم وتعجيلِ عُقوبتِكم- مِن مَكرِكم في آياتِه.

قال تعالى: وَلَا يَحِيقُ الْمَكْرُ السَّيِّئُ إِلَّا بِأَهْلِهِ [فاطر: 43].

---

(25) أي: بعد نُزولِ المَطَرِ، وأصلُ السماءِ: كلُّ ما ارتفع فأظلَّ وعلا، فالسحابُ يُسمَّى سماءً، وسُمِّي المطرُ بذلك؛ لمجيءِ السحابِ به.

يُنظر: ((إكمال المعلم)) للقاضي عياض (1/330)، ((المفاتيح في شرح المصابيح)) للمظهري (5/99).

(26) النَّوءُ: الكَوكَبُ؛ ولذلك سَمَّوا مَنازِلَ القَمَرِ الأنواءَ.

يُنظر: ((أعلام الحديث)) للخطابي (1/553).

(27) رواه البخاري (846)، ومسلم (71) واللفظ له.

إِنَّ رُسُلَنَا يَكْتُبُونَ مَا تَمْكُرُونَ.

أي: إنَّ المَلائكةَ الحَفَظةَ يَكتُبونَ مَكْرَكم في آياتِي- أيُّها المُشرِكونَ- ويُحصُون أعمالَكم؛ للحِسابِ عليها في الآخرةِ.

كما قال تعالى: وَإِنَّ عَلَيْكُمْ لَحَافِظِينَ * كِرَامًا كَاتِبِينَ * يَعْلَمُونَ مَا تَفْعَلُونَ [الانفطار: 10 - 12].

وقال تعالى: أَمْ يَحْسَبُونَ أَنَّا لَا نَسْمَعُ سِرَّهُمْ وَنَجْوَاهُمْ بَلَى وَرُسُلُنَا لَدَيْهِمْ يَكْتُبُونَ [الزخرف: 80].

هُوَ الَّذِي يُسَيِّرُكُمْ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ حَتَّى إِذَا كُنتُمْ فِي الْفُلْكِ وَجَرَيْنَ بِهِم بِرِيحٍ طَيِّبَةٍ وَفَرِحُواْ بِهَا جَاءَتْهَا رِيحٌ عَاصِفٌ وَجَاءَهُمُ الْمَوْجُ مِن كُلِّ مَكَانٍ وَظَنُّواْ أَنَّهُمْ أُحِيطَ بِهِمْ دَعَوُاْ اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ لَئِنْ أَنجَيْتَنَا مِنْ هَذِهِ لَنَكُونَنَّ مِنَ الشَّاكِرِينَ (22).

هُوَ الَّذِي يُسَيِّرُكُمْ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ.

أي: اللهُ هو الذي يُسَيِّرُكم في البَرِّ؛ بإقدارِه لكم على المَشيِ على أقدامِكم، وبما سَخَّرَه لكم من الدوابِّ وغَيرِها، ويُسَيِّرُكم في البَحرِ في السُّفُنِ التي يَسَّرَ لكم صُنعَها.

القراءاتُ ذاتُ الأثَرِ في التَّفسيرِ:

1- قراءةُ يَنْشُرُكُمْ مِن النَّشرِ، أي: يبثُّكم.[28]

2- قراءةُ يُسَيِّرُكُمْ مِنَ التَّسييرِ، أي: يَحمِلُكم في البَرِّ والبَحرِ.[29]

حَتَّىٰٓ إِذَا كُنتُمۡ فِي ٱلۡفُلۡكِ وَجَرَيۡنَ بِهِم بِرِيحٖ طَيِّبَةٖ وَفَرِحُواْ بِهَا جَآءَتۡهَا رِيحٌ عَاصِفٌ.

أي: حتى إذا كُنتم في السُّفُنِ، وجَرَت بكم؛ بسَبَبِ ريحٍ لَيِّنةِ الهُبوبِ، مُوافِقةٍ لرَغبتِكم، وفَرِحَ رُكَّابُ السَّفينةِ بتلك الرِّيحِ، واطمأنُّوا بها، فبينما هم كذلك إذ جاءت السَّفينةَ ريحٌ شديدةُ الهُبوبِ.

وَجَآءَهُمُ ٱلۡمَوۡجُ مِن كُلِّ مَكَانٖ.

أي: وجاء رُكابَ السَّفينةِ مَوجُ البَحرِ مِن كُلِّ جانبٍ مِن جوانِبِ السَّفينةِ.

---

(28) قرأ بها ابن عامر، وأبو جعفر.

يُنظر: ((النشر)) لابن الجزري (282/2).

ويُنظر لمعنى هذه القراءة: ((معاني القراءات)) للأزهري (41/2)، ((الحجة للقراء السبعة)) لأبي علي الفارسي (265/4)، ((حجة القراءات)) (ص: 329) لابن زنجلة.

(29) قرأ بها الباقون.

يُنظر: ((النشر)) لابن الجزري (282/2).

ويُنظر لمعنى هذه القراءة: ((معاني القراءات)) للأزهري (41/2)، ((الحجة للقراء السبعة)) لأبي علي الفارسي (265/4)، ((حجة القراءات)) (ص: 329) لابن زنجلة.

وَظَنُّواْ أَنَّهُمْ أُحِيطَ بِهِمْ.

أي: وأيقَنُوا أنَّ الهلاكَ قد أحاط بهم، وأنهم سيَغرَقونَ في البَحرِ الهائجِ.

دَعَوُاْ اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ.

أي: دَعُوا اللهَ وَحْدَه أن يُنجِيَهم مِن الكَربِ، وأخلصوا له الدُّعاءَ دون آلهتِهم.

كما قال تعالى: وَإِذَا مَسَّكُمُ الضُّرُّ فِي الْبَحْرِ ضَلَّ مَنْ تَدْعُونَ إِلَّا إِيَّاهُ [الإسراء: 67].

لَئِنْ أَنجَيْتَنَا مِنْ هَذِهِ لَنَكُونَنِّ مِنَ الشَّاكِرِينَ.

أي: وقالوا: واللهِ لَئِنْ أنجيتَنا– يا ربَّنا– من هذه الشِّدَّةِ، لنكونَنَّ مِن الشَّاكرينَ لنِعَمِك، المُطيعينَ أمْرَك، ولا نُشرِكُ بك شيئًا في عبادَتِك.

عن سعدِ بنِ أبي وقَّاصٍ رضي الله عنه، قال: ((لَمَّا كان يومُ فتحِ مَكَّةَ أمَّنَ رَسولُ الله – ﷺ – النَّاسَ، إلَّا أربعةَ نَفَرٍ وامرأتينِ، وقال: اقتُلوهم، وإن وَجَدتُموهم متعَلِّقينَ بأستارِ الكَعبةِ: عِكرمةُ بنُ أبي جَهلٍ، وعبدُ الله بنُ خطَل، ومقيسُ بنُ صُبابةَ، وعبدُ اللهِ بنُ سعدِ بن أبي السَّرحِ... وأمَّا عِكرمةُ فركِبَ البَحرَ، فأصابتهم عاصِفٌ، فقال أصحابُ السَّفينةِ: أخلِصوا؛ فإنَّ آلهَتَكم لا تُغني عنكم شيئًا هاهنا. فقال عكرمةُ: واللهِ لَئِنْ لم ينجِّني من البَحرِ إلَّا الإخلاصُ، لا ينَجِّيني في البَرِّ غَيرُه، اللهمَّ إنَّ لك عليَّ

عَهدًا، إن أنت عافيتَني ممَّا أنا فيه، أنْ آتيَ محمَّدًا - ﷺ -، حتى أضعَ يَدي في يَدِه، فلأَجِدَنَّه عَفُوًّا كريمًا، فجاء فأسلَمَ)).[30]

فَلَمَّا أَنجَاهُمْ إِذَا هُمْ يَبْغُونَ فِي الأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّمَا بَغْيُكُمْ عَلَى أَنفُسِكُم مَّتَاعَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا ثُمَّ إِلَينَا مَرْجِعُكُمْ فَنُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ (23).

فَلَمَّا أَنجَاهُمْ إِذَا هُمْ يَبْغُونَ فِي الأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ.

أي: فلمَّا أنقَذَ اللهُ رُكَّابَ السَّفينةِ أخلَفوا اللهَ ما وَعَدوه، فأشرَكوا به، وأفسَدوا في الأرضِ بالكُفرِ والظُّلمِ والمعاصي!

كما قال تعالى: وَإِذَا مَسَّكُمُ الضُّرُّ فِي الْبَحْرِ ضَلَّ مَنْ تَدْعُونَ إِلَّا إِيَّاهُ فَلَمَّا نَجَّاكُمْ إِلَى الْبَرِّ أَعْرَضْتُمْ وَكَانَ الْإِنْسَانُ كَفُورًا [الإسراء: 67].

يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّمَا بَغْيُكُمْ عَلَى أَنفُسِكُم.

أي: يا أيُّها النَّاسُ إنَّما وَبالُ بَغيِكم هذا عائدٌ على أنفُسِكم في الدُّنيا والآخِرةِ، ولن تَضُرُّوا اللهَ شيئًا.

---

(30) أخرجه النسائي (4067) واللفظ له، والبزار (1151)، وأبو يعلى (757).
صحَّح إسنادَه ابنُ القيِّم في ((زاد المعاد)) (110/3)، وصحَّحه ابنُ الملقنِ في ((البدر المنير)) (153/9)، ووثَّق رجالَه الهيثميُّ في ((مجمع الزوائد)) (171/6)، والبوصيري في ((إتحاف الخيرة المهرة)) (245/5)، وصحَّحه الألباني في ((صحيح سنن النسائي)) (4067).

كما قال تعالى: وَلَا يَحِيقُ الْمَكْرُ السَّيِّئُ إِلَّا بِأَهْلِهِ [فاطر: 43].

وعن أبي بَكرةَ رَضِيَ الله عنه، قال: قال رسولُ اللهِ – ﷺ –: ((ما مِن ذَنبٍ أجدَرُ أن يُعَجِّلَ اللهُ لِصاحِبِه العُقوبةَ في الدُّنيا مع ما يَدَّخِرُ له في الآخرة، مِن البَغيِ وقَطيعةِ الرَّحِم)).[31]

مَّتَاعَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا.

أي: تتمَتَّعونَ به مُدَّةَ حَياتِكم القصيرةِ الفانيةِ.

ثُمَّ إِلَيْنَا مَرْجِعُكُمْ فَنُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ.

أي: ثمَّ إلينا يكونُ مَصيرُكم بعد مَوتِكم، فنُخبِرُكم يومَ القيامةِ بما كُنتُم تعملونَ في الدُّنيا، ونجازيكم عليه.

---

(31) أخرجه أبو داود (4902)، والترمذي (2511)، وابن ماجه (4211) واللفظ له، وأحمد (20414).
قال الترمذيُّ: حسنٌ صحيحٌ، وصحَّحه ابنُ بازٍ في ((مجموع الفتاوى)) (231/23)، والألباني في ((صحيح سنن ابن ماجه)) (4211).

سُورةُ يُونُس

الآيتان (24-25)

إِنَّمَا مَثَلُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا كَمَاءٍ أَنْزَلْنَاهُ مِنَ السَّمَاءِ فَاخْتَلَطَ بِهِ نَبَاتُ الْأَرْضِ مِمَّا يَأْكُلُ النَّاسُ
وَالْأَنْعَامُ حَتَّى إِذَا أَخَذَتِ الْأَرْضُ زُخْرُفَهَا وَازَّيَّنَتْ وَظَنَّ أَهْلُهَا أَنَّهُمْ قَادِرُونَ عَلَيْهَا أَتَاهَا أَمْرُنَا
لَيْلًا أَوْ نَهَارًا فَجَعَلْنَاهَا حَصِيدًا كَأَنْ لَمْ تَغْنَ بِالْأَمْسِ كَذَلِكَ نُفَصِّلُ الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ
(24) وَاللَّهُ يَدْعُو إِلَى دَارِ السَّلَامِ وَيَهْدِي مَنْ يَشَاءُ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ (25)

غريب الكلمات:

زُخْرُفَهَا: أي: حُسنَها وبَهاءَها، وزينَتَها بالنَّباتِ، وأصلُ الزخرف: الذَّهَبُ والزِّينةُ المُزَوَّقةُ.

حَصِيدًا: أي: محصودةً، ومقطوعةً مِن أصولِها. وأصلُ (حصد): يدلُّ على قَطعِ الشَّيءِ.

لَمْ تَغْنَ بِالْأَمْسِ: أي: لم تَكُنْ عامِرةً، مِن: غَنِيَ في المكانِ: إذا أقامَ فيه وعَمَّره، ومِنه المَغاني: المَنازِلُ التي يَعمُرُها النَّاسُ. وأصلُ (غني): يدلُّ على الكِفايةِ.

تفسير الآيتين:

إِنَّمَا مَثَلُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا كَمَاء أَنزَلْنَاهُ مِنَ السَّمَاء فَاخْتَلَطَ بِهِ نَبَاتُ الأَرْضِ مِمَّا يَأْكُلُ النَّاسُ وَالأَنْعَامُ حَتَّىَ إِذَا أَخَذَتِ الأَرْضُ زُخْرُفَهَا وَازَّيَّنَتْ وَظَنَّ أَهْلُهَا أَنَّهُمْ قَادِرُونَ عَلَيْهَآ أَتَاهَا أَمْرُنَا لَيْلاً أَوْ نَهَارًا فَجَعَلْنَاهَا حَصِيدًا كَأَن لَّمْ تَغْنَ بِالأَمْسِ كَذَلِكَ نُفَصِّلُ الآيَاتِ لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ (24).

إِنَّمَا مَثَلُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا كَمَاء أَنزَلْنَاهُ مِنَ السَّمَاء.

أي: إنَّما مَثَلُ زِينةِ الحياةِ الدُّنيا في سُرعةِ زَوالِها، كمَثَلِ مَطرٍ أنزلناه من السَّماءِ إلى الأرضِ.

فَاخْتَلَطَ بِهِ نَبَاتُ الأَرْضِ مِمَّا يَأْكُلُ النَّاسُ وَالأَنْعَامُ.

أي: فنَبَتَ بذلك المطَرِ أنواعٌ مِن نَباتِ الأرضِ مُتداخِلٌ بعضُها في بعضٍ ممَّا يأكُلُه النَّاسُ من الحُبوبِ والثِّمارِ والبُقولِ، وممَّا تأكُلُه الأنعامُ مِن الكَلأِ والعُشبِ.

حَتَّىَ إِذَا أَخَذَتِ الأَرْضُ زُخْرُفَهَا وَازَّيَّنَتْ.

أي: حتَّى إذا ظهَرَ حُسنُ الأرضِ بألوانِ النَّباتِ المُختَلفةِ، وتزيَّنَت بأنواعِ الحُبوبِ والثِّمارِ والأزهارِ المتعدِّدةِ الأشكالِ والألوانِ.

كما قال تعالى: وَتَرَى الْأَرْضَ هَامِدَةً فَإِذَا أَنْزَلْنَا عَلَيْهَا الْمَاءَ اهْتَزَّتْ وَرَبَتْ وَأَنْبَتَتْ مِنْ كُلِّ زَوْجٍ بَهِيجٍ [الحج: 5].

وقال سُبحانه: وَأَنْبَتْنَا فِيهَا مِنْ كُلِّ زَوْجٍ بَهِيجٍ * تَبْصِرَةً وَذِكْرَى لِكُلِّ عَبْدٍ مُنِيبٍ * وَنَزَّلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً مُبَارَكًا فَأَنْبَتْنَا بِهِ جَنَّاتٍ وَحَبَّ الْحَصِيدِ *وَالنَّخْلَ بَاسِقَاتٍ لَهَا طَلْعٌ نَضِيدٌ [ق: 7 – 10].

وَظَنَّ أَهْلُهَا أَنَّهُمْ قَادِرُونَ عَلَيْهَآ.

أي: وأيقَنَ أهلُ الأرضِ – الذين زَرَعوها وغَرَسوها – أنَّهم قادِرونَ على حَصدِ زَرعِها، وقَطْفِ ثِمارِها.

أَتَاهَا أَمْرُنَا لَيْلاً أَوْ نَهَارًا فَجَعَلْنَاهَا حَصِيدًا كَأَن لَّمْ تَغْنَ بِالأَمْسِ.

أي: جاء الأرضَ قضاؤُنا بإهلاكِ نَباتِها فجأةً؛ إمَّا ليلًا أو نهارًا، فصيَّرْنا النَّباتَ مَقلوعًا هالِكًا، كأنْ لم يكُنْ قائمًا على ظَهرِ الأرضِ يُزَيِّنُها بجمالِه مِن قَبلُ!

كما قال تعالى: وَاضْرِبْ لَهُمْ مَثَلَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا كَمَاءٍ أَنْزَلْنَاهُ مِنَ السَّمَاءِ فَاخْتَلَطَ بِهِ نَبَاتُ الْأَرْضِ فَأَصْبَحَ هَشِيمًا تَذْرُوهُ الرِّيَاحُ [الكهف: 45].

كَذَلِكَ نُفَصِّلُ الآيَاتِ لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ.

أي: كما بيَّنَّا لكم – أيُّها النَّاسُ – مَثَلَ الدُّنيا بهذا المِثالِ، وعرَّفناكم أمْرَها؛ نُبَيِّنُ ونُوضِّحُ – بمِثلِ ذلك التَّفصيلِ البديعِ – الآياتِ لقومٍ يتفكَّرونَ ويعتبرونَ، فلا يغترُّونَ بالدُّنيا الفانيةِ.

كما قال سُبحانه: أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ أَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَسَلَكَهُ يَنَابِيعَ فِي الْأَرْضِ ثُمَّ يُخْرِجُ بِهِ زَرْعًا مُخْتَلِفًا أَلْوَانُهُ ثُمَّ يَهِيجُ فَتَرَاهُ مُصْفَرًّا ثُمَّ يَجْعَلُهُ حُطَامًا إِنَّ فِي ذَلِكَ لَذِكْرَى لِأُولِي الْأَلْبَابِ [الزمر: 21].

وقال عزَّ وجلَّ: اعْلَمُوا أَنَّمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا لَعِبٌ وَلَهْوٌ وَزِينَةٌ وَتَفَاخُرٌ بَيْنَكُمْ وَتَكَاثُرٌ فِي الْأَمْوَالِ وَالْأَوْلَادِ كَمَثَلِ غَيْثٍ أَعْجَبَ الْكُفَّارَ نَبَاتُهُ ثُمَّ يَهِيجُ فَتَرَاهُ مُصْفَرًّا ثُمَّ يَكُونُ حُطَامًا وَفِي الْآخِرَةِ عَذَابٌ شَدِيدٌ وَمَغْفِرَةٌ مِنَ اللَّهِ وَرِضْوَانٌ وَمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا إِلَّا مَتَاعُ الْغُرُورِ [الحديد: 20].

وَاللَّهُ يَدْعُو إِلَى دَارِ السَّلَامِ وَيَهْدِي مَن يَشَاءُ إِلَى صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ (25).

وَاللَّهُ يَدْعُو إِلَى دَارِ السَّلَامِ.

أي: واللهُ يدعو عِبادَه إلى دُخولِ جَنَّتِه السَّالِمةِ مِن جميعِ الآفاتِ، فاطلُبوها بِطاعَتِه، ولا تطلُبوا الدُّنيا وزينَتَها؛ فإنَّها مليئةٌ بالآفاتِ والنَّكَباتِ، ومصيرُها إلى زوالٍ وفَناءٍ.

عن جابرِ بنِ عبدِ اللهِ رَضِيَ اللهُ عنهما، قال: ((جاءتْ ملائكةٌ إلى النبيِّ - ﷺ - وهو نائمٌ، فقال بعضُهم: إنَّه نائمٌ، وقال بعضُهم: إنَّ العَينَ نائمةٌ، والقلبَ يَقظانُ، فقالوا: إنَّ لِصاحِبِكم هذا مَثَلًا، فاضرِبوا له مَثَلًا، فقال بعضُهم: إنَّه نائمٌ، وقال بعضُهم: إنَّ العَينَ نائمةٌ، والقَلبَ يَقظانُ، فقالوا: مَثَلُه كمَثَلِ رَجُلٍ بنى دارًا، وجعل فيها مأدُبةً،(32) وبعثَ داعيًا، فمن أجابَ الدَّاعيَ دخل الدَّارَ، وأكلَ مِن

(32) المَأدُبة: الطعامُ يُصنَعُ، ويُدعا إليه الناسُ.
يُنظر: ((مصابيح الجامع)) للدماميني (153/10).

المَأدُبةِ، ومَن لم يُجِبِ الدَّاعيَ لم يدخُلِ الدَّارَ، ولم يأكلْ من المأدُبة، فقالوا: أوِّلُوها له يَفْقَهْها، فقال بعضُهم: إنَّه نائمٌ، وقال بعضُهم: إنَّ العَينَ نائمةٌ، والقَلبَ يَقظانُ، فقالوا: فالدَّارُ الجنَّةُ، والدَّاعي مُحمَّدٌ - ﷺ -، فمن أطاع محمَّدًا - ﷺ - فقد أطاعَ اللهَ، ومَن عصى محمَّدًا - ﷺ -، فقد عصى اللهَ، ومُحمَّدٌ صلَّى الله عليه وسلَّم فَرْقٌ[33] بين النَّاسِ)).[34]

وَيَهْدِي مَن يَشَاء إِلَى صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ.

أي: واللهُ يُرشِدُ ويوفِّقُ مَن يَشاءُ مِن عِبادِه إلى الإسلامِ، وهو الطَّريقُ المُستَقيمُ المُوصِلُ مَن سلَكَه إلى الجنَّةِ.

---

(33) فَرْقٌ: أي: فارِقٌ بين النَّاجي والهالِك مِن النَّاسِ.
يُنظر: ((مصابيح الجامع)) للدماميني (154/10).
(34) رواه البخاري (7281).

سُورةُ يُونُس

الآيتان (26–27)

لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا الْحُسْنَى وَزِيَادَةٌ وَلَا يَرْهَقُ وُجُوهَهُمْ قَتَرٌ وَلَا ذِلَّةٌ أُولَئِكَ أَصْحَابُ الْجَنَّةِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ (26) وَالَّذِينَ كَسَبُوا السَّيِّئَاتِ جَزَاءُ سَيِّئَةٍ بِمِثْلِهَا وَتَرْهَقُهُمْ ذِلَّةٌ مَا لَهُمْ مِنَ اللَّهِ مِنْ عَاصِمٍ كَأَنَّمَا أُغْشِيَتْ وُجُوهُهُمْ قِطَعًا مِنَ اللَّيْلِ مُظْلِمًا أُولَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ (27)

غريب الكلمات:

وَلَا يَرْهَقُ: أي: لا يَغشَى، ولا يَعلُو، وأصلُ (رهق): غِشْيانُ الشَّيءِ الشَّيءَ.

قَتَرٌ: أي: غبارٌ وكآبةٌ، وأصلُ (قتر): يدلُّ على تجميعٍ وتَضييقٍ.

ذِلَّةٌ: أي: صَغارٌ، وأصْلُ الذُّلِّ: الخُضُوعُ والاستكانةُ.

تفسير الآيتين:

لِّلَّذِينَ أَحْسَنُواْ الْحُسْنَى وَزِيَادَةٌ وَلاَ يَرْهَقُ وُجُوهَهُمْ قَتَرٌ وَلاَ ذِلَّةٌ أُوْلَئِكَ أَصْحَابُ الْجَنَّةِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ (26).

لِّلَّذِينَ أَحْسَنُواْ الْحُسْنَى وَزِيَادَةٌ.

أي: للَّذين أحسَنوا في الدُّنيا بالإيمانِ، وأحسَنوا في طاعةِ الرَّحمنِ؛ امتثالًا لأمرِه، واجتنابًا لِنَهيِه، على وَجهِ المُراقَبةِ له سُبحانه، وأحسَنوا إلى عبادِ اللهِ تعالى؛ هؤلاء لهم الجنَّةُ، ولهم زيادةٌ على ذلك، وأعظمُ أنواعِها النَّظَرُ إلى وجهِ الله عزَّ وجلَّ.[35]

---

(35) الجمهورُ على أنَّ الحُسْنَى الجنَّةُ، و(الزيادة) هي النَّظَرُ إلى وجهِ الله عزَّ وجلَّ.

يُنظر: ((تفسير ابن عطية)) (115/3).

وذهب بعضُ المفَسِّرينَ- كابن جريرٍ، وابن كثيرٍ- إلى أنَّ المرادَ بالزيادةِ ما هو أعم من النَّظَرِ إلى وجهِ الله تعالى.

يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (164/12)، ((تفسير ابن كثير)) (262/4).

قال ابنُ جريرٍ: (ومِن الزيادةِ على إدخالِهم الجنةَ أن يكرمَهم بالنظرِ إليه، وأن يُعطيَهم غُرفًا مِن لآلئ، وأن يزيدَهم غفرانًا ورضوانًا؛ كلُّ ذلك مِن زياداتِ عطاءِ الله إيَّاهم على الحسنَى التي جعلَها الله لأهلِ جناتِه، وعمَّ ربُّنا جلَّ ثناؤه بقولِه: وَزِيَادَةٌ الزياداتِ على الحسنَى، فلم يخصصْ منها شيئًا دونَ شيءٍ، وغيرُ مستنكرٍ مِن فضلِ الله أن يجمعَ ذلك لهم، بل ذلك كلُّه مجموعٌ لهم إن شاء الله.

فأولَى الأقوالِ في ذلك بالصوابِ أن يعمَّ كما عمَّه عزَّ ذكرُه).

((تفسير ابن جرير)) (164/12)

وقال ابنُ كثيرٍ: (وقولُه: وَزِيَادَةٌ هي تضعيفُ ثوابِ الأعمالِ بالحسنةِ عشرَ أمثالِها إلى سبعِمائةِ ضِعْفٍ، وزيادةٌ على ذلك أيضًا ويشملُ ما يُعْطيهم اللَّهُ في الجِنانِ مِنَ القُصورِ والحُورِ والرِّضا عنهم، وما أخفاه لهم مِن قُرَّةِ أعْيُنٍ، وأفضلُ مِنْ ذلك وأعلاهُ النظرُ إلى وجهِه الكريمِ، فإنَّه زيادةٌ أعظمُ مِنْ جميعِ مَا أُعْطُوه، لا يَسْتَحِقُّوهَا بعَمَلِهم، بلْ بفَضْلِه ورَحْمَتِه).

((تفسير ابن كثير)) (262/4).

كما قال تعالى: هَلْ جَزَاءُ الْإِحْسَانِ إِلَّا الْإِحْسَانُ [الرحمن: 60].

وقال سبحانه: وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَاضِرَةٌ * إِلَى رَبِّهَا نَاظِرَةٌ [القيامة: 22، 23].

وعن صُهَيبٍ رَضِيَ اللهُ عنه، عن النبيِّ صلَّى الله عليه وسلَّم قال: ((إذا دخَلَ أهلُ الجنَّةِ الجنَّةَ، يَقولُ اللهُ تبارك وتعالى: تُريدونَ شيئًا أزيدُكم؟ فيقولون: ألم تُبَيِّضْ وُجوهَنا؟! ألم تُدخِلْنا الجنَّةَ، وتُنْجِنا من النَّارِ؟! قال: فيَكشِفُ الحِجابَ، فما أُعطُوا شيئًا أحَبَّ إليهم مِن النَّظَرِ إلى رَبِّهم عزَّ وجَلَّ، ثمَّ تلا هذه الآيةَ: لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا الْحُسْنَى وَزِيَادَةٌ)).[36]

وَلَا يَرْهَقُ وُجُوهَهُمْ قَتَرٌ وَلَا ذِلَّةٌ.

أي: ولا يَغشى وجوهَ أهلِ الجنَّة غُبارٌ ولا كآبةٌ، ولا هوانٌ أو صَغارٌ.

كما قال تعالى: فَوَقَاهُمُ اللَّهُ شَرَّ ذَلِكَ الْيَوْمِ وَلَقَّاهُمْ نَضْرَةً وَسُرُورًا [الإنسان: 11].

وقال سبحانه: وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ مُسْفِرَةٌ * ضَاحِكَةٌ مُسْتَبْشِرَةٌ [عبس: 38–39].

وقال عزَّ وجلَّ: تَعْرِفُ فِي وُجُوهِهِمْ نَضْرَةَ النَّعِيمِ [المطففين: 24].

أُوْلَئِكَ أَصْحَابُ الْجَنَّةِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ.

وقال ابنُ القيمِ: (ولما عطَف سبحانَه الزيادةَ على الحسنَى التي هي الجنةُ، دلَّ على أنَّها أمرٌ آخرُ مِن وراءِ الجنةِ، وقدرٌ زائدٌ عليها، ومَن فسَّر الزيادةَ بالمغفرةِ والرضوانِ فهو مِن لوازمِ رؤيةِ الربِّ تبارَك وتعالَى).
((حادي الأرواح إلى بلاد الأفراح)) (ص: 291).
(36) رواه مسلم (181).

أي: أولئك- الذين أحسَنوا- أهلُ الجنَّةِ، هم فيها ماكِثونَ أبدًا.

وَالَّذِينَ كَسَبُواْ السَّيِّئَاتِ جَزَاء سَيِّئَةٍ بِمِثْلِهَا وَتَرْهَقُهُمْ ذِلَّةٌ مَّا لَهُم مِّنَ اللهِ مِنْ عَاصِمٍ كَأَنَّمَا أُغْشِيَتْ وُجُوهُهُمْ قِطَعًا مِّنَ اللَّيْلِ مُظْلِمًا أُوْلَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ (27).

وَالَّذِينَ كَسَبُواْ السَّيِّئَاتِ جَزَاء سَيِّئَةٍ بِمِثْلِهَا.

أي: والَّذين عمِلوا السيِّئاتِ[37] في الدُّنيا، فعَصَوا وكفَروا باللهِ ورسولِه، فلهم جزاءٌ يسوؤُهم بحسبِ ما عمِلوا مِن السيئاتِ، دونَ زيادةٍ على ما يستحقُّونَ.

كما قال تعالى: وَمَنْ جَاءَ بِالسَّيِّئَةِ فَلَا يُجْزَى إِلَّا مِثْلَهَا وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ [الأنعام: 160].

وَتَرْهَقُهُمْ ذِلَّةٌ.

(37) قيل: تعمُّ السيئات هاهنا الكفرَ والمعاصي، وممن قال بذلك: ابنُ جريرٍ، وابنُ عطيةَ، والقاسمي، والسعدي.
يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (166/12)، ((تفسير ابن عطية)) (116/3)، ((تفسير القاسمي)) (20/6)، ((تفسير السعدي)) (ص: 362).
وقيل: المرادُ بها: الشركُ.
وممن قال بذلك: الواحديُّ، وابنُ عاشورٍ.
يُنظر: ((الوجيز)) (ص: 496)، ((تفسير ابن عاشور)) (148/11).
وهذا القولُ مرويٌّ عن ابنِ عباسٍ رضي الله عنهما.
يُنظر: ((تفسير ابن الجوزي)) (327/2).
وقيل: المرادُ بها المعاصي.
وممَّن قال بذلك: القرطبي.
يُنظر: ((تفسير القرطبي)) (332/8).

أي: ويَغشاهم هوانٌ وخِزيٌ.

كما قال تعالى: وَتَرَاهُمْ يُعْرَضُونَ عَلَيْهَا خَاشِعِينَ مِنَ الذُّلِّ يَنْظُرُونَ مِنْ طَرْفٍ خَفِيٍّ [الشورى: 45].

وقال سبحانه: وَلَا تَحْسَبَنَّ اللَّهَ غَافِلًا عَمَّا يَعْمَلُ الظَّالِمُونَ إِنَّمَا يُؤَخِّرُهُمْ لِيَوْمٍ تَشْخَصُ فِيهِ الْأَبْصَارُ * مُهْطِعِينَ مُقْنِعِي رُءُوسِهِمْ لَا يَرْتَدُّ إِلَيْهِمْ طَرْفُهُمْ وَأَفْئِدَتُهُمْ هَوَاءٌ [إبراهيم: 42، 43].

مَّا لَهُم مِّنَ اللَّهِ مِنْ عَاصِمٍ.

أي: ما لهم مِن اللهِ مِن مانعٍ يمنَعُ عنهم سَخَطَه وعذابَه.

كما قال تعالى: لَهُمْ عَذَابٌ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَلَعَذَابُ الْآخِرَةِ أَشَقُّ وَمَا لَهُمْ مِنَ اللَّهِ مِنْ وَاقٍ [الرعد: 34].

وقال سُبحانه: يَوْمَ تُوَلُّونَ مُدْبِرِينَ مَا لَكُمْ مِنَ اللَّهِ مِنْ عَاصِمٍ [غافر: 33].

كَأَنَّمَا أُغْشِيَتْ وُجُوهُهُمْ قِطَعًا مِّنَ اللَّيْلِ مُظْلِمًا.

أي: كأنَّما أُلبِسَت وجوهُهم- مِن شِدَّةِ سَوادِها- أجزاءً مِن اللَّيلِ في حالِ ظُلمَتِه.

كما قال تعالى: وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ تَرَى الَّذِينَ كَذَبُوا عَلَى اللَّهِ وُجُوهُهُمْ مُسْوَدَّةٌ [الزمر: 60].

وقال سبحانه: يَوْمَ تَبْيَضُّ وُجُوهٌ وَتَسْوَدُّ وُجُوهٌ فَأَمَّا الَّذِينَ اسْوَدَّتْ وُجُوهُهُمْ أَكَفَرْتُمْ بَعْدَ إِيمَانِكُمْ فَذُوقُوا الْعَذَابَ بِمَا كُنْتُمْ تَكْفُرُونَ [آل عمران: 106].

أُوْلَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ.

أي: أولئك– الموصوفونَ بهذه الصفاتِ الذميمةِ– أهلُ النَّارِ، هم فيها ماكِثونَ أبدًا.

سُورةُ يُونُس

الآيتان (28–30)

وَيَوْمَ نَحْشُرُهُمْ جَمِيعًا ثُمَّ نَقُولُ لِلَّذِينَ أَشْرَكُوا مَكَانَكُمْ أَنْتُمْ وَشُرَكَاؤُكُمْ فَزَيَّلْنَا بَيْنَهُمْ وَقَالَ شُرَكَاؤُهُمْ مَا كُنْتُمْ إِيَّانَا تَعْبُدُونَ (28) فَكَفَى بِاللَّهِ شَهِيدًا بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ إِنْ كُنَّا عَنْ عِبَادَتِكُمْ لَغَافِلِينَ (29) هُنَالِكَ تَبْلُو كُلُّ نَفْسٍ مَا أَسْلَفَتْ وَرُدُّوا إِلَى اللَّهِ مَوْلَاهُمُ الْحَقِّ وَضَلَّ عَنْهُمْ مَا كَانُوا يَفْتَرُونَ (30)

غريب الكلمات:

فَزَيَّلْنَا: **أي: فَرَّقْنا. وأصلُ التزايُل: التبايُن.**

تَبْلُو: **أي: تَختَبِرُ وتَعلَمُ. وأصلُ (بلو): يدلُّ على اختبارٍ.**

أَسْلَفَتْ: **أي: قَدَّمَت وعَمِلَت، وأصلُ (سلف): يدلُّ على تقدُّمٍ وسَبْقٍ.**

تفسير الآيات:

وَيَوْمَ نَحْشُرُهُمْ جَمِيعًا ثُمَّ نَقُولُ لِلَّذِينَ أَشْرَكُواْ مَكَانَكُمْ أَنتُمْ وَشُرَكَآؤُكُمْ فَزَيَّلْنَا بَيْنَهُمْ وَقَالَ شُرَكَآؤُهُم مَّا كُنتُمْ إِيَّانَا تَعْبُدُونَ (28).

وَيَوْمَ نَحْشُرُهُمْ جَمِيعًا.

أي: واذكُرْ- يا مُحَمَّدُ- يومَ نَجمَعُ جَميعَ الخَلقِ لِمَوقِفِ الحسابِ يومَ القيامةِ؛ الإنسَ والجِنَّ، والمُؤمنينَ والكافرينَ، والعابدينَ والمَعبودينَ.[38]

كما قال تعالى: وَحَشَرْنَاهُمْ فَلَمْ نُغَادِرْ مِنْهُمْ أَحَدًا [الكهف: 47].

ثُمَّ نَقُولُ لِلَّذِينَ أَشْرَكُواْ مَكَانَكُمْ أَنتُمْ وَشُرَكَآؤُكُمْ.

أي: ثمَّ نقولُ للمُشرِكينَ: الزَموا مكانَكم، وقِفوا في مَوضعِكم، أنتم والذين زَعَمتُم أنَّهم شركاءُ للهِ في عبادتِه.

كما قال تعالى: وَيَوْمَ نَحْشُرُهُمْ جَمِيعًا ثُمَّ نَقُولُ لِلَّذِينَ أَشْرَكُوا أَيْنَ شُرَكَاؤُكُمُ الَّذِينَ كُنْتُمْ تَزْعُمُونَ [الأنعام: 22].

---

(38) ذكر ابنُ جرير (١٢/ ١٧٢) أنّ الحشر: جَمْعُ الخلقِ لموقف الحساب جميعًا.

ثم ساق قول مجاهد، ورجَّحه مستندًا إلى الدلالات العقلية، فقال: «لأنّ الله -تعالى ذِكْرُه- أخبر أنّه يقول يومئذٍ للذين أشركوا ما ذَكَر أنّه يقول لهم، ومعلوم أنّ ذلك غير كائن في القبر، وأنّه إنما هو خبرٌ عَمّا يُقال لهم ويقولون في الموقف بعد البعث».

فَزَيَّلْنا بَيْنَهُمْ.

أي: ففرَّقْنا بين المُشرِكينَ العابدينَ، ومَعبُوديهم مِن دونِ اللهِ.

كما قال تعالى: إِذْ تَبَرَّأَ الَّذِينَ اتُّبِعُوا مِنَ الَّذِينَ اتَّبَعُوا وَرَأَوُا الْعَذَابَ وَتَقَطَّعَتْ بِهِمُ الْأَسْبَابُ * وَقَالَ الَّذِينَ اتَّبَعُوا لَوْ أَنَّ لَنَا كَرَّةً فَنَتَبَرَّأَ مِنْهُمْ كَمَا تَبَرَّءُوا مِنَّا كَذَلِكَ يُرِيهِمُ اللَّهُ أَعْمَالَهُمْ حَسَرَاتٍ عَلَيْهِمْ وَمَا هُمْ بِخَارِجِينَ مِنَ النَّارِ [البقرة: 166– 167].

وقال سُبحانه: وَيَوْمَ يَقُولُ نَادُوا شُرَكَائِيَ الَّذِينَ زَعَمْتُمْ فَدَعَوْهُمْ فَلَمْ يَسْتَجِيبُوا لَهُمْ وَجَعَلْنَا بَيْنَهُمْ مَوْبِقًا [الكهف: 52].

وَقَالَ شُرَكَآؤُهُم مَّا كُنتُمْ إِيَّانَا تَعْبُدُونَ.

أي: وقال المعبودونَ للمُشرِكينَ الذين عَبَدوهم: ما كُنتُم تعبدونَنا في الحقيقةِ، بل كُنتم تعبدونَ أهواءَكم وشَياطينَكم الذين أمَروكم بعبادَتِنا.

كما قال تعالى: وَإِذَا رَأَى الَّذِينَ أَشْرَكُوا شُرَكَاءَهُمْ قَالُوا رَبَّنَا هَؤُلَاءِ شُرَكَاؤُنَا الَّذِينَ كُنَّا نَدْعُو مِنْ دُونِكَ فَأَلْقَوْا إِلَيْهِمُ الْقَوْلَ إِنَّكُمْ لَكَاذِبُونَ [النحل: 86].

وقال سُبحانه: وَيَوْمَ يَحْشُرُهُمْ وَمَا يَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ فَيَقُولُ أَأَنْتُمْ أَضْلَلْتُمْ عِبَادِي هَؤُلَاءِ أَمْ هُمْ ضَلُّوا السَّبِيلَ * قَالُوا سُبْحَانَكَ مَا كَانَ يَنْبَغِي لَنَا أَنْ نَتَّخِذَ مِنْ دُونِكَ مِنْ أَوْلِيَاءَ وَلَكِنْ مَتَّعْتَهُمْ وَآبَاءَهُمْ حَتَّى نَسُوا الذِّكْرَ وَكَانُوا قَوْمًا بُورًا * فَقَدْ كَذَّبُوكُمْ بِمَا تَقُولُونَ [الفرقان: 17–19].

وقال عزَّ وجلَّ: وَيَوْمَ تَقُومُ السَّاعَةُ يُبْلِسُ الْمُجْرِمُونَ * وَلَمْ يَكُنْ لَهُمْ مِنْ شُرَكَائِهِمْ شُفَعَاءُ وَكَانُوا بِشُرَكَائِهِمْ كَافِرِينَ [الروم: 12–13].

وقال جلَّ جلاله: وَيَوْمَ يَحْشُرُهُمْ جَمِيعًا ثُمَّ يَقُولُ لِلْمَلَائِكَةِ أَهَؤُلَاءِ إِيَّاكُمْ كَانُوا يَعْبُدُونَ * قَالُوا سُبْحَانَكَ أَنْتَ وَلِيُّنَا مِنْ دُونِهِمْ بَلْ كَانُوا يَعْبُدُونَ الْجِنَّ أَكْثَرُهُمْ بِهِمْ مُؤْمِنُونَ [سبأ: 40–41].

فَكَفَى بِاللّهِ شَهِيدًا بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ إِن كُنَّا عَنْ عِبَادَتِكُمْ لَغَافِلِينَ (29).

أي: قال المَعبودونَ للذين عَبَدوهم: فحَسْبُنا اللهُ شاهدًا بيننا وبينكم، أيُّها المُشرِكونَ؛ فإنَّه قد عَلِمَ أنَّكم عَبَدتُمونا من غيرِ أن نأمُرَكم، ومِن دونِ أن نَشعُرَ بعِبادتِكم لنا.

كما قال تعالى: إِنْ تَدْعُوهُمْ لَا يَسْمَعُوا دُعَاءَكُمْ وَلَوْ سَمِعُوا مَا اسْتَجَابُوا لَكُمْ وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ يَكْفُرُونَ بِشِرْكِكُمْ وَلَا يُنَبِّئُكَ مِثْلُ خَبِيرٍ [فاطر: 14].

وقال سُبحانه: وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّنْ يَدْعُو مِنْ دُونِ اللَّهِ مَنْ لَا يَسْتَجِيبُ لَهُ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ وَهُمْ عَنْ دُعَائِهِمْ غَافِلُونَ * وَإِذَا حُشِرَ النَّاسُ كَانُوا لَهُمْ أَعْدَاءً وَكَانُوا بِعِبَادَتِهِمْ كَافِرِينَ [الأحقاف: 5–6].

هُنَالِكَ تَبْلُو كُلُّ نَفْسٍ مَّا أَسْلَفَتْ وَرُدُّواْ إِلَى اللهِ مَوْلاَهُمُ الْحَقِّ وَضَلَّ عَنْهُم مَّا كَانُواْ يَفْتَرُونَ (30).

هُنَالِكَ تَبْلُو كُلُّ نَفْسٍ مَّا أَسْلَفَتْ.

أي: في ذلك المَقامِ في أرضِ المَحشَرِ يومَ القيامةِ تَعلَمُ كلُّ نفسٍ ما قدَّمَت مِن خَيرٍ أو شَرٍّ، وتَجِدُه مكتوبًا لِتُحاسَبَ عليه.(39)

كما قال تعالى: يَوْمَ تَجِدُ كُلُّ نَفْسٍ مَا عَمِلَتْ مِنْ خَيْرٍ مُحْضَرًا وَمَا عَمِلَتْ مِنْ سُوءٍ تَوَدُّ لَوْ أَنَّ بَيْنَهَا وَبَيْنَهُ أَمَدًا بَعِيدًا [آل عمران: 30].

وقال سُبحانه: وَكُلَّ إِنْسَانٍ أَلْزَمْنَاهُ طَائِرَهُ فِي عُنُقِهِ وَنُخْرِجُ لَهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ كِتَابًا يَلْقَاهُ مَنْشُورًا * اقْرَأْ كِتَابَكَ كَفَى بِنَفْسِكَ الْيَوْمَ عَلَيْكَ حَسِيبًا [الإسراء: 13- 14].

---

(39) اختُلِف في قراءة ﴿تبلوا﴾؛ فقرأ قوم: ﴿تبلوا﴾.

وقرأ آخرون: ﴿تتلوا﴾.

وذكر ابنُ جرير (١٢/ ١٧٣ – ١٧٤) أنّ قراءة الباء بمعنى: عند ذلك تُختبَر كلُّ نفس ما قدمت [كذا أثبتها وصححها الشيخ شاكر ١٥/ ٨٠، وفي طبعة التركي: بما قدمت] مِن خير أو شر.

وبيّن أن قراءة التاء اختُلِف في تفسيرها؛ فمنهم مَن فسرها بمعنى: تتبع ما قدَّمته من خير وشر.

وفسَّرها آخرون: بالقراءة.

وفسرها غيرهم: بالمعاينة.

وبنحوه قال ابنُ عطية (٤/ ٤٧٧).

وكذا ابنُ كثير (٧/ ٣٥٩ – ٣٦٠).

ورجَّح ابنُ جرير (١٢/ ١٧٤ – ١٧٥) صِحَّة كِلتا القراءتين مستندًا إلى شهرتهما، واستفاضتهما، فقال: «والصوابُ من القول في ذلك أن يُقال: إنّهما قراءتان مشهورتان، قد قرأ بكلِّ واحدة منهما أئمةٌ مِن القراء، وهما متقاربتا المعنى؛ وذلك أنّ مَن تبع في الآخرة ما أسلف من العمل في الدنيا هُجِم به على مَورده، فيُخبَر هنالك ما أسلف من صالح أو سيّءٍ في الدنيا، وإنّ مِن خَبَرَ ما أسلف في الدنيا مِن أعماله في الآخرة فإنما يُخبَر بعد مصيره إلى حيث أحلّه ما قدم في الدنيا من عمله، فهو في كلتا الحالتين مُتَّبِعٌ ما أسلف مِن عمله، مُخْتَبِر له، فبأيتهما قرأ القارِئُ كما وصفنا فمصيبٌ الصوابَ في ذلك».

وقال عزَّ وجلَّ: وَوُضِعَ الْكِتَابُ فَتَرَى الْمُجْرِمِينَ مُشْفِقِينَ مِمَّا فِيهِ وَيَقُولُونَ يَا وَيْلَتَنَا مَالِ هَذَا الْكِتَابِ لَا يُغَادِرُ صَغِيرَةً وَلَا كَبِيرَةً إِلَّا أَحْصَاهَا وَوَجَدُوا مَا عَمِلُوا حَاضِرًا وَلَا يَظْلِمُ رَبُّكَ أَحَدًا [الكهف: 49].

القِراءاتُ ذاتُ الأثَرِ في التَّفسيرِ:

1- قِراءةُ تَتْلُو مِن التِّلاوةِ، أي: تقرأُ كُلُّ نَفسٍ أعمالَها مِن كِتابِها يومَ القيامةِ، وقيل: المعنى: تَتبَعُ كُلُّ نَفسٍ ما قدَّمَتْ مِن خَيرٍ أو شَرٍّ.(40)

2- قِراءةُ تَبْلُو، أي: تَخْبُرُ، فالمعنى: تَعلَمُ كُلُّ نَفسٍ ما قدَّمَت مِن خَيرٍ أو شَرٍّ.(41)

وَرُدُّواْ إِلَى اللهِ مَوْلاَهُمُ الْحَقّ.

أي: ورُجِعَ هؤلاء المُشرِكونَ إلى اللهِ الذي هو ربُّهم ومالِكُهم، والمتولِّي أمرَهم، الحَقُّ لا شكَّ فيه، دُونَ مَا اتَّخَذُوا مِنْ دُونِهِ مِن آلهةٍ.

---

(40) قرأ بها حمزةُ، والكِسائيُّ، وخلفٌ.

يُنظر: ((النشر)) لابن الجزري (2/283).

ويُنظر لمعنى هذه القراءة: ((تفسير ابن جرير)) (12/174، 175)، ((معاني القرآن)) للزجاج (3/17)، ((معاني القراءات)) للأزهري (2/44)، ((حجة القراءات)) لابن زنجلة (ص: 331)، ((تفسير ابن كثير)) (4/265، 266).

(41) قرأ بها الباقون.

يُنظر: ((النشر)) لابن الجزري (2/283).

ويُنظر لمعنى هذه القراءة: ((تفسير ابن جرير)) (12/174، 175)، ((معاني القرآن)) للزجاج (3/17)، ((معاني القراءات)) للأزهري (2/44)، ((حجة القراءات)) لابن زنجلة (ص: 331).

كما قال تعالى: ثُمَّ رُدُّوا إِلَى اللَّهِ مَوْلَاهُمُ الْحَقِّ أَلَا لَهُ الْحُكْمُ وَهُوَ أَسْرَعُ الْحَاسِبِينَ [الأنعام: 62].

وقال عزَّ وجلَّ: ذَلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ هُوَ الْحَقُّ وَأَنَّ مَا يَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ هُوَ الْبَاطِلُ [الحج: 62].

وَضَلَّ عَنْهُم مَّا كَانُواْ يَفْتَرُونَ.

أي: وزال عن المُشركِينَ وبطَلَ ما كانوا يختَلِقونه مِن الكَذِبِ على اللهِ، بدعواهم أنَّ له شُرَكاءَ يَنفعونَ مَن عَبَدَهم، ويَدفعونَ عنه الضُّرَّ، ويُقَرِّبونه إلى اللهِ.

كما قال تعالى: وَإِذَا رَأَى الَّذِينَ أَشْرَكُوا شُرَكَاءَهُمْ قَالُوا رَبَّنَا هَؤُلَاءِ شُرَكَاؤُنَا الَّذِينَ كُنَّا نَدْعُو مِنْ دُونِكَ فَأَلْقَوْا إِلَيْهِمُ الْقَوْلَ إِنَّكُمْ لَكَاذِبُونَ * وَأَلْقَوْا إِلَى اللَّهِ يَوْمَئِذٍ السَّلَمَ وَضَلَّ عَنْهُمْ مَا كَانُوا يَفْتَرُونَ [النحل: 86-87].

وقال سبحانه: وَيَوْمَ يُنَادِيهِمْ فَيَقُولُ أَيْنَ شُرَكَائِيَ الَّذِينَ كُنْتُمْ تَزْعُمُونَ * وَنَزَعْنَا مِنْ كُلِّ أُمَّةٍ شَهِيدًا فَقُلْنَا هَاتُوا بُرْهَانَكُمْ فَعَلِمُوا أَنَّ الْحَقَّ لِلَّهِ وَضَلَّ عَنْهُمْ مَا كَانُوا يَفْتَرُونَ [القصص: 74-75].

سُورةُ يُونُس

الآيتان (31–33)

قُلْ مَنْ يَرْزُقُكُمْ مِنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ أَمَّنْ يَمْلِكُ السَّمْعَ وَالْأَبْصَارَ وَمَنْ يُخْرِجُ الْحَيَّ مِنَ الْمَيِّتِ وَيُخْرِجُ الْمَيِّتَ مِنَ الْحَيِّ وَمَنْ يُدَبِّرُ الْأَمْرَ فَسَيَقُولُونَ اللَّهُ فَقُلْ أَفَلَا تَتَّقُونَ (31) فَذَلِكُمُ اللَّهُ رَبُّكُمُ الْحَقُّ فَمَاذَا بَعْدَ الْحَقِّ إِلَّا الضَّلَالُ فَأَنَّى تُصْرَفُونَ (32) كَذَلِكَ حَقَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ عَلَى الَّذِينَ فَسَقُوا أَنَّهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ (33)

غريب الكلمات:

حَقَّتْ: أي: وجَبَتْ وثبَتَتْ؛ يُقال مِنه: حقَّ على فُلانٍ كذا، يَحِقُّ عليه: إذا ثبَت ذلك عليه ووجَبَ، وأصلُ (حقَّ): يدلُّ على إحكامِ الشَّيءِ وصِحَّتِه.

تفسير الآيات:

قُلْ مَن يَرْزُقُكُم مِّنَ السَّمَاءِ وَالأَرْضِ أَمَّن يَمْلِكُ السَّمْعَ والأَبْصَارَ وَمَن يُخْرِجُ الْحَيَّ مِنَ الْمَيِّتِ وَيُخْرِجُ الْمَيَّتَ مِنَ الْحَيِّ وَمَن يُدَبِّرُ الأَمْرَ فَسَيَقُولُونَ اللّهُ فَقُلْ أَفَلاَ تَتَّقُونَ (31).

قُلْ مَن يَرْزُقُكُم مِّنَ السَّمَاءِ وَالأَرْضِ.

أي: قُل – يا مُحَمَّدُ – للمُشرِكِينَ: مَن الذي يرزُقُكم من السَّماءِ مياهَ الأمطارِ، ويَرزُقُكم من الأرضِ أنواعًا من الحبوبِ والثِّمارِ والبُقولِ والمعادِنِ؟!

كما قال تعالى: اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ وَأَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجَ بِهِ مِنَ الثَّمَرَاتِ رِزْقًا لَكُمْ [إبراهيم: 32].

وقال سبحانه: فَلْيَنْظُرِ الْإِنْسَانُ إِلَى طَعَامِهِ * أَنَّا صَبَبْنَا الْمَاءَ صَبًّا * ثُمَّ شَقَقْنَا الْأَرْضَ شَقًّا * فَأَنْبَتْنَا فِيهَا حَبًّا * وَعِنَبًا وَقَضْبًا * وَزَيْتُونًا وَنَخْلًا * وَحَدَائِقَ غُلْبًا * وَفَاكِهَةً وَأَبًّا * مَتَاعًا لَكُمْ وَلِأَنْعَامِكُمْ [عبس: 24 – 32].

أَمَّن يَمْلِكُ السَّمْعَ والأَبْصَارَ.

أي: أم مَن الذي يملِكُ سَمعَكم وأبصارَكم، ولو شاء لسَلَبَكم إيَّاها؟!

كما قال تعالى: قُلْ هُوَ الَّذِي أَنْشَأَكُمْ وَجَعَلَ لَكُمُ السَّمْعَ وَالْأَبْصَارَ وَالْأَفْئِدَةَ قَلِيلًا مَا تَشْكُرُونَ [الملك: 23].

وقال سُبحانه: قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ أَخَذَ اللَّهُ سَمْعَكُمْ وَأَبْصَارَكُمْ وَخَتَمَ عَلَى قُلُوبِكُمْ مَنْ إِلَهٌ غَيْرُ اللَّهِ يَأْتِيكُمْ بِهِ انْظُرْ كَيْفَ نُصَرِّفُ الْآيَاتِ ثُمَّ هُمْ يَصْدِفُونَ [الأنعام: 46].

وَمَن يُخْرِجُ الْحَيَّ مِنَ الْمَيِّتِ.

أي: ومَنْ يُخرِجُ الشَّيءَ الحيَّ مِن الشَّيءِ الميّتِ بقُدرته العظيمةِ، فيُخرجُ الإنسانَ الحيَّ والأنعامَ والبهائمَ الأحياءَ من النُّطَف الميّتةِ، ويُخرِجُ الزَّرعَ من الحبَّةِ، والنَّخلةَ من النَّواةِ، والدَّجاجةَ مِن البيضةِ، والمؤمنَ من الكافِر، إلى غيرِ ذلك؟!

وَيُخْرِجُ الْمَيِّتَ مِنَ الْحَيِّ.

أي: ومَنْ يُخرِجُ الشَّيءَ الميّتَ مِن الشَّيءِ الحَيِّ بقُدرتِه العظيمةِ، فيُخرجُ النُّطفةَ الميّتةَ مِن الإنسانِ الحيِّ والأنعامِ والبهائمِ الأحياءِ، ويُخرجُ الحبَّةَ من الزَّرعِ، والنَّواةَ من النَّخلةِ، والبيضةَ من الدَّجاجةِ، والكافرَ من المؤمِن، إلى غيرِ ذلك؟!

كما قال تعالى: إِنَّ اللَّهَ فَالِقُ الْحَبِّ وَالنَّوَى يُخْرِجُ الْحَيَّ مِنَ الْمَيِّتِ وَمُخْرِجُ الْمَيِّتِ مِنَ الْحَيِّ ذَلِكُمُ اللَّهُ فَأَنَّى تُؤْفَكُونَ [الأنعام: 95].

وَمَن يُدَبِّرُ الأَمْرَ.

أي: ومَنْ يُقدِّر أمرَ جَميعِ الخلائقِ، ويتصرَّفُ في السَّماءِ والأرضِ بما يشاء؟!

كما قال تعالى: إِنَّ رَبَّكُمُ اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ اسْتَوَى عَلَى الْعَرْشِ يُغْشِي اللَّيْلَ النَّهَارَ يَطْلُبُهُ حَثِيثًا وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ وَالنُّجُومَ مُسَخَّرَاتٍ بِأَمْرِهِ أَلَا لَهُ الْخَلْقُ وَالْأَمْرُ تَبَارَكَ اللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ [الأعراف: 54].

وقال عزَّ وجلَّ: يُدَبِّرُ الْأَمْرَ مِنَ السَّمَاءِ إِلَى الْأَرْضِ [السجدة: 5].

فَسَيَقُولُونَ اللهُ.

أي: فسيقولُ المُشرِكونَ: الله وَحدَه هو الذي يرزُقُنا من السَّماءِ والأرضِ، ويَملِكُ السَّمعَ والأبصارَ، ويُخرِجُ الحيَّ من الميِّتِ، ويُخرِجُ الميِّتَ مِن الحيِّ، ويُدَبِّرُ الأمرَ.

فَقُلْ أَفَلاَ تَتَّقُونَ.

أي: فقُل- يا مُحَمَّدُ- لهؤلاء المُشرِكينَ: أفلا تتَّقونَ الله، وتخافونَ عِقابَه على إصرارِكم على الشِّركِ، فتُخلِصون له العبادةَ؟! فأنتم مُقِرُّونَ أنَّه خالِقُكم ورازِقُكم، ومدبِّرُ أمورِكم.

كما قال تعالى: قُلْ مَنْ رَبُّ السَّمَوَاتِ السَّبْعِ وَرَبُّ الْعَرْشِ الْعَظِيمِ * سَيَقُولُونَ لِلَّهِ قُلْ أَفَلَا تَتَّقُونَ [المؤمنون: 86 – 87].

فَذَلِكُمُ اللهُ رَبُّكُمُ الحَقُّ فَمَاذَا بَعْدَ الحَقِّ إِلاَّ الضَّلاَلُ فَأَنَّى تُصْرَفُونَ (32).

فَذَلِكُمُ اللهُ رَبُّكُمُ الْحَقُّ.

أي: فهذا الذي يفعَلُ هذه الأفعالَ؛ فَيرزُقُكم من السَّماءِ والأرضِ، ويَملِكُ السَّمعَ والأبصارَ، ويُخرِجُ الحَيَّ مِنَ الميّتِ، ويُخرِجُ الميّتَ مِن الحَيِّ، ويُدَبِّرُ الأمرَ؛ هو المستَحِقُّ للعبادةِ وَحْدَه دونَ ما سواه، وهو ربُّكم الحَقُّ الذي لا شَكَّ فيه.

كما قال تعالى: ذَلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ هُوَ الْحَقُّ وَأَنَّ مَا يَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ هُوَ الْبَاطِلُ وَأَنَّ اللَّهَ هُوَ الْعَلِيُّ الْكَبِيرُ [الحج: 62].

وعن ابنِ عبَّاسٍ رَضِيَ اللهُ عنهما، ((أنَّ رَسولَ اللهِ – ﷺ – كان يقولُ إذا قام إلى الصلاةِ مِن جوفِ اللَّيلِ: اللهمَّ لك الحمدُ، أنت نورُ السَّموات والأرضِ، ولك الحَمدُ، أنت قيَّامُ السَّمواتِ والأرضِ، ولك الحمدُ، أنت ربُّ السَّمواتِ والأرضِ ومَن فيهنَّ، أنت الحقُّ، ووَعدُك الحَقُّ، وقَولُك الحَقُّ، ولِقاؤك حَقٌّ، والجنَّةُ حَقٌّ، والنَّارُ حَقٌّ، والسَّاعةُ حَقٌّ، اللهمَّ لك أسلمتُ، وبك آمنتُ، وعليك توكَّلتُ، وإليك أنَبْتُ، وبك خاصَمتُ، وإليك حاكَمتُ، فاغفِرْ لي ما قدَّمتُ وأخَّرتُ، وأسرَرتُ وأعلَنتُ، أنت إلهي، لا إلهَ إلَّا أنت)).(42)

---

(42) رواه البخاري (1120)، ومسلم (769) واللفظ له.

فَمَاذَا بَعْدَ الْحَقِّ إِلاَّ الضَّلاَلُ.

أي: فأيُّ شَيءٍ غيرِ الحقِ إلَّا الضَّلالُ؟! فلا واسطةَ بين الحَقِّ والباطِلِ، فمن عبدَ غَيرَ اللهِ المستَحِقِّ وَحدَه للعبادةِ، فقد ضلَّ.

فَأَنَّى تُصْرَفُونَ.

أي: فكيف يَقَعُ صَرفُكم بعدَ وضوحِ الحقِّ، فتَعدِلونَ عن عبادةِ الله إلى عبادةِ ما سواه، وأنتم تعلمونَ أنَّ الله وَحْدَه هو المتفرِّدُ بالخَلقِ والتَّدبيرِ؟!

كَذَلِكَ حَقَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ عَلَى الَّذِينَ فَسَقُواْ أَنَّهُمْ لاَ يُؤْمِنُونَ (33).

أي: كما صُرِفَ المُشرِكونَ عَنِ الحقِّ، واستمرُّوا على شِركِهم، كذلك وجب قضاءُ الله وحُكمُه السَّابِقُ الصادر عن عِلمِه، على الذين خَرَجوا عن الحقِّ إلى الباطِلِ، بأنَّهم لا يُؤمنونَ، وأنَّهم مُعَذَّبونَ.

كما قال تعالى: إِنَّ الَّذِينَ حَقَّتْ عَلَيْهِمْ كَلِمَتُ رَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ * وَلَوْ جَاءَتْهُمْ كُلُّ آيَةٍ حَتَّى يَرَوُا الْعَذَابَ الْأَلِيمَ [يونس: 96–97].

وقال سبحانه: وَتَمَّتْ كَلِمَةُ رَبِّكَ لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنَ الْجِنَّةِ وَالنَّاسِ أَجْمَعِينَ [هود: 119].

وقال عزَّ وجلَّ: وَسِيقَ الَّذِينَ كَفَرُوا إِلَى جَهَنَّمَ زُمَرًا حَتَّى إِذَا جَاءُوهَا فُتِحَتْ أَبْوَابُهَا وَقَالَ لَهُمْ خَزَنَتُهَا أَلَمْ يَأْتِكُمْ رُسُلٌ مِنْكُمْ يَتْلُونَ عَلَيْكُمْ آيَاتِ رَبِّكُمْ وَيُنْذِرُونَكُمْ لِقَاءَ يَوْمِكُمْ هَذَا قَالُوا بَلَى وَلَكِنْ حَقَّتْ كَلِمَةُ الْعَذَابِ عَلَى الْكَافِرِينَ [الزمر: 71].

سُورةُ يُونُس

الآيتان (34-36)

قُلْ هَلْ مِنْ شُرَكَائِكُمْ مَنْ يَبْدَأُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ قُلِ اللَّهُ يَبْدَأُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ فَأَنَّى تُؤْفَكُونَ
(34) قُلْ هَلْ مِنْ شُرَكَائِكُمْ مَنْ يَهْدِي إِلَى الْحَقِّ قُلِ اللَّهُ يَهْدِي لِلْحَقِّ أَفَمَنْ يَهْدِي إِلَى
الْحَقِّ أَحَقُّ أَنْ يُتَّبَعَ أَمَّنْ لَا يَهِدِّي إِلَّا أَنْ يُهْدَى فَمَا لَكُمْ كَيْفَ تَحْكُمُونَ (35) وَمَا يَتَّبِعُ
أَكْثَرُهُمْ إِلَّا ظَنًّا إِنَّ الظَّنَّ لَا يُغْنِي مِنَ الْحَقِّ شَيْئًا إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ بِمَا يَفْعَلُونَ (36)

غريب الكلمات:

تُؤْفَكُونَ: أي: تُصرَفون عن الحقِّ، وتُصَدُّون عن الصوابِ، وتَعْدلونَ، يُقالُ: أفَكَ الرجلُ عن كذا: إذا عدَل عنه، والإفْكُ: كلُّ مصروفٍ عن وجهِه الذي يحقُّ أن يكونَ عليه، وأصلُ (أفك): قلبُ الشيءِ، وصرفُه عن جهتِه.

تفسير الآيات:

قُلْ هَلْ مِن شُرَكَآئِكُم مَّن يَبْدَأُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ قُلِ اللّهُ يَبْدَأُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ فَأَنَّى تُؤْفَكُونَ (34).

قُلْ هَلْ مِن شُرَكَآئِكُم مَّن يَبْدَأُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ.

أي: قُلْ- يا مُحَمَّدُ- للمُشرِكِينَ: هل من آلهَتِكم- التي زَعَمتُم أنَّها شُرَكاءُ لله في العبادةِ- مَن يبتدِئُ خَلقَ أيِّ شَيءٍ مِن العَدَمِ، ثمَّ إذا مات يُعيدُه إلى الحياةِ مَرَّةً أخرى؟!

قُلِ اللّهُ يَبْدَأُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ.

أي: قُل- يا مُحَمَّدُ- للمُشركِينَ: اللهُ وَحدَه هو الذي يَبتَدِئُ خَلقَ كُلِّ شَيءٍ مِن العدَمِ، ثمَّ يُعيدُه بعد مَوتِه متى شاء مِن غَيرِ مُعاوِنٍ ولا شريكٍ.

كما قال تعالى: إِلَيْهِ مَرْجِعُكُمْ جَمِيعًا وَعْدَ اللَّهِ حَقًّا إِنَّهُ يَبْدَأُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ [يونس: 4].

وقال سبحانه: قُلْ سِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَانْظُرُوا كَيْفَ بَدَأَ الْخَلْقَ ثُمَّ اللَّهُ يُنْشِئُ النَّشْأَةَ الْآخِرَةَ إِنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ [العنكبوت: 20].

وقال عزَّ وجَلَّ: وَهُوَ الَّذِي يَبْدَأُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ وَهُوَ أَهْوَنُ عَلَيْهِ [الروم: 27].

فَأَنَّى تُؤْفَكُونَ.

أي: فكيف تُصرَفونَ وتُقلَبونَ عن اتِّباعِ الحَقِّ إلى الباطِلِ؟!

قُلْ هَلْ مِن شُرَكَآئِكُم مَّن يَهْدِي إِلَى الْحَقِّ قُلِ اللّهُ يَهْدِي لِلْحَقِّ أَفَمَن يَهْدِي إِلَى الْحَقِّ أَحَقُّ أَن يُتَّبَعَ أَمَّن لاَّ يَهِدِّيَ إِلاَّ أَن يُهْدَى فَمَا لَكُمْ كَيْفَ تَحْكُمُونَ (35).

قُلْ هَلْ مِن شُرَكَآئِكُم مَّن يَهْدِي إِلَى الْحَقِّ.

أي: قُلْ- يا مُحمَّدُ- للمُشرِكينَ: هل مِنْ آلهتِكم مَنْ يُرشِدُ الضَّالَّ، ويُوفِّقُه إلى مَعرفةِ الحَقِّ واتِّباعِه؟!

قُلِ اللّهُ يَهْدِي لِلْحَقِّ.

أي: قُلْ- يا مُحمَّدُ- للمُشرِكينَ: اللهُ وَحدَه هو الذي يُرشِدُ ويُوفِّقُ مَن يَشاءُ إلى معرفةِ الحَقِّ واتِّباعِه.

كما قال تعالى: فَهَدَى اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا لِمَا اخْتَلَفُوا فِيهِ مِنَ الْحَقِّ بِإِذْنِهِ وَاللَّهُ يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ [البقرة: 213].

وعن عليِّ بنِ أبي طالبٍ رضي الله عنه، عن رسولِ الله - ﷺ - ((أنَّه كان إذا قام إلى الصَّلاةِ قال: وجَّهتُ وجهيَ للَّذي فطر السَّمواتِ والأرضَ حَنيفًا، وما أنا من المُشرِكينَ، إنَّ صلاتي ونسكي ومحيايَ ومماتي للهِ رَبِّ العالمينَ، لا شريكَ له، وبذلك أُمِرتُ وأنا من المُسلِمينَ، اللهمَّ أنت المَلِكُ لا إله إلا أنت، أنت ربِّي، وأنا عبدُك، ظلمتُ نفسي، واعترَفتُ بذنبي، فاغفِرْ لي ذنوبي جميعًا؛ إنَّه لا يغفِرُ

الذُّنوبَ إلا أنت، واهدِني لأحسَنِ الأخلاقِ لا يهدي لأحسَنِها إلَّا أنت، واصرِفْ عني سَيِّئَها لا يَصرِفُ عني سَيِّئَها إلا أنت...)).[43]

وعن عبدِ اللهِ بنِ عَمرِو بنِ العاصِ رضي الله عنهما، أنَّه سَمِعَ رَسولَ اللهِ - ﷺ - يقولُ: ((إنَّ قُلوبَ بني آدَمَ كُلَّها بين إصبَعَينِ مِن أصابعِ الرَّحمنِ كقلبٍ واحدٍ، يُصَرِّفُه حيث يشاءُ. ثم قال رسولُ الله - ﷺ -: اللهمَّ مُصرِّفَ القُلوبِ، صرِّفْ قلوبَنا على طاعَتِك)).[44]

أَفَمَن يَهْدِي إِلَى الْحَقِّ أَحَقُّ أَن يُتَّبَعَ أَمَّن لاَّ يَهِدِّيَ إِلاَّ أَن يُهْدَى.

أي: آللهُ الذي يهدي إلى الحَقِّ أحقُّ أن يُطاعَ ويُعبَدَ، أم شُركاؤُهم الذين لا يَهتَدونَ بأنفُسِهم، ولا يَهدُونَ مَن يَعبُدُهم، إلَّا أن يهدِيَهم غيرُهم؟!

فَمَا لَكُمْ كَيْفَ تَحْكُمُونَ.

أي: فما بالُكم- أيُّها المُشرِكونَ- تَعبُدونَ المخلوقَ العاجِزَ، وتترُكونَ عبادةَ الخالقِ الذي يَهدِيكم؟! كيف تحكمونَ بالباطلِ فتُساوونَ بين الله وبين خَلْقِه في العبادةِ؟!

(43) رواه مسلم (771).
(44) رواه مسلم (2654).

وَمَا يَتَّبِعُ أَكْثَرُهُمْ إِلاَّ ظَنًّا إَنَّ الظَّنَّ لاَ يُغْنِي مِنَ الْحَقِّ شَيْئًا إِنَّ اللّهَ عَلَيمٌ بِمَا يَفْعَلُونَ (36).

وَمَا يَتَّبِعُ أَكْثَرُهُمْ إِلاَّ ظَنًّا.

أي: وما يتَّبعُ أكثَرُ هؤلاء المُشرِكينَ في إشراكِهم باللهِ إلَّا مُجَرَّدَ ظَنٍّ ضعيفٍ واهٍ، من غيرِ يقينٍ ولا دليلٍ على صِحَّةِ إشراكِهم بالله عزَّ وجلَّ.

إَنَّ الظَّنَّ لاَ يُغْنِي مِنَ الْحَقِّ شَيْئًا.

أي: إنَّ الظَّنَّ لا يُوصِلُ إلى الحَقِّ، ولا يُنتفَعُ به في شيءٍ يَحتاجُ إلى اليقينِ.(45)

إِنَّ اللّهَ عَلَيمٌ بِمَا يَفْعَلُونَ.

أي: إنَّ اللهَ ذو علمٍ بما يفعَلُ المُشرِكونَ، وسيُجازيهم على ذلك.

(45) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (181/12)، ((تفسير النسفي)) (393/3)، ((تفسير ابن جزي)) (357/1)، ((تفسير الشوكاني)) (506/2)، ((تفسير القاسمي)) (24/6)، ((تفسير المنار)) لمحمد رشيد رضا (298/11)، ((تفسير السعدي)) (ص: 364)، ((تفسير ابن عاشور)) (166/11).
قال الخازن: (إِنَّ الظَّنَّ لَا يُغْنِي مِنَ الْحَقِّ شَيْئًا يعني: أنَّ الشَّكَّ لا يُغني عن اليقينِ شيئًا، ولا يقومُ مقامَه، وقيل في الآية: إنَّ قولَهم: إنَّ الأصنامَ آلهةٌ، وإنَّها تشفَعُ لهم ظنٌّ منهم لم يَرِدْ به كتابٌ، ولا يَعني أنَّها لا تدفَعُ عنهم من عذابِ اللهِ شيئًا).
((تفسير الخازن)) (443/2).
ويُنظر: ((البسيط)) للواحدي (198/11)، ((تفسير القرطبي)) (343/8).

سُورةُ يُونُس

الآيتان (37–40)

وَمَا كَانَ هَذَا الْقُرْآنُ أَنْ يُفْتَرَى مِنْ دُونِ اللَّهِ وَلَكِنْ تَصْدِيقَ الَّذِي بَيْنَ يَدَيْهِ وَتَفْصِيلَ الْكِتَابِ
لَا رَيْبَ فِيهِ مِنْ رَبِّ الْعَالَمِينَ (37) أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَاهُ قُلْ فَأْتُوا بِسُورَةٍ مِثْلِهِ وَادْعُوا مَنِ
اسْتَطَعْتُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ (38) بَلْ كَذَّبُوا بِمَا لَمْ يُحِيطُوا بِعِلْمِهِ وَلَمَّا يَأْتِهِمْ
تَأْوِيلُهُ كَذَلِكَ كَذَّبَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ فَانْظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الظَّالِمِينَ (39) وَمِنْهُمْ مَنْ
يُؤْمِنُ بِهِ وَمِنْهُمْ مَنْ لَا يُؤْمِنُ بِهِ وَرَبُّكَ أَعْلَمُ بِالْمُفْسِدِينَ (40)

غريب الكلمات:

تَأْوِيلُهُ: أي: عاقِبتُه، وما يَؤُولُ إليه، ووقوعُ ما أخبَرَ به، وأصلُ (أول) هنا: يدُلُّ على انتِهاءِ الأمرِ.

عَاقِبَةُ: عاقبةُ كلِّ شيءٍ: آخرُه، أو: ما يُؤدِّي إليه السببُ المتقدِّمُ، والعاقبةُ تختصُّ بالثوابِ إذا أُطْلِقتْ، وقد تُستعمَلُ في العقوبةِ إذا أُضيفَتْ، وأصلُ (عقب): تأخيرُ شيءٍ، وإتيانُه بعدَ غيرِه.

تفسير الآيات:

وَمَا كَانَ هَـٰذَا الْقُرْآنُ أَن يُفْتَرَى مِن دُونِ اللّهِ وَلَكِن تَصْدِيقَ الَّذِي بَيْنَ يَدَيْهِ وَتَفْصِيلَ الْكِتَابِ لاَ رَيْبَ فِيهِ مِن رَّبِّ الْعَالَمِينَ (37).

وَمَا كَانَ هَـٰذَا الْقُرْآنُ أَن يُفْتَرَى مِن دُونِ اللّهِ.

أي: ما يَنْبغي لهذا القرآنِ أن يختلِقَه أحدٌ مِن الخلقِ على الله، ولا يمكنُ أن يكونَ إِلَّا مِن عندِ اللَّهِ.

وَلَكِن تَصْدِيقَ الَّذِي بَيْنَ يَدَيْهِ.

أي: ولكِنْ أنزَلَه الله مُصَدِّقًا للكتُبِ السَّابقةِ التي أنزَلَها على أنبيائِه.

كما قال تعالى: وَأَنْزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ مُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ الْكِتَابِ وَمُهَيْمِنًا عَلَيْهِ [المائدة: 48].

وَتَفْصِيلَ الْكِتَابِ.

أي: وتبيانًا لِما كتَبَه اللهُ على أُمَّةِ محمَّدٍ صلَّى الله عليه وسلَّم مِن الفرائِضِ والأحكامِ، والعقائِدِ والأخبارِ.

كما قال تعالى: مَا كَانَ حَدِيثًا يُفْتَرَى وَلَكِنْ تَصْدِيقَ الَّذِي بَيْنَ يَدَيْهِ وَتَفْصِيلَ كُلِّ شَيْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ [يوسف: 111].

وقال سبحانه: وَنَزَّلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ تِبْيَانًا لِكُلِّ شَيْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً وَبُشْرَى لِلْمُسْلِمِينَ [النحل: 89].

لاَ رَيْبَ فِيهِ مِن رَّبِّ الْعَالَمِينَ.

أي: لا شكَّ في أنَّ القُرآنَ مِن عندِ اللهِ رَبِّ العالَمينَ وليس كلامَ غيرِه.

كما قال تعالى: ذَلِكَ الْكِتَابُ لَا رَيْبَ فِيهِ [البقرة: 2].

وقال سُبحانه: تَنْزِيلُ الْكِتَابِ لَا رَيْبَ فِيهِ مِنْ رَبِّ الْعَالَمِينَ [السجدة: 2].

أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَاهُ قُلْ فَأْتُواْ بِسُورَةٍ مِّثْلِهِ وَادْعُواْ مَنِ اسْتَطَعْتُم مِّن دُونِ اللّهِ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ (38).

أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَاهُ.

أي: أم يقولُ المُشرِكونَ المُكَذِّبونَ: اختلَقَ مُحَمَّدٌ القُرآنَ مِن نَفسِه، وكَذَبَ على اللهِ؟!

قُلْ فَأْتُواْ بِسُورَةٍ مِّثْلِهِ.

أي: قُلْ- يا مُحَمَّدُ- للمُشرِكينَ: إنْ كنتُ قد افترَيتُ هذا القُرآنَ- كما تَزعُمونَ- فأنتم عرَبٌ مِثلي، فأْتُوا بسُورةٍ واحدةٍ مِن جنسِ القُرآنِ.

كما قال تعالى: وَإِنْ كُنْتُمْ فِي رَيْبٍ مِمَّا نَزَّلْنَا عَلَى عَبْدِنَا فَأْتُوا بِسُورَةٍ مِنْ مِثْلِهِ وَادْعُوا شُهَدَاءَكُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ * فَإِنْ لَمْ تَفْعَلُوا وَلَنْ تَفْعَلُوا فَاتَّقُوا النَّارَ الَّتِي وَقُودُهَا النَّاسُ وَالْحِجَارَةُ أُعِدَّتْ لِلْكَافِرِينَ [البقرة: 23، 24].

وَادْعُواْ مَنِ اسْتَطَعْتُم مِّن دُونِ اللّهِ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ.

أي: وادْعُوا– أيُّها المُشرِكونَ– مَن قَدَرتُم أن تَدْعُوه مِن شُرَكائِكم وأولِيائِكم؛ لِيُعينوكم على المجيءِ بسُورةٍ واحدةٍ مِثلِ سُوَرِ القُرآنِ، إن كُنتُم صادِقينَ في زَعمِكم أنِّي افتريتُ القُرآنَ.

كما قال تعالى: قُلْ لَئِنِ اجْتَمَعَتِ الْإِنْسُ وَالْجِنُّ عَلَى أَنْ يَأْتُوا بِمِثْلِ هَذَا الْقُرْآنِ لَا يَأْتُونَ بِمِثْلِهِ وَلَوْ كَانَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيرًا [الإسراء: 88].

بَلْ كَذَّبُواْ بِمَا لَمْ يُحِيطُواْ بِعِلْمِهِ وَلَمَّا يَأْتِهِمْ تَأْوِيلُهُ كَذَلِكَ كَذَّبَ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ فَانظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الظَّالِمِينَ (39).

بَلْ كَذَّبُواْ بِمَا لَمْ يُحِيطُواْ بِعِلْمِهِ.

أي: بل كذَّب المُشرِكونَ بالقُرآنِ الذي لم يُحيطوا بعِلمِ ما فيه مِنَ الحَقّ، ولم يَفهَموه.(46)

كما قال تعالى: حَتَّى إِذَا جَاءُوا قَالَ أَكَذَّبْتُمْ بِآيَاتِي وَلَمْ تُحِيطُوا بِهَا عِلْمًا أَمَّاذَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ [النمل: 84].

وقال سبحانه: وَإِذْ لَمْ يَهْتَدُوا بِهِ فَسَيَقُولُونَ هَذَا إِفْكٌ قَدِيمٌ [الأحقاف: 11].

وَلَمَّا يَأْتِهِمْ تَأْوِيلُهُ.

أي: ولَمْ يأتِهم بعدُ حَقيقةُ ما وُعِدوا في الكِتابِ، بما يَؤُولُ إليه أمْرُهم مِن العُقوبةِ، ونزولِ العذابِ.

كما قال تعالى: هَلْ يَنْظُرُونَ إِلَّا تَأْوِيلَهُ يَوْمَ يَأْتِي تَأْوِيلُهُ يَقُولُ الَّذِينَ نَسُوهُ مِنْ قَبْلُ قَدْ جَاءَتْ رُسُلُ رَبِّنَا بِالْحَقِّ فَهَلْ لَنَا مِنْ شُفَعَاءَ فَيَشْفَعُوا لَنَا أَوْ نُرَدُّ فَنَعْمَلَ غَيْرَ الَّذِي كُنَّا نَعْمَلُ قَدْ خَسِرُوا أَنْفُسَهُمْ وَضَلَّ عَنْهُمْ مَا كَانُوا يَفْتَرُونَ [الأعراف: 53].

(46) قال ابنُ عطية (٤/ ٤٨٤): «﴿بَلْ كَذَّبُوا بِمَا لَمْ يُحِيطُوا بِعِلْمِهِ﴾، وهذا اللفظ يحتمل معنيين: أحدهما: أن يريد به الوعيد الذي توعدهم الله – عز وجل – على الكفر، وتأويله –على هذا– يراد به ما يؤول إليه أمره، كما هو في قوله: ﴿هَلْ يَنْظُرُونَ إِلَّا تَأْوِيلَهُ﴾ [الأعراف: ٥٣]، والآية بجملتها على هذا التأويل تتضمن وعيدًا.
والمعنى الثاني: أنّه أراد: بل كذبوا بهذا القرآن العظيم المُنبِئ بالغيوب الذي لم تَتَقَدَّم لهم به معرفة، ولا أحاطوا بعلم غيوبه، وحسن نظمه، ولا جاءهم تفسير ذلك وبيانه».

كَذَلِكَ كَذَّبَ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ.

أي: كما كذَّب المُشرِكون باِلحقِّ، كذلك كذَّبَ المُشرِكونَ مِن الأُمَمِ الماضيةِ بالحَقِّ الذي جاءَهم مِن اللهِ تعالى.

كما قال تعالى: وَإِنْ يُكَذِّبُوكَ فَقَدْ كَذَّبَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ جَاءَتْهُمْ رُسُلُهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ وَبِالزُّبُرِ وَبِالْكِتَابِ الْمُنِيرِ * ثُمَّ أَخَذْتُ الَّذِينَ كَفَرُوا فَكَيْفَ كَانَ نَكِيرِ [فاطر: 25– 26].

فَانظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الظَّالِمِينَ.

أي: فانظُرْ– يا مُحمَّدُ– كيف كانت نهايةُ المكذِّبينَ بآياتِ اللهِ مِن الأُمَمِ الماضية؛ أهلَكْناهم، وسنُهلِكُ كذلك الظَّالِمينَ المكَذِّبينَ مِن هذه الأمَّةِ، فلا تحسبَنَّهم يُفلِتون منَّا.

كما قال تعالى: أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَيَنْظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ دَمَّرَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ وَلِلْكَافِرِينَ أَمْثَالُهَا [محمد: 10].

وقال سُبحانه: أَلَمْ نُهْلِكِ الْأَوَّلِينَ * ثُمَّ نُتْبِعُهُمُ الْآخِرِينَ * كَذَلِكَ نَفْعَلُ بِالْمُجْرِمِينَ * وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِلْمُكَذِّبِينَ [المرسلات: 16 – 19].

وَمِنهُم مَّن يُؤْمِنُ بِهِ وَمِنْهُم مَّن لاَّ يُؤْمِنُ بِهِ وَرَبُّكَ أَعْلَمُ بِالْمُفْسِدِينَ (40).

وَمِنهُم مَّن يُؤْمِنُ بِهِ وَمِنْهُم مَّن لاَّ يُؤْمِنُ بِهِ.

أي: ومِنَ المُشرِكِينَ مَن سَيُؤمِنُ بالقُرآنِ، ويتوبُ مِن الكُفرِ، ومِنهم مَن لا يُؤمِنُ بالقُرآنِ أبدًا، ويستمِرُّ على كُفرِه حتى يموتَ.[47]

وَرَبُّكَ أَعْلَمُ بِالْمُفْسِدِينَ.

أي: وربُّك– يا مُحمَّدُ– أعلَمُ بالمكذِّبينَ، ومَن يبقَى منهم مُصِرًّا على الكُفرِ، فيُجازيهم بأعمالِهم.

كما قال تعالى: فَإِنْ تَوَلَّوْا فَإِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ بِالْمُفْسِدِينَ [آل عمران: 63].

---

(47) ذكر ابنُ عطية (٤/ ٤٨٥) أنّ الضمير في قوله: ﴿ومنهم﴾ عائد على قريش، ثم قال: «ولهذا الكلام معنيان: قالت فرقة: معناه: مِن هؤلاء القوم مَن سيؤمن في المستقبل، ومِنهم مَن حَتَمَ الله أنّه لا يؤمن به أبدًا.

وقالت فرقة: معناه: مِن هؤلاء القوم مَن هو مؤمن بهذا الرسول إلا أنّه يكتم إيمانه وعلمَه بأنّ نبوة محمد – ﷺ – وإعجاز القرآن حق؛ حفظًا لرياسته، أو خوفًا من قومه».

ثم علَّق بقوله: «وفائدة الآية على هذا التأويل التفرق لكلمة الكفار، وإضعاف نفوسهم، وأن يكون بعضهم على وجَلٍ من بعض».

سُورةُ يُونُس

الآيات (41–44)

وَإِنْ كَذَّبُوكَ فَقُلْ لِي عَمَلِي وَلَكُمْ عَمَلُكُمْ أَنْتُمْ بَرِيئُونَ مِمَّا أَعْمَلُ وَأَنَا بَرِيءٌ مِمَّا تَعْمَلُونَ (41) وَمِنْهُمْ مَنْ يَسْتَمِعُونَ إِلَيْكَ أَفَأَنْتَ تُسْمِعُ الصُّمَّ وَلَوْ كَانُوا لَا يَعْقِلُونَ (42) وَمِنْهُمْ مَنْ يَنْظُرُ إِلَيْكَ أَفَأَنْتَ تَهْدِي الْعُمْيَ وَلَوْ كَانُوا لَا يُبْصِرُونَ (43) إِنَّ اللَّهَ لَا يَظْلِمُ النَّاسَ شَيْئًا وَلَكِنَّ النَّاسَ أَنْفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ (44)

تفسير الآيات:

وَإِن كَذَّبُوكَ فَقُل لِّي عَمَلِي وَلَكُمْ عَمَلُكُمْ أَنتُمْ بَرِيئُونَ مِمَّا أَعْمَلُ وَأَنَاْ بَرِيءٌ مِّمَّا تَعْمَلُونَ

(41).

وَإِن كَذَّبُوكَ فَقُل لِّي عَمَلِي وَلَكُمْ عَمَلُكُمْ.

أي: وإنْ كذَّبَك- يا مُحمَّدُ- المُشرِكونَ، ولم يُؤمِنوا بما جئتَهم به من الحقِّ، فقل لهم: لي عملي الذي سيُجازيني اللهُ به، ولكم عَمَلُكم الذي سيُجازيكم اللهُ عليه.

كما قال سبحانه: اللَّهُ رَبُّنَا وَرَبُّكُمْ لَنَا أَعْمَالُنَا وَلَكُمْ أَعْمَالُكُمْ لَا حُجَّةَ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمُ اللَّهُ يَجْمَعُ بَيْنَنَا وَإِلَيْهِ الْمَصِيرُ [الشورى: 15].

وقال تعالى: قُلْ أَتُحَاجُّونَنَا فِي اللَّهِ وَهُوَ رَبُّنَا وَرَبُّكُمْ وَلَنَا أَعْمَالُنَا وَلَكُمْ أَعْمَالُكُمْ وَنَحْنُ لَهُ مُخْلِصُونَ [البقرة: 139].

أَنتُمْ بَرِيئُونَ مِمَّا أَعْمَلُ وَأَنَاْ بَرِيءٌ مِّمَّا تَعْمَلُونَ.

أي: وقُلْ- يا مُحمَّدُ- للمُشرِكينَ: لا تُؤاخَذونَ بِجَريرةِ أعمالي، ولا أُؤاخَذُ بجَريرةِ أعمالِكم.

كما قال تعالى: قُلْ يَا أَيُّهَا الْكَافِرُونَ * لَا أَعْبُدُ مَا تَعْبُدُونَ * وَلَا أَنْتُمْ عَابِدُونَ مَا أَعْبُدُ * وَلَا أَنَا عَابِدٌ مَا عَبَدْتُمْ * وَلَا أَنْتُمْ عَابِدُونَ مَا أَعْبُدُ * لَكُمْ دِينُكُمْ وَلِيَ دِينِ [الكافرون: 1 – 6].

وقال سُبحانه: قُلْ لَا تُسْأَلُونَ عَمَّا أَجْرَمْنَا وَلَا نُسْأَلُ عَمَّا تَعْمَلُونَ [سبأ: 25].

وَمِنْهُم مَّن يَسْتَمِعُونَ إِلَيْكَ أَفَأَنتَ تُسْمِعُ الصُّمَّ وَلَوْ كَانُواْ لاَ يَعْقِلُونَ (42).

وَمِنْهُم مَّن يَسْتَمِعُونَ إِلَيْكَ.

أي: ومِن الكُفَّارِ مَن يستَمِعُ إلى تلاوتِك للقرآنِ وحديثِك- يا مُحَمَّدُ- وقلوبُهم غافلةٌ، لا ينتَفِعونَ بسَماعِهم ذلك.

كما قال تعالى: وَمِنْهُمْ مَنْ يَسْتَمِعُ إِلَيْكَ وَجَعَلْنَا عَلَى قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً أَنْ يَفْقَهُوهُ وَفِي آذَانِهِمْ وَقْرًا [الأنعام: 25].

وقال سُبحانه: وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ ذُكِّرَ بِآيَاتِ رَبِّهِ فَأَعْرَضَ عَنْهَا وَنَسِيَ مَا قَدَّمَتْ يَدَاهُ إِنَّا جَعَلْنَا عَلَى قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً أَنْ يَفْقَهُوهُ وَفِي آذَانِهِمْ وَقْرًا وَإِنْ تَدْعُهُمْ إِلَى الْهُدَى فَلَنْ يَهْتَدُوا إِذًا أَبَدًا [الكهف: 57].

أَفَأَنتَ تُسْمِعُ الصُّمَّ وَلَوْ كَانُواْ لاَ يَعْقِلُونَ.

أي: أفأنت- يا مُحَمَّدُ- تستطيعُ أن تُسمِعَ الصُّمَّ، وخصوصًا إذا كانوا مع صَمَمِهم جُهَّالًا، لا عَقلَ لهم؟! فكذلك لا تقدِرُ على جَعلِ الكُفَّارِ ينتَفِعونَ بالسَّماعِ منك.

كما قال تعالى: وَلَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ قَالُوا سَمِعْنَا وَهُمْ لَا يَسْمَعُونَ * إِنَّ شَرَّ الدَّوَابِّ عِنْدَ اللَّهِ الصُّمُّ الْبُكْمُ الَّذِينَ لَا يَعْقِلُونَ * وَلَوْ عَلِمَ اللَّهُ فِيهِمْ خَيْرًا لَأَسْمَعَهُمْ وَلَوْ أَسْمَعَهُمْ لَتَوَلَّوْا وَهُمْ مُعْرِضُونَ [الأنفال: 21 – 23].

وقال سُبحانه: وَإِذَا قَرَأْتَ الْقُرْآنَ جَعَلْنَا بَيْنَكَ وَبَيْنَ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ حِجَابًا مَسْتُورًا [الإسراء: 45].

وقال عزَّ وجلَّ: إِنَّكَ لَا تُسْمِعُ الْمَوْتَى وَلَا تُسْمِعُ الصُّمَّ الدُّعَاءَ إِذَا وَلَّوْا مُدْبِرِينَ [النمل: 80].

وَمِنهُم مَّن يَنظُرُ إِلَيْكَ أَفَأَنتَ تَهْدِي الْعُمْيَ وَلَوْ كَانُواْ لاَ يُبْصِرُونَ (43).

وَمِنهُم مَّن يَنظُرُ إِلَيْكَ.

أي: ومِن الكُفَّارِ مَن ينظُرُ إليك– يا مُحمَّدُ– ولا ينتَفِعونَ بذلك النَّظَرِ.

كما قال تعالى: وَإِذَا رَأَوْكَ إِنْ يَتَّخِذُونَكَ إِلَّا هُزُوًا أَهَذَا الَّذِي بَعَثَ اللَّهُ رَسُولًا * إِنْ كَادَ لَيُضِلُّنَا عَنْ آلِهَتِنَا لَوْلَا أَنْ صَبَرْنَا عَلَيْهَا وَسَوْفَ يَعْلَمُونَ حِينَ يَرَوْنَ الْعَذَابَ مَنْ أَضَلُّ سَبِيلًا [الفرقان: 41–42].

أَفَأَنتَ تَهْدِي الْعُمْيَ وَلَوْ كَانُواْ لاَ يُبْصِرُونَ.

أي: أفأنتَ– يا مُحمَّدُ– تستطيعُ أن تُرشِدَ العُمْيَ الذين لا بَصرَ لهم ينتَفِعونَ به، وخصوصًا إذا انضَمَّ إلى ذلك فقدُ البَصيرةِ؟! فكذلك لا تَقدِرُ على هدايةِ الكُفَّارِ الذين عَمِيَت قلوبُهم عن رؤيةِ الحَقِّ.

كما قال تعالى: فَإِنَّهَا لَا تَعْمَى الْأَبْصَارُ وَلَكِنْ تَعْمَى الْقُلُوبُ الَّتِي فِي الصُّدُورِ [الحج: 46].

وقال سُبحانه: وَمَا أَنْتَ بِهَادِي الْعُمْيِ عَنْ ضَلَالَتِهِمْ [النمل: 81].

إِنَّ اللهَ لاَ يَظْلِمُ النَّاسَ شَيْئًا وَلَكِنَّ النَّاسَ أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ (44).

إِنَّ اللهَ لاَ يَظْلِمُ النَّاسَ شَيْئًا.

أي: إنَّ اللهَ لا يفعلُ بخلقِه ما لا يستحقُّون منه؛ فلا يسلبُ أحدًا الإيمانَ، ولا يصرفُه عن الهدَى إلَّا إذا استحقَّ ذلك؛ لكمالِ علمِه سبحانَه وحكمتِه وعدلِه، وأيضًا فهو لا يعُاقِبُ مَن لم يستوجِبِ العقابَ، ولا يزيدُ في سَيِّئاتِ المُسيئينَ، ولا يَنقُصُ مِن حَسَناتِ المُحسِنينَ.

كما قال تعالى: وَمَا رَبُّكَ بِظَلَّامٍ لِلْعَبِيدِ [فصلت: 46].

وعن أبي ذرٍّ رَضِيَ الله عنه، عن النبيِّ - ﷺ - فيما روى عن اللهِ تبارك وتعالى، أنَّه قال: ((يا عبادِي، إنِّي حرَّمتُ الظُّلمَ على نفسِي، وجَعَلتُه بينكم مُحرَّمًا، فلا تَظَالَموا)).(48)

وَلَكِنَّ النَّاسَ أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ.

أي: ولكنَّ النَّاسَ هم الذينَ يَظلِمونَ أنفُسَهم، ويضُرُّونَها بكُفرِهم باللهِ ومَعصيتِه، فيستَحِقُّونَ عقابَه، ولا يضرُّونَ اللهَ شَيئًا.

كما قال تعالى: فَمَا كَانَ اللَّهُ لِيَظْلِمَهُمْ وَلَكِنْ كَانُوا أَنْفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ [التوبة: 70].

(48) رواه مسلم (2577).

سُورةُ يُونُس

الآيات (45–47)

وَيَوْمَ يَحْشُرُهُمْ كَأَنْ لَمْ يَلْبَثُوا إِلَّا سَاعَةً مِنَ النَّهَارِ يَتَعَارَفُونَ بَيْنَهُمْ قَدْ خَسِرَ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِلِقَاءِ اللَّهِ وَمَا كَانُوا مُهْتَدِينَ (45) وَإِمَّا نُرِيَنَّكَ بَعْضَ الَّذِي نَعِدُهُمْ أَوْ نَتَوَفَّيَنَّكَ فَإِلَيْنَا مَرْجِعُهُمْ ثُمَّ اللَّهُ شَهِيدٌ عَلَى مَا يَفْعَلُونَ (46) وَلِكُلِّ أُمَّةٍ رَسُولٌ فَإِذَا جَاءَ رَسُولُهُمْ قُضِيَ بَيْنَهُمْ بِالْقِسْطِ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ (47)

تفسير الآيات:

وَيَوْمَ يَحْشُرُهُمْ كَأَن لَّمْ يَلْبَثُواْ إِلاَّ سَاعَةً مِّنَ النَّهَارِ يَتَعَارَفُونَ بَيْنَهُمْ قَدْ خَسِرَ الَّذِينَ كَذَّبُواْ بِلِقَاء اللّهِ وَمَا كَانُواْ مُهْتَدِينَ (45).

وَيَوْمَ يَحْشُرُهُمْ كَأَن لَّمْ يَلْبَثُواْ إِلاَّ سَاعَةً مِّنَ النَّهَارِ.

أي: ويومَ يَجمَعُ اللهُ الكافرينَ في موقفِ الحِسابِ، فيَستقِلُّون حِينذاك مُدَّةَ مُكثِهم في الدُّنيا، كأنَّهم لم يَعيشوا فيها إلَّا ساعةً مِن نَهارٍ!

كما قال تعالى: قَالَ كَمْ لَبِثْتُمْ فِي الْأَرْضِ عَدَدَ سِنِينَ * قَالُوا لَبِثْنَا يَوْمًا أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ فَاسْأَلِ الْعَادِّينَ * قَالَ إِنْ لَبِثْتُمْ إِلَّا قَلِيلًا لَوْ أَنَّكُمْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ [المؤمنون: 112–114].

وقال سبحانه: يَوْمَ يُنْفَخُ فِي الصُّورِ وَنَحْشُرُ الْمُجْرِمِينَ يَوْمَئِذٍ زُرْقًا * يَتَخَافَتُونَ بَيْنَهُمْ إِنْ لَبِثْتُمْ إِلَّا عَشْرًا * نَحْنُ أَعْلَمُ بِمَا يَقُولُونَ إِذْ يَقُولُ أَمْثَلُهُمْ طَرِيقَةً إِنْ لَبِثْتُمْ إِلَّا يَوْمًا [طه: 102–104].

وقال عزَّ وجلَّ: وَيَوْمَ تَقُومُ السَّاعَةُ يُقْسِمُ الْمُجْرِمُونَ مَا لَبِثُوا غَيْرَ سَاعَةٍ كَذَلِكَ كَانُوا يُؤْفَكُونَ * وَقَالَ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ وَالْإِيمَانَ لَقَدْ لَبِثْتُمْ فِي كِتَابِ اللَّهِ إِلَى يَوْمِ الْبَعْثِ فَهَذَا يَوْمُ الْبَعْثِ وَلَكِنَّكُمْ كُنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ [الروم: 55–56].

وقال سُبحانه: كَأَنَّهُمْ يَوْمَ يَرَوْنَهَا لَمْ يَلْبَثُوا إِلَّا عَشِيَّةً أَوْ ضُحَاهَا [النازعات: 46].

يَتَعَارَفُونَ بَيْنَهُمْ.

أي: يَعرِفُ النَّاسُ بَعضُهم بعضًا يومَ القيامةِ، كما كانوا في الدُّنيا يَعرِفونَ بَعضَهم.(49)

قَدْ خَسِرَ الَّذِينَ كَذَّبُواْ بِلِقَاء اللهِ وَمَا كَانُواْ مُهْتَدِينَ.

أي: قد خَسِرَ ثوابَ اللهِ وجَنَّته الجاحِدونَ لِلِقاءِ اللهِ، يومَ القيامةِ، فاستحَقُّوا دخولَ النَّارِ، وما كانوا موفَّقِينَ للحَقّ بتكذيبِهم بالبَعثِ بعدَ المَوتِ.

---

(49) قال الزجاج: (وفي معرفةِ بَعضِهم بعضًا، وعِلمِ بَعضِهم بإضلالِ بَعضٍ، التوبيخُ لهم، وإثباتُ الحجَّةِ عليهم).

((معاني القرآن)) (22/3).

قال ابنُ عطيةَ: (وأما قوله: يَتَعَارَفُونَ فيحتملُ أن يكونَ معادلة لقولِه: وَيَوْمَ يَحْشُرُهُمْ كأنَّه أخبرَ أنَّهم يومَ الحشرِ يَتعارَفونَ، وهذا التعارفُ على جهةِ التلاومِ والخزي مِن بعضِهم لبعضٍ، ويحتملُ أن يكونَ في موضعِ الحالِ مِن الضميرِ في يَحْشُرُهُمْ، ويكونُ معنى التعارفِ كالذي قبلَه، ويحتملُ أن يكونَ حالًا مِن الضميرِ في يَلْبَثُوا، ويكونُ التعارفُ في الدُّنيا، ويجيءُ معنَى الآيةِ: ويومَ نحشرُهم للقيامةِ فتنقطعُ المعرفةُ بينَهم والأسبابُ، ويصيرُ تعارفُهم في الدُّنيا كساعةٍ مِن النَّهارِ لا قدرَ لها).

((تفسير ابن عطية)) (123/3).

ذكر ابنُ عطية (٤/ ٤٨٧) في قوله: ﴿يتعارفون﴾ احتمالات، فقال: «وأمّا قوله: ﴿يتعارفون﴾ فيحتمل أن يكون معادلة لقوله: ﴿ويوم يحشرهم﴾، كأنّه أخبر أنهم يوم الحشر يتعارفون، وهذا التعارف على جهة التلاوم والخزي من بعضهم لبعض.

ويحتمل أن يكون في موضع الحال من الضمير في ﴿يحشرهم﴾، ويكون معنى التعارف كالذي قبله.

ويحتمل أن يكون حالًا من الضمير في ﴿يلبثوا﴾، ويكون التعارف في الدنيا، ويجيء معنى الآية: ويوم نحشرهم للقيامة فتنقطع المعرفة بينهم والأسباب، ويصير تعارفهم في الدنيا كساعةٍ من النهار لا قَدْر لها».

وَإِمَّا نُرِيَنَّكَ بَعْضَ الَّذِي نَعِدُهُمْ أَوْ نَتَوَفَّيَنَّكَ فَإِلَيْنَا مَرْجِعُهُمْ ثُمَّ اللّهُ شَهِيدٌ عَلَى مَا يَفْعَلُونَ (46).

وَإِمَّا نُرِيَنَّكَ بَعْضَ الَّذِي نَعِدُهُمْ أَوْ نَتَوَفَّيَنَّكَ فَإِلَيْنَا مَرْجِعُهُمْ.

أي: وإمَّا نُعجِّلْ عُقوبةَ الكُفَّارِ في حياتِك- يا مُحمَّدُ- فترَاها، أو نُمِتْك قبل أن نُرِيَك ذلك فيهم؛ فمَصيرُهم إلينا بكلِّ حالٍ.

ثُمَّ اللّهُ شَهِيدٌ عَلَى مَا يَفْعَلُونَ.

أي: ثمَّ اللهُ شاهدٌ على ما كانوا يفعَلونَه في الدُّنيا، وسيُجازيهم به.

وَلِكُلِّ أُمَّةٍ رَّسُولٌ فَإِذَا جَاء رَسُولُهُمْ قُضِيَ بَيْنَهُم بِالْقِسْطِ وَهُمْ لاَ يُظْلَمُونَ (47).

وَلِكُلِّ أُمَّةٍ رَّسُولٌ.

أي: ولكلِّ أمَّةٍ من الأُمَمِ الماضيةِ رَسولٌ أرسَلَه اللهُ إليهم، يدعوهم إلى الإيمانِ، وعبادةِ اللهِ وَحْدَه.

فَإِذَا جَاء رَسُولُهُمْ قُضِيَ بَيْنَهُم بِالْقِسْطِ وَهُمْ لاَ يُظْلَمُونَ.

أي: فإذا أتَى الأمةَ رسولُهم يومَ القيامةِ؛ لِيَشهَدَ عليهم، حَكَم اللهُ بينهم بالعَدلِ، وهو غيرُ ظالمٍ لهم.(50)

كما قال تعالى: وَأَشْرَقَتِ الْأَرْضُ بِنُورِ رَبِّهَا وَوُضِعَ الْكِتَابُ وَجِيءَ بِالنَّبِيِّينَ وَالشُّهَدَاءِ وَقُضِيَ بَيْنَهُمْ بِالْحَقِّ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ [الزمر: 69].

---

(50) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (12/188، 189)، ((تفسير القرطبي)) (8/349)، ((تفسير ابن كثير)) (4/272)، ((تفسير القاسمي)) (6/30).

وممَّن اختار هذا المعنَى المذكورَ: ابنُ جريرٍ، والقرطبيُّ، وابنُ كثيرٍ، والقاسميُّ.

يُنظر: المصادر السابقة.

وممَّن قال بهذا القولِ مِن السَّلفِ: مجاهدٌ.

يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (12/189).

وقيل: فإذا أتَى الأمةَ رسولُهم في الدُّنيا فكذَّبوه، حَكَم الله بين الرُّسُلِ وأتباعِهم وبين المكَذِّبينَ بالعَدلِ، فأنجَى عبادَه المؤمنينَ، وعذَّب الكافرينَ في الدُّنيا بعذابِ الاستئصالِ، وهو غيرُ ظالمٍ لهم، كما قال سبحانه: وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّى نَبْعَثَ رَسُولًا [الإسراء: 15].

وممَّن اختار هذا المعنى: أبو السعودِ، والشوكانيُّ، والسعديُّ، وابنُ عاشورٍ.

يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (4/151)، ((تفسير الشوكاني)) (2/511)، ((تفسير السعدي)) (ص: 365)، ((تفسير ابن عاشور)) (11/187).

وممَّن قال بهذا القولِ من السَّلفِ: الحسنُ.

يُنظر: ((تفسير ابن الجوزي)) (2/333).

سُورةُ يُونُس

الآيات (48-53)

وَيَقُولُونَ مَتَى هَذَا الْوَعْدُ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ (48) قُلْ لَا أَمْلِكُ لِنَفْسِي ضَرًّا وَلَا نَفْعًا إِلَّا مَا
شَاءَ اللَّهُ لِكُلِّ أُمَّةٍ أَجَلٌ إِذَا جَاءَ أَجَلُهُمْ فَلَا يَسْتَأْخِرُونَ سَاعَةً وَلَا يَسْتَقْدِمُونَ (49) قُلْ
أَرَأَيْتُمْ إِنْ أَتَاكُمْ عَذَابُهُ بَيَاتًا أَوْ نَهَارًا مَاذَا يَسْتَعْجِلُ مِنْهُ الْمُجْرِمُونَ (50) أَثُمَّ إِذَا مَا وَقَعَ
آمَنْتُمْ بِهِ آلْآنَ وَقَدْ كُنْتُمْ بِهِ تَسْتَعْجِلُونَ (51) ثُمَّ قِيلَ لِلَّذِينَ ظَلَمُوا ذُوقُوا عَذَابَ الْخُلْدِ
هَلْ تُجْزَوْنَ إِلَّا بِمَا كُنْتُمْ تَكْسِبُونَ (52) وَيَسْتَنْبِئُونَكَ أَحَقٌّ هُوَ قُلْ إِي وَرَبِّي إِنَّهُ لَحَقٌّ وَمَا أَنْتُمْ
بِمُعْجِزِينَ (53)

غريب الكلمات:

بَيَاتًا: أي: ليلًا، وَقتَ اشتِغالِهم بالنَّومِ، وأصلُ (بيت): يدلُّ على مأوى الإنسانِ باللَّيلِ.

وَيَسْتَنْبِئُونَكَ: أي: يَستخبِرونَك، والنبأُ: خبرٌ له شأنٌ عظيمٌ. وأصلُ (نبأ): يدلُّ على الإتيانِ من مكانٍ إلى مكانٍ.

إِي: أي: نَعَم، وهي كلمةٌ موضوعةٌ لتحقيقِ كلامٍ مُتقَدِّمٍ.

تفسير الآيات:

وَيَقُولُونَ مَتَى هَذَا الْوَعْدُ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ (48).

أي: ويقولُ المُشرِكونَ: متى سيأتينا عذابُ اللهِ إن كُنتُم- أيُّها الرَّسولُ ومَن اتَّبَعَك- صادقينَ فيما تَعِدونَنا به مِن العَذابِ؟![51]

قُل لاَّ أَمْلِكُ لِنَفْسِي ضَرًّا وَلاَ نَفْعًا إِلاَّ مَا شَاءَ اللهُ لِكُلِّ أُمَّةٍ أَجَلٌ إِذَا جَاءَ أَجَلُهُمْ فَلاَ يَسْتَأْخِرُونَ سَاعَةً وَلاَ يَسْتَقْدِمُونَ (49).

---

(51) يُنظر: ((الوجيز)) للواحدي (ص: 500)، ((تفسير ابن عطية)) (3/124)، ((تفسير ابن كثير)) (4/273)، ((تفسير السعدي)) (ص: 365)، ((تفسير ابن عاشور)) (11/189).

قيل: المرادُ بالوَعدِ: قيامُ السَّاعةِ.

وممَّن اختار ذلك: ابن جرير.

يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (12/189).

وقيل: الوعدُ المذكورُ هو ما هُدِّدوا به من عذابِ الدُّنيا.

وممَّن اختار ذلك: ابن عاشور.

يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (11/189).

وممَّن قال بنحو هذا القولِ مِن السَّلفِ ابنُ عبَّاس.

يُنظر: ((تفسير ابن الجوزي)) (2/334).

قُل لاَّ أَمْلِكُ لِنَفْسِي ضَرًّا وَلاَ نَفْعًا إِلاَّ مَا شَاء اللّهُ.

أي: قُلْ لهم- يا مُحمَّدُ-: لا أقدِرُ على ضَرِّ نَفسي ولا نَفْعِها في ديني ولا دُنياي، إلَّا ما شاء اللهُ أن أملِكَه وأقدِرَ عليه، ولستُ قادرًا على الإتيانِ بما تسألونَني عنه مِن العذابِ.

لِكُلِّ أُمَّةٍ أَجَلٌ.

أي: لكلِّ قومٍ وقتٌ محددٌ قدَّره اللهُ لانقضاءِ مُدَّتِهم.

إِذَا جَاء أَجَلُهُمْ فَلاَ يَسْتَأْخِرُونَ سَاعَةً وَلاَ يَسْتَقْدِمُونَ.

أي: إذا جاء وقتُ انقضاءِ أجَلِ كلِّ أمةٍ، فلا يُؤخَّرونَ عن ذلك الوَقتِ الذي قدَّرَه اللهُ لهلاكِهم ساعةً، ولا يتقدَّم أجَلُهم عنه.

كما قال تعالى: مَا تَسْبِقُ مِنْ أُمَّةٍ أَجَلَهَا وَمَا يَسْتَأْخِرُونَ [الحجر: 5].

قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ أَتَاكُمْ عَذَابُهُ بَيَاتًا أَوْ نَهَارًا مَّاذَا يَسْتَعْجِلُ مِنْهُ الْمُجْرِمُونَ (50).

قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ أَتَاكُمْ عَذَابُهُ بَيَاتًا أَوْ نَهَارًا.

أي: قُلْ- يا محمَّدُ- للمُشرِكينَ: أخبِروني إن أتاكم عذابُ اللهِ ليلًا، وقتَ نَومِكم، أو نهارًا، وقتَ اشتغالِكم بمَعاشِكم.

مَّاذَا يَسْتَعْجِلُ مِنْهُ الْمُجْرِمُونَ.

أي: أيَّ شيءٍ يَستعجِلُ المُشركونَ مِن العذابِ إلا الشَّرَّ الذي لا يستطيعونَ دَفْعَه عن أنفُسِهم؟

أَثُمَّ إِذَا مَا وَقَعَ آمَنْتُم بِهِ آلآنَ وَقَدْ كُنتُم بِهِ تَسْتَعْجِلُونَ (51).

أَثُمَّ إِذَا مَا وَقَعَ آمَنْتُم بِهِ.

أي: أإذا نزَلَ عذابُ اللهِ بكم- أيُّها المُشرِكونَ- آمَنتُم به حين لا ينفَعُكم الإيمانُ؟!

قال سبحانه: فَلَمَّا رَأَوْا بَأْسَنَا قَالُوا آمَنَّا بِاللَّهِ وَحْدَهُ وَكَفَرْنَا بِمَا كُنَّا بِهِ مُشْرِكِينَ * فَلَمْ يَكُ يَنْفَعُهُمْ إِيمَانُهُمْ لَمَّا رَأَوْا بَأْسَنَا سُنَّتَ اللَّهِ الَّتِي قَدْ خَلَتْ فِي عِبَادِهِ وَخَسِرَ هُنَالِكَ الْكَافِرُونَ [غافر: 84-85].

آلآنَ وَقَدْ كُنتُم بِهِ تَسْتَعْجِلُونَ.

أي: آلآنَ تُؤمِنونَ- أيُّها المُشرِكونَ- بعد أن وقَعَ بكم العذابُ، وقد كنتُم قبل مجيئِه تَستعجِلونه مُكذِّبينَ به؟

كما قال تعالى عن فِرعونَ لَمَّا أدركَه الغَرَقُ: حَتَّى إِذَا أَدْرَكَهُ الْغَرَقُ قَالَ آمَنْتُ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا الَّذِي آمَنَتْ بِهِ بَنُو إِسْرَائِيلَ وَأَنَا مِنَ الْمُسْلِمِينَ * آلْآنَ وَقَدْ عَصَيْتَ قَبْلُ وَكُنْتَ مِنَ الْمُفْسِدِينَ [يونس: 90-91].

ثُمَّ قِيلَ لِلَّذِينَ ظَلَمُواْ ذُوقُواْ عَذَابَ الْخُلْدِ هَلْ تُجْزَوْنَ إِلاَّ بِمَا كُنتُمْ تَكْسِبُونَ (52).

ثُمَّ قِيلَ لِلَّذِينَ ظَلَمُواْ ذُوقُواْ عَذَابَ الْخُلْدِ.

أي: ثمَّ يُقالُ يومَ القيامةِ للَّذين ظَلَموا أنفُسَهم بالكُفرِ بالله: تجرَّعوا العَذابَ الدَّائمَ الذي لا ينقَطِعُ.

هَلْ تُجْزَوْنَ إِلاَّ بِمَا كُنتُمْ تَكْسِبُونَ.

أي: يُقالُ للذينَ ظَلَموا: هل يُجازيكم اللهُ إلَّا بما كُنتُم تعملونَ في الدُّنيا من الكُفرِ والتَّكذيبِ والمعاصي؟

كما قال تعالى: يَوْمَ يُدَعُّونَ إِلَى نَارِ جَهَنَّمَ دَعًّا * هَذِهِ النَّارُ الَّتِي كُنْتُمْ بِهَا تُكَذِّبُونَ * أَفَسِحْرٌ هَذَا أَمْ أَنْتُمْ لَا تُبْصِرُونَ * اصْلَوْهَا فَاصْبِرُوا أَوْ لَا تَصْبِرُوا سَوَاءٌ عَلَيْكُمْ إِنَّمَا تُجْزَوْنَ مَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ [الطور: 13 – 16].

وقال سُبحانه: إِنَّ جَهَنَّمَ كَانَتْ مِرْصَادًا * لِلطَّاغِينَ مَآبًا * لَابِثِينَ فِيهَا أَحْقَابًا * لَا يَذُوقُونَ فِيهَا بَرْدًا وَلَا شَرَابًا * إِلَّا حَمِيمًا وَغَسَّاقًا * جَزَاءً وِفَاقًا * إِنَّهُمْ كَانُوا لَا يَرْجُونَ حِسَابًا * وَكَذَّبُوا بِآيَاتِنَا كِذَّابًا * وَكُلَّ شَيْءٍ أَحْصَيْنَاهُ كِتَابًا * فَذُوقُوا فَلَنْ نَزِيدَكُمْ إِلَّا عَذَابًا [النبأ: 21 – 30].

وَيَسْتَنبِئُونَكَ أَحَقٌّ هُوَ قُلْ إِي وَرَبِّي إِنَّهُ لَحَقٌّ وَمَا أَنتُمْ بِمُعْجِزِينَ (53).

وَيَسْتَنبِئُونَكَ أَحقٌّ هُوَ.

أي: ويَستخبِرُك المُشرِكونَ– يا محمَّدُ– فيقولونَ لك: أحقٌّ ما تَعِدُنا به؟

قُلْ إِي وَرَبِّي إِنَّهُ لَحَقٌّ وَمَا أَنتُمْ بِمُعْجِزِينَ.

أي: قُلْ لهم– يا محمَّدُ–: نعَمْ، وأُقسِمُ بربِّي إنَّ ما وعَدْتُكم به لَحَقٌّ واقعٌ، لا شكَّ فيه، وما أنتم بفائِتِي اللهِ؛ فهو قادرٌ عليكم.

سُورةُ يُونُس

الآيات (54-56)

وَلَوْ أَنَّ لِكُلِّ نَفْسٍ ظَلَمَتْ مَا فِي الْأَرْضِ لَافْتَدَتْ بِهِ وَأَسَرُّوا النَّدَامَةَ لَمَّا رَأَوُا الْعَذَابَ وَقُضِيَ بَيْنَهُمْ بِالْقِسْطِ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ (54) أَلَا إِنَّ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ أَلَا إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ (55) هُوَ يُحْيِي وَيُمِيتُ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ (56)

تفسير الآيات:

وَلَوْ أَنَّ لِكُلِّ نَفْسٍ ظَلَمَتْ مَا فِي الأَرْضِ لاَفْتَدَتْ بِهِ وَأَسَرُّواْ النَّدَامَةَ لَمَّا رَأَوُاْ الْعَذَابَ وَقُضِيَ بَيْنَهُم بِالْقِسْطِ وَهُمْ لاَ يُظْلَمُونَ (54).

وَلَوْ أَنَّ لِكُلِّ نَفْسٍ ظَلَمَتْ مَا فِي الأَرْضِ لاَفْتَدَتْ بِهِ.

أي: ولو أنَّ لكُلِّ نَفسٍ كفَرَت باللهِ، جميعَ ما في الأرضِ، لبَذَلَت ذلك يومَ القيامةِ- لو كان يُقبَلُ منها- لتفتَدِيَ به من عذابِ اللهِ.

كما قال تعالى: إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا وَمَاتُوا وَهُمْ كُفَّارٌ فَلَنْ يُقْبَلَ مِنْ أَحَدِهِمْ مِلْءُ الْأَرْضِ ذَهَبًا وَلَوِ افْتَدَى بِهِ أُولَئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ وَمَا لَهُمْ مِنْ نَاصِرِينَ [آل عمران: 91].

وَأَسَرُّواْ النَّدَامَةَ لَمَّا رَأَوُاْ الْعَذَابَ.

أي: وأخفَى الكُفَّارُ الحَسرةَ والتأسُّفَ على كُفرِهم حين رأَوْا عذابَ اللهِ يومَ القيامةِ، واستيقَنوا أنَّه واقعٌ بهم.

وَقُضِيَ بَيْنَهُم بِالْقِسْطِ وَهُمْ لاَ يُظْلَمُونَ.

أي: وقضَى اللهُ بينَ الكُفَّارِ بالعَدلِ، وهو غيرُ ظالمٍ لهم.

أَلا إِنَّ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ أَلاَ إِنَّ وَعْدَ اللهِ حَقٌّ وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لاَ يَعْلَمُونَ (55).

أَلا إِنَّ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ.

أي: أَلَا إنَّ لِلَّهِ وَحْدَه جميعَ ما في السَّمواتِ والأرضِ، فلا مانعَ يَمنَعُه من إنفاذِ حُكمِه.

أَلاَ إِنَّ وَعْدَ اللهِ حَقٌّ وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لاَ يَعْلَمُونَ.

أي: ألا إنَّ وعدَ اللهِ حقٌّ لا محالةَ، ولكنَّ أكثرَ أولئك المُشرِكينَ لا يعلمونَ ذلك، فهم به يُكذِّبونَ.

هُوَ يُحْيِي وَيُمِيتُ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ (56).

هُوَ يُحْيِي وَيُمِيتُ.

أي: اللهُ وَحدَه هو المتصَرِّفُ بالإحياءِ والإماتةِ، فلا يتعذَّرُ عليه إحياءُ المُشرِكينَ وغَيرِهم، ولا إماتَتُهم إذا أراد ذلك.

وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ.

أي: وإلى اللهِ وَحْدَه مَصيرُكم– أيُّها النَّاسُ– بعد مَوتِكم، فيُجازيكم يومَ القيامةِ بأعمالِكم.

سُورةُ يُونُس

الآيتان (57–58)

يَا أَيُّهَا النَّاسُ قَدْ جَاءَتْكُمْ مَوْعِظَةٌ مِنْ رَبِّكُمْ وَشِفَاءٌ لِمَا فِي الصُّدُورِ وَهُدًى وَرَحْمَةٌ لِلْمُؤْمِنِينَ

(57) قُلْ بِفَضْلِ اللَّهِ وَبِرَحْمَتِهِ فَبِذَلِكَ فَلْيَفْرَحُوا هُوَ خَيْرٌ مِمَّا يَجْمَعُونَ (58)

غريب الكلمات:

مَوْعِظَةٌ: الوعظُ: تخويفٌ، أو: زجْرٌ مُقترِنٌ بتَخويفٍ، وتذكيرٌ بالخيرِ وما يَرِقُّ له القلبُ.

تفسير الآيتين:

يَا أَيُّهَا النَّاسُ قَدْ جَاءتْكُم مَّوْعِظَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَشِفَاء لِّمَا فِي الصُّدُورِ وَهُدًى وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ (57).

يَا أَيُّهَا النَّاسُ قَدْ جَاءتْكُم مَّوْعِظَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ.

أي: يا أيُّها النَّاسُ، قد أتاكم قرآنٌ يأمُرُكم ويزجُرُكم، ويرقِّقُ قُلوبَكم، وتَصلُحُ به أحوالُكم، مُنزَّلٌ مِن عندِ رَبِّكم.

وَشِفَاء لِّمَا فِي الصُّدُورِ.

أي: ودواءٌ للقُلوبِ مِن الشَّهَواتِ والشُّبُهاتِ، يشفي من الجَهلِ والشَّكِّ، والنِّفاقِ والغَيِّ.

كما قال تعالى: وَنُنَزِّلُ مِنَ الْقُرْآنِ مَا هُوَ شِفَاءٌ وَرَحْمَةٌ لِلْمُؤْمِنِينَ وَلَا يَزِيدُ الظَّالِمِينَ إِلَّا خَسَارًا [الإسراء: 82].

وقال سُبحانه: قُلْ هُوَ لِلَّذِينَ آمَنُوا هُدًى وَشِفَاءٌ وَالَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ فِي آذَانِهِمْ وَقْرٌ وَهُوَ عَلَيْهِمْ عَمًى أُولَئِكَ يُنَادَوْنَ مِنْ مَكَانٍ بَعِيدٍ [فصلت: 44].

وَهُدًى وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ.

أي: وبيانٌ للحَلالِ مِن الحرامِ، ودليلٌ على الطَّاعةِ والمعصية، ورشدٌ لمن اتَّبَعه، وهو رحمةٌ يحصلُ به الخَيرُ والإحسانُ والثوابُ للمُؤمنينَ.

كما قال تعالى: ذَلِكَ الْكِتَابُ لَا رَيْبَ فِيهِ هُدًى لِلْمُتَّقِينَ [البقرة: 2].

وقال سُبحانه: إِنَّ هَذَا الْقُرْآنَ يَهْدِي لِلَّتِي هِيَ أَقْوَمُ [الإسراء: 9].

قُلْ بِفَضْلِ اللهِ وَبِرَحْمَتِهِ فَبِذَلِكَ فَلْيَفْرَحُواْ هُوَ خَيْرٌ مِّمَّا يَجْمَعُونَ (58).

قُلْ بِفَضْلِ اللهِ وَبِرَحْمَتِهِ فَبِذَلِكَ فَلْيَفْرَحُواْ.

أي: قُلْ– يا مُحمَّدُ –: بالإسلامِ والقرآنِ فلْيَفرَحوا، لا بمتاعِ الدُّنيا الفانيةِ، وأموالِها الزَّائلةِ.

هُوَ خَيْرٌ مِّمَّا يَجْمَعُونَ.

أي: الإسلامُ والقُرآنُ خَيرٌ مما يجمَعُ النَّاسُ في الدُّنيا مِن مَتاعٍ وأموالٍ.[52]

(52) اختُلِفَ في المراد بفضل الله ورحمته في الآية على عِدَّة أقوال: أولها: أنّ فضل الله: الإسلام، ورحمته: القرآن.

وثانيها: أنّ فضل الله: القرآن، ورحمته: الإسلام.

وثالثها: أنّ فضل الله: العلم، ورحمته: محمد – ﷺ –.

وعلَّقَ ابنُ القيم (٢/ ٣٨ بتصرف) على القولين الأول والثاني بقوله: «التحقيق: أنّ كُلًّا منهما فيه الوصفان الفضل والرحمة، وهما الأمران اللذان امْتَنَّ الله بهما على رسوله – ﷺ –، فقال: ﴿وكذلك أوحينا إليك روحا من أمرنا ما كنت تدري ما الكتاب ولا الإيمان﴾ [الشورى: ٥٢]، والله؟ إنّما رفع مَن رفع بالكتاب والإيمان، ووَضَع مَن وضَع بعدمها، ففضله: الإسلام والإيمان، ورحمته: العلم والقرآن، وهو يُحِبُّ مِن عبده أن يفرح بذلك ويُسَرُّ به، بل يُحِبُّ مِن عبده أن يفرح بالحسنة إذا

كما قال تعالى: ﴿وَرَحْمَتُ رَبِّكَ خَيْرٌ مِّمَّا يَجْمَعُونَ﴾ [الزخرف: 32].

عملها وأن يُسَرَّ بها، وهو في الحقيقة فَرَحٌ بفضل الله حيث وفَّقه الله لها، وأعانه عليها، ويسَّرها له، ففي الحقيقة إنما يفرح العبد بفضل الله وبرحمته».

وذَهَبَ ابنُ جرير (١٢/ ١٩٤) إلى القول الأول مستندًا إلى أقوال السلف.

وذَهَبَ ابنُ عطية (٤/ ٤٩٣ - ٤٩٤) إلى الجمعِ مستندًا لعدمِ المُخصّص، فقال: «لا وجه عندي لشيء من هذا التخصيص، إلا أن يستند منه شيء إلى النبي - ﷺ -، وإنما الذي يقتضيه اللفظ ويلزم منه أنّ الفضل هو هداية الله تعالى إلى دينه والتوفيق إلى اتباع شريعته، والرحمة هي عفوه وسكنى جنته التي جعلها جزاء على التَّشرُّع بالإسلام والإيمان به.

ومعنى الآية: قل -يا محمد- لجميع الناس: بفضل الله وبرحمته فليقع الفرح منكم، لا بأمور الدنيا وما جمع من حطامها.

فالمؤمنون يُقال لهم: فلتفرحوا وهم مُتَلَبِّسون بعِلَّة الفرح وسببه، ومُحَصِّلون لفضل الله، مُنتَظِرون الرحمة.

والكافرون يقال لهم: بفضل الله وبرحمته فلتفرحوا، على معنى: أن لو اتفق لكم، أو لو سُعِدتُم بالهداية إلى تحصيل ذلك».

ذكر ابنُ عطية (٤/ ٤٩٥) فائدة لطيفة، فقال: «إن قيل: كيف أمر الله بالفرح في هذه الآية وقد ورد ذمُّه في قوله: ﴿لفرح فخور﴾ [هود: ١٠]، وفي قوله: ﴿لا تفرح إن الله لا يحب الفرحين﴾ [القصص: ٧٦]؟ قيل: إنّ الفرح إذا ورد مقيدًا في خير فليس بمذموم، وكذلك هو في هذه الآية، وإذا ورد مقيدًا في شر أو مُطلقًا لَحِقَه ذمٌّ؛ إذ ليس من أفعال الآخرة، بل ينبغي أن يغلب على الإنسان حزنه على ذنبه وخوفه لربه».

وبنحوه قال ابنُ القيم (٢/ ٣٨).

سُورةُ يُونُس

الآيتان (59–60)

قُلْ أَرَأَيْتُم مَا أَنْزَلَ اللَّهُ لَكُمْ مِنْ رِزْقٍ فَجَعَلْتُمْ مِنْهُ حَرَامًا وَحَلَالًا قُلْ آللَّهُ أَذِنَ لَكُمْ أَمْ عَلَى اللَّهِ تَفْتَرُونَ (59) وَمَا ظَنُّ الَّذِينَ يَفْتَرُونَ عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ إِنَّ اللَّهَ لَذُو فَضْلٍ عَلَى النَّاسِ وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَشْكُرُونَ (60)

تفسير الآيتين:

قُلْ أَرَأَيْتُم مَّا أَنزَلَ اللهُ لَكُم مِّن رِّزْقٍ فَجَعَلْتُم مِّنْهُ حَرَامًا وَحَلاَلاً قُلْ آللهُ أَذِنَ لَكُمْ أَمْ عَلَى اللهِ تَفْتَرُونَ (59).

قُلْ أَرَأَيْتُم مَّا أَنزَلَ اللهُ لَكُم مِّن رِّزْقٍ فَجَعَلْتُم مِّنْهُ حَرَامًا وَحَلاَلاً.

أي: قُلْ– يا مُحمَّدُ– للمُشرِكينَ: أخبِروني عن الرِّزقِ الذي خَلَقه اللهُ لكم، فجعَلْتُم بعضَه حرامًا عليكم، وبَعضَه حلالًا لكم.

قُلْ آللهُ أَذِنَ لَكُمْ أَمْ عَلَى اللهِ تَفْتَرُونَ.

أي: قُلْ– يا مُحمَّدُ– للمُشرِكينَ: آللَّهُ أذِنَ لكم بأن تُحَرِّموا ما حرَّمتُم، وتُحِلُّوا ما أحلَلْتُم، أم أنَّكم تَكذِبونَ على اللهِ في ذلك؟!

كما قال سُبحانه: أَمْ لَهُمْ شُرَكَاءُ شَرَعُوا لَهُمْ مِنَ الدِّينِ مَا لَمْ يَأْذَنْ بِهِ اللَّهُ وَلَوْلَا كَلِمَةُ الْفَصْلِ لَقُضِيَ بَيْنَهُمْ وَإِنَّ الظَّالِمِينَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ [الشورى: 21].

وقال تبارك وتعالى: وَلَا تَقُولُوا لِمَا تَصِفُ أَلْسِنَتُكُمُ الْكَذِبَ هَذَا حَلَالٌ وَهَذَا حَرَامٌ لِتَفْتَرُوا عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ إِنَّ الَّذِينَ يَفْتَرُونَ عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ لَا يُفْلِحُونَ [النحل: 116].

وقال تعالى: مَا جَعَلَ اللَّهُ مِنْ بَحِيرَةٍ وَلَا سَائِبَةٍ وَلَا وَصِيلَةٍ وَلَا حَامٍ وَلَكِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا يَفْتَرُونَ عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ وَأَكْثَرُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ [المائدة: 103].

وقال عزَّ وجلَّ: وَقَالُوا هَذِهِ أَنْعَامٌ وَحَرْثٌ حِجْرٌ لَا يَطْعَمُهَا إِلَّا مَنْ نَشَاءُ بِزَعْمِهِمْ وَأَنْعَامٌ حُرِّمَتْ ظُهُورُهَا وَأَنْعَامٌ لَا يَذْكُرُونَ اسْمَ اللَّهِ عَلَيْهَا افْتِرَاءً عَلَيْهِ سَيَجْزِيهِمْ بِمَا كَانُوا يَفْتَرُونَ * وَقَالُوا مَا فِي بُطُونِ هَذِهِ الْأَنْعَامِ خَالِصَةٌ لِذُكُورِنَا وَمُحَرَّمٌ عَلَى أَزْوَاجِنَا وَإِنْ يَكُنْ مَيْتَةً فَهُمْ فِيهِ شُرَكَاءُ سَيَجْزِيهِمْ وَصْفَهُمْ إِنَّهُ حَكِيمٌ عَلِيمٌ [الأنعام: 138-139].

وقال جلَّ جلالُه: قُلْ مَنْ حَرَّمَ زِينَةَ اللَّهِ الَّتِي أَخْرَجَ لِعِبَادِهِ وَالطَّيِّبَاتِ مِنَ الرِّزْقِ [الأعراف: 32].

وَمَا ظَنُّ الَّذِينَ يَفْتَرُونَ عَلَى اللهِ الْكَذِبَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ إِنَّ اللهَ لَذُو فَضْلٍ عَلَى النَّاسِ وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لاَ يَشْكُرُونَ (60).

وَمَا ظَنُّ الَّذِينَ يَفْتَرُونَ عَلَى اللهِ الْكَذِبَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ.

أي: وما ظنُّ الذين يتقوَّلون على اللهِ الكَذِبَ أن يَحُلَّ بهم يومَ القيامةِ مِن النَّكالِ؟ أيحسَبون أنَّ اللهَ لا يُعاقِبُهم به؟!

كما قال تعالى: وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ تَرَى الَّذِينَ كَذَبُوا عَلَى اللَّهِ وُجُوهُهُمْ مُسْوَدَّةٌ أَلَيْسَ فِي جَهَنَّمَ مَثْوًى لِلْمُتَكَبِّرِينَ [الزمر: 60].

إِنَّ اللهَ لَذُو فَضْلٍ عَلَى النَّاسِ وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لاَ يَشْكُرُونَ.

أي: إنَّ اللهَ لَصاحِبُ تفَضُّلٍ على النَّاسِ بنِعَمِه الكثيرةِ؛ ومنها: ما سخَّره لهم من نِعَم الدُّنيا وأباحه لهم، ومنها إمهالُ العاصِينَ، وعَدَمُ معاجَلتِهم بالعقوبةِ، ولكِنَّ أكثَرَ النَّاسِ لا يَشكُرونَ اللهَ على ما تفضَّلَ به مِن نِعَمٍ، بل يستعينون بها على مَعصِيتِه، ويحرِّمون بَعضَها.

كما قال تعالى: إِنَّ اللَّهَ لَذُو فَضْلٍ عَلَى النَّاسِ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَشْكُرُونَ [البقرة: 243].

سُورةُ يُونُس

الآيات (61–64)

وَمَا تَكُونُ فِي شَأْنٍ وَمَا تَتْلُو مِنْهُ مِنْ قُرْآنٍ وَلَا تَعْمَلُونَ مِنْ عَمَلٍ إِلَّا كُنَّا عَلَيْكُمْ شُهُودًا إِذْ تُفِيضُونَ فِيهِ وَمَا يَعْزُبُ عَنْ رَبِّكَ مِنْ مِثْقَالِ ذَرَّةٍ فِي الْأَرْضِ وَلَا فِي السَّمَاءِ وَلَا أَصْغَرَ مِنْ ذَلِكَ وَلَا أَكْبَرَ إِلَّا فِي كِتَابٍ مُبِينٍ (61) أَلَا إِنَّ أَوْلِيَاءَ اللَّهِ لَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ (62) الَّذِينَ آمَنُوا وَكَانُوا يَتَّقُونَ (63) لَهُمُ الْبُشْرَى فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَفِي الْآخِرَةِ لَا تَبْدِيلَ لِكَلِمَاتِ اللَّهِ ذَلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ (64)

غريب الكلمات:

تُفِيضُونَ: أي: تأخُذونَ فيه، وتَخوضونَ، وأصلُ (فيض): يدلُّ على جَرَيانِ الشَّيءِ بسُهولةٍ.

يَعْزُبُ: أي: يَبعُدُ ويَغيبُ، وأصلُ (عزب): يدلُّ على تباعُدٍ وتنَحٍّ.

مِثْقَالِ ذَرَّةٍ: أي: زنةِ نملةٍ صغيرةٍ، يقالُ: هذا على مثقالِ هذا أي: على وزنِ هذا، وأصلُ (ثقل): ضدُّ الخفةِ، والذَّرَّةُ هي أصغرُ النَّملِ، وتُطلقُ كذلك على ما لا وزنَ لها، وما يرفعُه الريحُ مِن الترابِ، وأجزاءِ الهواءِ في الكوةِ، وأصلُ (ذَرَّ): يَدُلُّ على لَطافَةٍ وانتشارٍ.

تفسير الآيات:

وَمَا تَكُونُ فِي شَأْنٍ وَمَا تَتْلُو مِنْهُ مِن قُرْآنٍ وَلاَ تَعْمَلُونَ مِنْ عَمَلٍ إِلاَّ كُنَّا عَلَيْكُمْ شُهُودًا إِذْ تُفِيضُونَ فِيهِ وَمَا يَعْزُبُ عَن رَّبِّكَ مِن مِّثْقَالِ ذَرَّةٍ فِي الأَرْضِ وَلاَ فِي السَّمَاءِ وَلاَ أَصْغَرَ مِن ذَلِكَ وَلا أَكْبَرَ إِلاَّ فِي كِتَابٍ مُّبِينٍ (61).

وَمَا تَكُونُ فِي شَأْنٍ وَمَا تَتْلُو مِنْهُ مِن قُرْآنٍ وَلاَ تَعْمَلُونَ مِنْ عَمَلٍ إِلاَّ كُنَّا عَلَيْكُمْ شُهُودًا إِذْ تُفِيضُونَ فِيهِ.

أي: وما تكونُ– يا محمَّدُ – في أيِّ عملٍ من الأعمالِ، وما تتلو من سورةٍ مِن القرآنِ، ولا تعملونَ– أيُّها النَّاسُ– مِن عَمَلٍ صغيرٍ أو كبيرٍ، من خيرٍ أو شَرٍّ، إلَّا واللهُ مطَّلِعٌ عليكم حين تأخذونَ فيه، وتَقومونَ به.[53]

---

(53) وقيل: يعودُ إلى الشَّأنِ.

وممَّن ذهب إلى ذلك: الزَّجَّاج، وابن عطية.

يُنظر: ((معاني القرآن)) (26/3)، ((تفسير ابن عطية)) (127/3).

وقيل: يعودُ إلى اللهِ عزَّ وجلَّ.

وممَّن ذهب إلى ذلك: الواحدي.

يُنظر: ((الوسيط)) (552/2).

قال الخازن: (اختلَفوا في الضَّميرِ في مِنْهُ إلى ماذا يعودُ؟ فقيل: يعودُ إلى الشأنِ؛ إذ تلاوةُ القرآنِ شأنٌ مِن شؤونِ رسولِ الله صلَّى اللهُ عليه وسلَّم، بل هو أعظَمُ شُؤونِه، فعلى هذا يكونُ داخلًا تحت قولِه تعالى: وَمَا تَكُونُ فِي شَأْنٍ إلَّا أنَّه سبحانه وتعالى خصَّه بالذِّكرِ لِشَرَفِه وعلوِّ مَرتبتِه.

وَمَا يَعْزُبُ عَن رَّبِّكَ مِن مِّثْقَالِ ذَرَّةٍ فِي الأَرْضِ وَلاَ فِي السَّمَاء وَلاَ أَصْغَرَ مِن ذَلِكَ وَلا أَكْبَرَ إِلاَّ فِي كِتَابٍ مُّبِينٍ.

أي: وما يغيبُ عن ربِّك- يا مُحمَّدُ- وزنُ نملةٍ صَغيرةٍ في الأرضِ ولا في السَّماءِ، ولا أصغَرَ مِن ذلك ولا أكبَرَ، فلا يخفَى عليه سبحانَه أصغرُ الأشياءِ، وإنْ خفَّ في الوزنِ كلَّ الخِفَّةِ، ولا أكبرُها وإنْ عَظُمَ وثَقُل وزنُه، وكلُّ ذلك في لوحٍ محفوظٍ، مكتوبٍ فيه كلُّ شيءٍ.

كما قال الله تعالى: وَعِنْدَهُ مَفَاتِحُ الْغَيْبِ لَا يَعْلَمُهَا إِلَّا هُوَ وَيَعْلَمُ مَا فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ وَمَا تَسْقُطُ مِنْ وَرَقَةٍ إِلَّا يَعْلَمُهَا وَلَا حَبَّةٍ فِي ظُلُمَاتِ الْأَرْضِ وَلَا رَطْبٍ وَلَا يَابِسٍ إِلَّا فِي كِتَابٍ مُبِينٍ [الأنعام: 59].

وقال سُبحانه: وَمَا مِنْ دَابَّةٍ فِي الْأَرْضِ إِلَّا عَلَى اللَّهِ رِزْقُهَا وَيَعْلَمُ مُسْتَقَرَّهَا وَمُسْتَوْدَعَهَا كُلٌّ فِي كِتَابٍ مُبِينٍ [هود: 6].

وقال عزَّ وجلَّ: أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِي السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ إِنَّ ذَلِكَ فِي كِتَابٍ إِنَّ ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرٌ [الحج: 70].

وقيل: إنَّه راجعٌ إلى القرآنِ؛ لأنَّه قد تقدَّمَ ذِكرُه في قولِه سُبحانه وتعالى: قُلْ بِفَضْلِ اللَّهِ وَبِرَحْمَتِهِ [يونس: 58] ، فعلى هذا يكونُ المعنى: وما تتلو من القرآنِ مِن قرآنٍ، يعني: من سورةٍ وشَيءٍ منه؛ لأنَّ لفظَ القُرآنِ يُطلَقُ على جميعِه وعلى بَعضِه.
وقيل: الضَّميرُ في مِنْهُ راجِعٌ إلى اللهِ تعالى، والمعنى: وما تتلو من اللهِ مِن قُرآنٍ نازلٍ عليك).
((تفسير الخازن)) (449/2).
ويُنظر: ((تفسير ابن الجوزي)) (337/2)، ((تفسير المنار)) لمحمد رشيد رضا (339/11).

أَلا إِنَّ أَوْلِيَاء اللّهِ لاَ خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلاَ هُمْ يَحْزَنُونَ (62).

أي: أَلَا إنَّ مَن تولَّاهم اللهُ تعالى بنَصرِه ومحبَّتِه ورعايَتِه، لا خوفٌ عليهم ممَّا يستَقبِلونَه، ولا هم يَحزَنونَ على ما مَضَى.(54)

ثمَّ ذكَر وصفَهم، فقال:

الَّذِينَ آمَنُواْ وَكَانُواْ يَتَّقُونَ (63).

أي: هم الذين آمَنوا بما وجبَ عليهم الإيمانُ به، وصدَّقوا إيمانَهم بلزومِ تقوى اللهِ، بفِعلِ أوامِرِه، واجتنابِ نَواهيه.(55)

---

(54) قال ابنُ عطية (٤/ ٤٩٧ – ٤٩٨): «يحتمل أن يكون في الآخرة، أي: لا يهتمون بهمِّها، ولا يخافون عذابًا ولا عقابًا، ولا يحزنون لذلك.

ويحتمل أن يكون ذلك في الدنيا، أي: لا يخافون أحدًا مِن أهل الدنيا ولا مِن أعراضها، ولا يحزنون على ما فاتهم منها.

والأول أظهر.

والعموم في ذلك صــحيح، لا يخافون في الآخرة جملة، ولا في الدنيا الخوف الدنياوي الذي هو في فوت آمالها، وزوال منازلها، وكذلك في الحزن».

(55) اختُلِف فيمن يستحق اسم الوليّ على ثلاثة أقوال: أولها: أنَّ الوليَّ: مَن يُذْكَرُ الله لرؤيته، لما عليه مِن سيما الخير والإخبات.

وثانيها: أنّ الأولياء قوم تحابُّوا في الله واجتمعوا في ذاتِه لم تجمعهم قرابة ولا مال يَتعاطَوْنَه.

وثالثها: أنّ الوليَّ هو المؤمن التقيّ، وهذا قول عبد الرحمن بن زيد بن أسلم.

وذَهَبَ ابنُ جرير (١٢/ ٢١٢ – ٢١٣) إلى ما ذهب إليه عبد الرحمن بن زيد بن أسلم؛ استنادًا إلى السياق، فقال: «الصوابُ مِن القول في ذلك أن يُقال: الولي –أعني: ولي الله– هو مَن كان بالصِّفة التي وصفه الله بها، وهو الذي آمن واتقى، كما قال الله: ﴿الَّذِينَ آمَنُوا وكانُوا يَتَّقُونَ﴾».

وكذلك قال ابنُ تيمية (٣/ ٤٨٦ – ٤٨٧).

لَهُمُ الْبُشْرَى فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَفِي الآخِرَةِ لاَ تَبْدِيلَ لِكَلِمَاتِ اللهِ ذَلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ (64).

لَهُمُ الْبُشْرَى فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَفِي الآخِرَةِ.

أي: لأولياءِ اللهِ البُشرى من اللهِ في الحياةِ الدُّنيا- ومن ذلك ما وُعِدوا به من الخَيرِ في القرآنِ والسُّنَّةِ، ومن البِشاراتِ الرُّؤيا الصَّالحةُ، والثَّناءُ الحَسَنُ- ولهم البُشرى في الآخرةِ بدُخولِ الجنَّة.(56)

وقال ابنُ القيم (٢/ ٤٠ - ٤١): «أولياء الرحمن لا خوف عليهم ولاهم يحزنون، هم الذين آمنوا وكانوا يتقون، وهم المذكورون في أول سورة البقرة إلى قوله: ﴿هم المفلحون﴾ [البقرة: ١ - ٥]، وفي وسطها في قوله: ﴿ولكن البر من آمن بالله واليوم الآخر﴾ إلى قوله: ﴿أولئك الذين صدقوا وأولئك هم المتقون﴾ [البقرة: ١٧٧]، وفي أول الأنفال إلى قوله: ﴿لهم درجات عند ربهم ومغفرة ورزق كريم﴾ [الأنفال: ١ - ٤]، وفي أول سورة المؤمنين إلى قوله: ﴿هم فيها خالدون﴾ [المؤمنون: ١ - ١١]، وفي آخر سورة الفرقان، وفي قوله: ﴿إن المسلمين والمسلمات﴾ إلى آخر الآية [الأحزاب: ٣٥]، وفي قوله: ﴿ألا إن أولياء الله لا خوف عليهم ولا هم يحزنون * الذين آمنوا وكانوا يتقون﴾، وفي قوله: ﴿ومن يطع الله ورسوله ويخش الله ويتقه فأولئك هم الفائزون﴾ [النور: ٥٢]، وفي قوله: ﴿إلا المصلين الذين هم على صلاتهم دائمون﴾ إلى قوله: ﴿في جنات مكرمون﴾ [المعارج: ٢٢ - ٣٥]، وفي قوله: ﴿التائبون العابدون الحامدون﴾ إلى آخر الآية [التوبة: ١١٢].

فأولياء الرحمن هم المخلصون لربهم، المحكمون لرسوله في الحرم والحِلِّ، الذين يخالفون غيره لسُنَّته ولا يخالفون سُنَّته لغيرها، فلا يبتدعون ولا يدعون إلى بِدْعَة، ولا يَتَحَيَّزون إلى فئةٍ غير الله ورسوله وأصحابه، ولا يتخذون دينهم لهوًا ولعبًا، فأولياء الرحمن المتلبسون بما يحبه وليهم، الداعون إليه، المحاربون لِمَن خرج عنه».

(56) بشرى الآخرة: الجنَّة، قولًا واحدًا.

واختُلِف في بُشرى الدنيا على قولين: أولها: أنَّها الرؤية الصالحة يراها الرجل المسلم أو تُرى له.

وثانيها: أنها بشارة يُبَشَّر بها المؤمن في الدنيا عند الموت.

وزاد ابنُ تيمية (٣/ ٤٨٩) قولًا ثالثًا، وهو أنّ بشرى الدنيا: ثناء الناس عليه.

وزاد ابنُ عطية (٤/ ٤٩٩) قولًا رابعًا، وهو أنّ بشرى الدنيا: ما في القرآن مِن الآيات المبشرات.

وقال: «ويقْوى ذلك بقوله تعالى في هذه الآية: ﴿لا تبديل لكلمات الله﴾».

ثم علَّقَ قائلًا: «وإن كان ذلك كله يعارضه قول النبي - ﷺ -: «هي الرؤيا».

كما قال تعالى: يُبَشِّرُهُمْ رَبُّهُمْ بِرَحْمَةٍ مِنْهُ وَرِضْوَانٍ وَجَنَّاتٍ لَهُمْ فِيهَا نَعِيمٌ مُقِيمٌ * خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا إِنَّ اللَّهَ عِنْدَهُ أَجْرٌ عَظِيمٌ [التوبة: 21–22].

وقال سُبحانه: إِنَّ الَّذِينَ قَالُوا رَبُّنَا اللَّهُ ثُمَّ اسْتَقَامُوا تَتَنَزَّلُ عَلَيْهِمُ الْمَلَائِكَةُ أَلَّا تَخَافُوا وَلَا تَحْزَنُوا وَأَبْشِرُوا بِالْجَنَّةِ الَّتِي كُنْتُمْ تُوعَدُونَ * نَحْنُ أَوْلِيَاؤُكُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَفِي الْآخِرَةِ وَلَكُمْ فِيهَا مَا تَشْتَهِي أَنْفُسُكُمْ وَلَكُمْ فِيهَا مَا تَدَّعُونَ [فصلت: 30–31].

وقال عزَّ وجلَّ: إِنَّ الَّذِينَ سَبَقَتْ لَهُمْ مِنَّا الْحُسْنَى أُولَئِكَ عَنْهَا مُبْعَدُونَ * لَا يَسْمَعُونَ حَسِيسَهَا وَهُمْ فِي مَا اشْتَهَتْ أَنْفُسُهُمْ خَالِدُونَ * لَا يَحْزُنُهُمُ الْفَزَعُ الْأَكْبَرُ وَتَتَلَقَّاهُمُ الْمَلَائِكَةُ هَذَا يَوْمُكُمُ الَّذِي كُنْتُمْ تُوعَدُونَ [الأنبياء: 101 – 103].

إلا إن قلنا: إنّ النبي – ﷺ – أعطى مثالًا مِن البشرى، وهي تعم جميع الناس».

وذَهَبَ ابنُ جرير (١٢/ ٢٢٥) إلى عموم لفظ البشرى؛ لدلالة القرآن، والسنّة، وعدم المُخصّص، فقال: «وأولى الأقوال في تأويل ذلك بالصواب أن يُقال: إنّ الله –تعالى ذِكْرُه– أخبر أنّ لأوليائه المتقين البشرى في الحياة الدنيا، ومن البشارة في الحياة الدنيا: الرؤيا الصالحة يراها المسلم أو تُرى له.

ومنها: بشرى الملائكة إيّاه عند خروج نَفْسِه برحمة الله، كما روي عن النبي – ﷺ –: «أن الملائكة التي تحضره عند خروج نفسه، تقول لنفسه: اخرجي إلى رحمة الله ورضوانه».

ومنها: بشرى الله إيّاه ما وعده في كتابه وعلى لسان رسوله – ﷺ – من الثواب الجزيل، كما قال –جلّ ثناؤه–: ﴿وبَشِّرِ الَّذِينَ آمَنوا وعَمِلُوا الصّالِحاتِ أنَّ لَهُمْ جَنّاتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِها الأَنْهارُ﴾ الآية [البقرة: ٢٥]، وكل هذه المعاني من بشرى الله إيّاه في الحياة الدنيا بشّره بها، ولم يخصُص الله من ذلك معنى دون معنى، فذلك مما عمَّه –جل ثناؤه– أنّ لهم البشرى في الحياة الدنيا، وأما في الآخرة فالجنة».

وقال جلَّ جلالُه: يَوْمَ تَرَى الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ يَسْعَى نُورُهُمْ بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَبِأَيْمَانِهِمْ بُشْرَاكُمُ الْيَوْمَ جَنَّاتٌ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا ذَلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ [الحديد: 12].

وعن البراءِ بنِ عازبٍ رضي الله عنه، قال: قال النبي – ﷺ –: ((إنَّ العبدَ المؤمنَ إذا كان في انقطاعٍ من الدنيا، وإقبالٍ مِن الآخرةِ، نزَل إليه ملائكةٌ مِن السماءِ بيضُ الوجوهِ، كأنَّ وجوهَهم الشمسُ، معهم كفنٌ مِن أكفانِ الجنةِ، وحنوطٌ[57] مِن حنوطِ الجنةِ، حتى يجلسوا منه مدَّ البصرِ، ثم يجيءُ ملكُ الموت عليه السَّلام حتى يجلسَ عندَ رأسِه، فيقول: أيَّتُها النفسُ الطيبةُ، اخرُجي إلى مغفرةٍ مِن الله ورضوانٍ، فتخرج تسيلُ كما تسيلُ القطرةُ من فِي السِّقاء، فيأخذها، فإذا أخذها لم يدَعوها في يدِه طرفةَ عينٍ حتى يأخذوها، فيجعلوها في ذلك الكفنِ، وفي ذلك الحنوطِ، ويخرج منها كأطيبِ نفحةِ[58] مسكٍ وُجِدت على وجهِ الأرضِ، فيصعدون بها، فلا يمرُّون – يعني بها – على ملإٍ من الملائكةِ إلا قالوا: ما هذا الروحُ الطيبُ؟! فيقولون: فلانُ بنُ فلانٍ، بأحسنِ أسمائِه التي كانوا يسمُّونه بها في الدُّنيا، حتى ينتهوا بها إلى السماءِ الدنيا، فيستفتحون له، فيُفتح لهم، فيشيِّعُه من كلِّ سماءٍ مقرَّبوها إلى السماءِ التي تليها، حتى يُنتهَى به إلى السماءِ السابعةِ، فيقول الله عزَّ وجلَّ: اكتبوا كتابَ

(57) الحَنوطُ: ما يُخلَطُ مِن الطِّيبِ لأكفانِ الموتى وأجسادِهم.
يُنظر: ((مرقاة المفاتيح)) للملا الهروي (3/1176).

(58) النَّفحةُ: المرَّةُ مِن نَفحِ الطِّيبِ، أي: رائحَتِه.
يُنظر: ((مرعاة المفاتيح)) للمباركفوري (5/325).

عبدي في عِلِّيين،[59] وأعيدوه إلى الأرضِ، فإنِّي منها خلقتُهم، وفيها أُعيدُهم، ومنها أُخرجُهم تارةً أخرَى، فتُعاد روحُه في جسدِه، فيأتيه ملَكانِ، فيُجلسانِه، فيقولانِ له: مَن ربُّك؟ فيقول: ربِّيَ الله، فيقولان له: ما دينُك؟ فيقول: دينِي الإسلامُ، فيقولان له: ما هذا الرجلُ الذي بُعِث فيكم؟ فيقول: هو رسولُ الله – ﷺ –، فيقولان له: وما علمُك؟ فيقولُ: قرأتُ كتابَ الله، فآمنتُ به، وصدَّقت، فينادي منادٍ في السماءِ: أن صدَق عبدي، فأفْرِشوه مِن الجنة، وألْبِسوه مِن الجنةِ، وافتحوا له بابًا إلى الجنةِ، فيأتيه من رَوْحِها،[60] وطِيبِها، ويُفسحُ له في قبرِه مدَّ بصرِه، ويأتيه رجلٌ حسنُ الوجهِ، حسنُ الثيابِ، طيِّبُ الرِّيحِ، فيقول: أبْشِرْ بالذي يَسرُّك، هذا يومُك الذي كنتَ تُوعَدُ، فيقولُ له: مَن أنت؟ فوجهُك الوجهُ يجيءُ بالخيرِ، فيقولُ: أنا عملُك الصالحُ، فيقول: ربِّ أقِمِ الساعةَ حتى أرجعَ إلى أهلِي ومالِي)).[61]

---

(59) عِلِّيِّينَ: هو دِيوانُ المُقَرَّبِينَ.
يُنظر: ((مرعاة المفاتيح)) للمباركفوري (326/5).
(60) مِن رَوْحِها– بفتح الراء– : أي: مِن نَسيمِها.
يُنظر: ((مرعاة المفاتيح)) للمباركفوري (327/5).
(61) أخرجه أحمد (18534)، والطيالسي (789)، والحاكم (107).
صحَّح إسنادَه الطبري في ((مسند عمر)) (494/2)، والبيهقي في ((شعب الإيمان)) (300/1)، وقال ابنُ منده في ((الإيمان)) (398): إسنادُه متَّصلٌ مشهورٌ ثابتٌ على رسمِ الجماعةِ، وحسَّنه المنذري في ((الترغيب والترهيب)) (280/4).

وعن أبي ذَرٍّ رَضِيَ اللهِ عنه، قال: ((قيل لرَسولِ اللهِ – ﷺ –: أرأيتَ الرَّجُلَ يعمَلُ العمَلَ مِن الخَيرِ، ويَحمَدُه النَّاسُ عليه؟ قال: تلك عاجِلُ بُشرى المؤمِنِ)).[62]

وعن أبي هريرة رضي الله عنه، قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: ((لم يَبْقَ من النُّبُوَّةِ إلا المُبَشِّراتُ، قالوا: وما المُبَشِّراتُ؟ قال: الرؤيا الصالحةُ)).[63]

وعن ابن عباس رضي الله عنهما، قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: ((أيها الناسُ، إنه لم يبقَ من مبشراتِ النبوةِ إلا الرؤيا الصالحةُ، يراها المسلمُ، أو تُرى له)).[64]

لاَ تَبْدِيلَ لِكَلِمَاتِ اللّهِ.

لا خُلْفَ لوعدِ الله؛ فما وعَد الله فهو حقٌّ، لا يمكنُ تغييرُه ولا تبديلُه، وهو كائنٌ لا محالةَ.[65]

كما قال تعالى: وَتَمَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ صِدْقًا وَعَدْلًا لَا مُبَدِّلَ لِكَلِمَاتِهِ [الأنعام: 115].

(62) رواه مسلم (2642).
(63) رواه البخاري (6990).
(64) رواه مسلم (479).
(65) قال ابنُ عطية (٤/ ٤٩٩ – ٥٠٠ بتصرف): «قوله: ﴿لا تبديل لكلمات الله﴾ يريد: لا خُلْف لمواعيده، ولا ردَّ في أمره، وقد أخذ ذلك عبدُ الله بن عمر على نحوٍ غيرِ هذا، وجعل التبديل المنفيَّ في الألفاظ، وذلك أنّه رُوِي أنّ الحجاج بن يوسف خطب، فأطال خطبته حتى قال: إنّ عبد الله بن الزبير قد بدَّل كتاب الله.
فقال له عبد الله بن عمر: إنّك لا تطيق ذلك أنت ولا ابن الزبير، ﴿لا تبديل لكلمات الله﴾.
فقال له الحجاج: لقد أعطيتَ عِلمًا.
فلمّا انصرف إليه في خاصَّته سَكَت عنه.
وقد رُوِي هذا النظر عن عبد الله بن عباس في غير مُقاوَلَةِ الحجّاج، ذكره البخاري».

وقال سُبحانه: إِنَّ اللَّهَ لَا يُخْلِفُ الْمِيعَادَ [آل عمران: 9].

ذَلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ.

أي: ما يُبشَّرُ به أولياءُ اللهِ هو الظَّفَرُ العَظيمُ بكلِّ محبوبٍ، والنجاةُ الكبيرةُ مِن كُلِّ محذورٍ.

سُورةُ يُونُس

الآيتان (65–66)

وَلَا يَحْزُنْكَ قَوْلُهُمْ إِنَّ الْعِزَّةَ لِلَّهِ جَمِيعًا هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ (65)

أَلَا إِنَّ لِلَّهِ مَنْ فِي السَّمَاوَاتِ وَمَنْ فِي الْأَرْضِ وَمَا يَتَّبِعُ الَّذِينَ يَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ شُرَكَاءَ إِنْ يَتَّبِعُونَ إِلَّا الظَّنَّ وَإِنْ هُمْ إِلَّا يَخْرُصُونَ (66)

غريب الكلمات:

يَخْرُصُونَ: أي: يَحْدِسُون ويحزُرونَ، أو يكذِبونَ، لأَنَّ الكاذبَ لا يتحرَّى في الأمورِ، بل يُخمِّنُ ويحزُر، ولا يتحرَّى الحقائقَ، وكلُّ قولٍ عن ظنٍّ وتخمينٍ، يُقال له: خرصٌ، سواءٌ كان ذلك مطابقًا للشيءِ أو مخالفًا له، وأصلُ الخرصِ: حَزْرُ الشَّيءِ.

تفسير الآيتين:

وَلاَ يَحْزُنكَ قَوْلُهُمْ إِنَّ الْعِزَّةَ لِلّهِ جَمِيعًا هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ (65).

وَلاَ يَحْزُنكَ قَوْلُهُمْ.

أي: ولا يُحْزِنْك- يا مُحمَّدُ- قَولُ المُشركينَ، كافترائِهم على اللهِ، وتكذيبِهم لك، واستهزائِهم بالحقِّ.

إِنَّ الْعِزَّةَ لِلّهِ جَمِيعًا.

أي: فإنَّ اللهَ هو المُنفَرِدُ بجميعِ العِزَّةِ في الدُّنيا والآخرةِ، فله وَحْدَه القوَّةُ الكامِلةُ، والقُدرةُ التامَّةُ، والغَلَبةُ الشَّاملةُ، فهو ناصِرُك ومُعينُك، ومانِعُك مِن أذَى المُشرِكينَ- يا مُحمَّدُ- وهو القادِرُ على عقابِهم، والانتقامِ منهم، حتى تصيرَ أعَزَّ منهم.

هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ.

أي: وهو- سُبحانَه- السَّميعُ لأقوالِ عِبادِه، العليمُ بأحوالِهم، ومن ذلك سَماعُه لأقوالِ المُشرِكينَ، وعِلمُه بأعمالِهم، وما في قُلوبِهم، فيُجازيهم بذلك، ويدفَعُ عنك أذاهم- يا مُحمَّدُ- فاكتفِ بعِلمِ اللهِ وكفايتِه عزَّ وجلَّ.

أَلا إِنَّ لِلّهِ مَن فِي السَّمَاوَات وَمَن فِي الأَرْضِ وَمَا يَتَّبِعُ الَّذِينَ يَدْعُونَ مِن دُونِ اللّهِ شُرَكَاء إِن يَتَّبِعُونَ إِلاَّ الظَّنَّ وَإِنْ هُمْ إِلاَّ يَخْرُصُونَ (66).

أي: ألا إنَّ لله كلَّ مَن في السَّمواتِ وكُلَّ مَن في الأرضِ، فهم مِلكُه، يتصَرَّفُ فيهم كيف يشاءُ، وهو المستَحِقُّ وَحدَه للعبادةِ.

وَمَا يَتَّبِعُ الَّذِينَ يَدْعُونَ مِن دُونِ اللّهِ شُرَكَاء.

أي: وأيَّ شيءٍ يتَّبِعُ هؤلاء الذين يقولونَ: إنَّ لله شُرَكاءَ؟![66]

إِن يَتَّبِعُونَ إِلاَّ الظَّنَّ وَإِنْ هُمْ إِلاَّ يَخْرُصُونَ.

أي: ما يتَّبِعُ المُشرِكونَ في دَعواهم الشُّرَكاءَ لله إلَّا مُجَرَّدَ الظَّنِّ بلا دليلٍ، وما هم إلَّا يتقوَّلونَ الكَذِبَ على اللهِ ظنًّا بِلا عِلمٍ.

---

(66) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (12/227)، ((تفسير ابن عطية)) (3/130)، ((تفسير آيات أشكلت على كثير من العلماء)) لابن تيمية (1/144- 146)، ((مجموع الفتاوى)) لابن تيمية (16/576).

وممن ذهب إلى أنَّ (ما) هنا استفهاميةٌ: ابنُ جريرٍ، ومال إليه ابنُ عطيةَ، واختاره ابنُ تيمية.

يُنظر: المصادر السابقة.

وقيل: إنَّ (ما) نافيةٌ، ومعنَى الآيةِ على ذلك: ما يتَّبعونَ في الحقيقةِ شركاءَ للهِ؛ فإنَّه ليس لله شريكٌ، وإنَّما يتَّبعونَ الظنَّ، وممن ذهب إلى أنَّ (ما) نافيةٌ: الواحدي، وابنُ الجوزي، والقرطبي، ومحمد رشيد رضا، والسعدي، والشنقيطي.

يُنظر: ((الوسيط)) للواحدي (2/554)، ((تفسير ابن الجوزي)) (2/339)، ((تفسير القرطبي)) (8/360)، ((تفسير المنار)) لمحمد رشيد رضا (11/370)، ((تفسير السعدي)) (ص: 364)، ((العذب النمير)) للشنقيطي (2/201).

سُورةُ يُونُس

الآيات (67–70)

هُوَ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ اللَّيْلَ لِتَسْكُنُوا فِيهِ وَالنَّهَارَ مُبْصِرًا إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَسْمَعُونَ (67) قَالُوا اتَّخَذَ اللَّهُ وَلَدًا سُبْحَانَهُ هُوَ الْغَنِيُّ لَهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ إِنْ عِنْدَكُمْ مِنْ سُلْطَانٍ بِهَذَا أَتَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ (68) قُلْ إِنَّ الَّذِينَ يَفْتَرُونَ عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ لَا يُفْلِحُونَ (69) مَتَاعٌ فِي الدُّنْيَا ثُمَّ إِلَيْنَا مَرْجِعُهُمْ ثُمَّ نُذِيقُهُمُ الْعَذَابَ الشَّدِيدَ بِمَا كَانُوا يَكْفُرُونَ (70)

غريب الكلمات:

سُلْطَانٍ: أيِ: حُجَّة، وأصْلُ السُّلطانِ: القوَّةُ والقهرُ، من التَّسلُّط؛ ولذلك سُمِّي السُّلطانُ سُلطانًا.

لِتَسْكُنُوا فِيهِ: أي: تهدءُوا فيه مِن التصرُّفِ والحركةِ، وتستقرُّوا لراحةِ أبدانِكم، والسُّكونُ: ثبوتُ الشيءِ بعدَ تحرُّكٍ، وأصلُ (سَكَنَ): يَدُلُّ على خِلافِ الاضْطِرابِ والحركةِ.

تفسير الآيات:

هُوَ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ اللَّيْلَ لِتَسْكُنُواْ فِيهِ وَالنَّهَارَ مُبْصِرًا إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَسْمَعُونَ

(67).

هُوَ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ اللَّيْلَ لِتَسْكُنُواْ فِيهِ وَالنَّهَارَ مُبْصِرًا.

أي: اللهُ وَحْدَه هو الذي خلَقَ لكم- أيُّها النَّاسُ- اللَّيلَ؛ لأجل أن تَهدَؤوا عن الحرَكةِ، وتستريحوا فيه مِن العَناءِ والتَّعَب، وجعل لكم النَّهارَ مُضيئًا تُبصِرونَ فيه لِمَعاشِكم، وقضاءِ حوائِجِكم.

إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَسْمَعُونَ.

أي: إنَّ في اختلافِ حالِ اللَّيلِ والنَّهارِ بالظُّلمةِ والضِّياءِ، واختلافِ حالِ أهلِهما فيهما بالسُّكونِ والحَرَكةِ، لدَلالاتٍ للَّذين يَسمَعونَ آياتِ الله ويَعُونَها، فيَقبلونَها، ويعتَبِرونَ بها على عَظَمتِه وعِلمِه، وقُدرتِه ورَحمتِه، وحِكمَتِه واستحقاقِه وَحْدَه للعبادةِ.

كما قال تعالى: هُوَ الَّذِي جَعَلَ الشَّمْسَ ضِيَاءً وَالْقَمَرَ نُورًا وَقَدَّرَهُ مَنَازِلَ لِتَعْلَمُوا عَدَدَ السِّنِينَ وَالْحِسَابَ مَا خَلَقَ اللَّهُ ذَلِكَ إِلَّا بِالْحَقِّ يُفَصِّلُ الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ * إِنَّ فِي اخْتِلَافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَمَا خَلَقَ اللَّهُ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَتَّقُونَ [يونس: 5- 6].

وقال سُبحانه: أَلَمْ يَرَوْا أَنَّا جَعَلْنَا اللَّيْلَ لِيَسْكُنُوا فِيهِ وَالنَّهَارَ مُبْصِرًا إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ [النمل: 86].

قَالُواْ اتَّخَذَ اللّهُ وَلَدًا سُبْحَانَهُ هُوَ الْغَنِيُّ لَهُ مَا فِي السَّمَاوَات وَمَا فِي الأَرْضِ إِنْ عِندَكُم مِّن سُلْطَانٍ بِهَذَا أَتقُولُونَ عَلَى اللهِ مَا لاَ تَعْلَمُونَ (68).

قَالُواْ اتَّخَذَ اللّهُ وَلَدًا.

أي: قال مُشرِكو العَرَبِ: الملائكةُ بناتُ اللهِ!![67]

سُبْحَانَهُ.

أي: تنزَّه اللهُ عن أن يكونَ له ولَدٌ.

---

(67) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (229/12)، ((البسيط)) للواحدي (256/11)، ((تفسير البغوي)) (428/2)، ((تفسير ابن عطية)) (131/3)، ((تفسير ابن عاشور)) (229/11).

ومن اختار أنَّ الضميرَ في قَالُوا: عائدٌ على المشركين الذين قالوا: الملائكةُ بناتُ الله: ابنُ جريرٍ، والواحدي، والبغوي وابن عطية، وابنُ عاشورٍ.

يُنظر: المصادر السابقة.

قال ابنُ عطيةَ: (الضَّميرُ في قَالُوا للكفَّارِ العَرَب، وذلك قولُ طائفةٍ منهم: الملائكةُ بناتُ الله، والآيةُ بعدُ تعُمُّ كُلَّ مَن قال نحو هذا القَولِ، كالنصارى ومن يُمكِنُ أن يعتقِدَ ذلك مِن الكَفَرة).

((تفسير ابن عطية)) (131/3).

ومِن المفسِّرين مَن جعَل الضميرَ في قَالُوا عائدًا على مَن نسَب إلى الله الولدَ، ممن قال: الملائكةُ بناتُ الله، أو عزيرٌ ابنُ الله، أو المسيحُ ابنُ الله.

يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (85/6)، ((تفسير المنار)) (372/11).

وقال الرازي: (ويحتملُ أن يكونَ قد كان فيهم قومٌ مِن النَّصارى قالوا ذلك).

((تفسير الرازي)) (280/17).

لكن قال ابنُ عاشورٍ بعدَ أن بيَّن أنَّ الضميرَ في قَالُوا يعودُ إلى الذين يَدْعون مَن دونِ الله شركاءَ، قال: (وليسَ المرادُ مِن الضميرِ غيرَهم مِن النَّصارى؛ لأنَّ السورةَ مكيةٌ، والقرآنُ المكيُّ لم يتصدَّ لإبطالِ زيغِ عقائدِ أهلِ الكتاب).

((تفسير ابن عاشور)) (229/11).

هُوَ الْغَنِيُّ لَهُ مَا فِي السَّمَاوَات وَمَا فِي الأَرْضِ.

أي: اللهُ هو الغنيُّ عن الزَّوجةِ والوَلَدِ، وعن جميعِ خَلْقِه، له جميعُ ما في السَّمواتِ وما في الأرضِ، خَلقًا ومُلكًا وتصرُّفًا، فكيف يَحتاجُ إلى شيءٍ مِن خَلْقِه، وكيف يتَّخِذُ منهم ولدًا؟!

كما قال تعالى: وَقَالُوا اتَّخَذَ الرَّحْمَنُ وَلَدًا * لَقَدْ جِئْتُمْ شَيْئًا إِدًّا * تَكَادُ السَّمَوَاتُ يَتَفَطَّرْنَ مِنْهُ وَتَنْشَقُّ الْأَرْضُ وَتَخِرُّ الْجِبَالُ هَدًّا * أَنْ دَعَوْا لِلرَّحْمَنِ وَلَدًا * وَمَا يَنْبَغِي لِلرَّحْمَنِ أَنْ يَتَّخِذَ وَلَدًا * إِنْ كُلُّ مَنْ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ إِلَّا آتِي الرَّحْمَنِ عَبْدًا * لَقَدْ أَحْصَاهُمْ وَعَدَّهُمْ عَدًّا * وَكُلُّهُمْ آتِيهِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فَرْدًا [مريم: 88 – 95].

إِنْ عِندَكُم مِّن سُلْطَانٍ بِهَذا.

أي: ليس عندكم– أيُّها المشركون– دليلٌ وحجَّةٌ على أنَّ اللهَ اتَّخذ ولدًا مِن خَلْقِه.

أَتقُولُونَ عَلَى اللهِ مَا لاَ تَعْلَمُونَ.

أي: أتقولونَ– أيُّها المُشرِكونَ– على اللهِ قَولًا لا تَعلَمونَ حَقيقتَه وصِحَّتَه، فتنسُبونَ إليه الولَد جهلًا منكم بغيرِ دَليلٍ؟!

قُلْ إِنَّ الَّذِينَ يَفْتَرُونَ عَلَى اللهِ الْكَذِبَ لاَ يُفْلِحُونَ (69).

أي: قُلْ- يا مُحمَّدُ-: إنَّ الذين يَكذِبونَ على اللهِ فيَنسُبونَ إليه الولَدَ، لا يفوزونَ، ولا يَنجُونَ، ولا يأمنونَ في الدُّنيا ولا في الآخرةِ.

مَتاعٌ فِي الدُّنْيَا ثُمَّ إِلَيْنَا مَرْجِعُهُمْ ثُمَّ نُذِيقُهُمُ الْعَذَابَ الشَّدِيدَ بِمَا كَانُواْ يَكْفُرُونَ (70).

مَتَاعٌ فِي الدُّنْيَا ثُمَّ إِلَيْنَا مَرْجِعُهُمْ.

أي: لهم مَتاعٌ قليلٌ في الدُّنيا يتمَتَّعونَ به إلى انقضاءِ آجالِهم، ثمَّ إلينا مَصيرُهم بعد مَوتِهم.

ثُمَّ نُذِيقُهُمُ الْعَذَابَ الشَّدِيدَ بِمَا كَانُواْ يَكْفُرُونَ.

أي: ثمَّ نُذيقُهم في النَّارِ العذابَ الغليظَ المُوجِعَ؛ بسبَبِ كُفرِهم باللهِ في الدُّنيا.

سُورةُ يُونُس

الآيات (71–73)

وَاتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ نُوحٍ إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِ يَا قَوْمِ إِنْ كَانَ كَبُرَ عَلَيْكُمْ مَقَامِي وَتَذْكِيرِي بِآيَاتِ اللَّهِ فَعَلَى اللَّهِ تَوَكَّلْتُ فَأَجْمِعُوا أَمْرَكُمْ وَشُرَكَاءَكُمْ ثُمَّ لَا يَكُنْ أَمْرُكُمْ عَلَيْكُمْ غُمَّةً ثُمَّ اقْضُوا إِلَيَّ وَلَا تُنْظِرُونِ (71) فَإِنْ تَوَلَّيْتُمْ فَمَا سَأَلْتُكُمْ مِنْ أَجْرٍ إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَى اللَّهِ وَأُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ مِنَ الْمُسْلِمِينَ (72) فَكَذَّبُوهُ فَنَجَّيْنَاهُ وَمَنْ مَعَهُ فِي الْفُلْكِ وَجَعَلْنَاهُمْ خَلَائِفَ وَأَغْرَقْنَا الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا فَانْظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُنْذَرِينَ (73)

غريب الكلمات:

كَبُرَ: أي: شَقَّ، وعَظُمَ وصَعُبَ. وأصلُ (كبر): يدلُّ على خِلافِ الصِّغَر.

مَقَامِي: أي: لُبثي وطولُ مُكثي بينَ أظهرِكم، وقيل: المرادُ بالمَقامِ القيامُ؛ أي: قيامي لوعظِكم؛ لأنَّ الواعظَ يقومُ حالَ وعظِه، والمَقامُ يكونُ مصدرًا، واسمَ مكانِ القيامِ، وزمانِه، وأصلُ (قوم): يدلُّ على انْتِصابٍ أو عَزْمٍ.

فَأَجْمِعُوا أَمْرَكُمْ: أي: فأعِدُّوا أمْرَكم، واعْزِموا على ما تُقْدِمون عليه في أمري، يُقالُ: أَجْمَعْتُ على كذا، بمعنَى: عَزَمْتُ عليه، وأَجْمَعْتُ كذا: أكثرُ ما يُقالُ فيما يكونُ جمعًا يُتوصَّلُ إليه بالفكرةِ، وأصل (جمع): يَدُلُّ عَلَى تَضَامِّ الشَّيْءِ.

غُمَّةً: أي: مُلتبِسًا مُشكِلًا مُبهَمًا. وأصلُ (غم): يدُلُّ على تَغطيةٍ وإطباقٍ.

اقْضُوا إِلَيَّ: أي: أمضُوا إليَّ ما في أنفُسِكم وافرُغوا منه. وأصلُ (قضي): يدلُّ على إنفاذِ أمرٍ لجِهَتِه.

تُنْظِرُونِ: أي: تؤخِّرونِ، وأصلُ (نظر): يدلُّ على انتظارٍ.

تفسير الآيات:

وَاتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ نُوحٍ إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِ يَا قَوْمِ إِن كَانَ كَبُرَ عَلَيْكُم مَّقَامِي وَتَذْكِيرِي بِآيَاتِ اللّهِ فَعَلَى اللّهِ تَوَكَّلْتُ فَأَجْمِعُواْ أَمْرَكُمْ وَشُرَكَاءكُمْ ثُمَّ لاَ يَكُنْ أَمْرُكُمْ عَلَيْكُمْ غُمَّةً ثُمَّ اقْضُواْ إِلَيَّ وَلاَ تُنظِرُونِ (71).

وَاتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ نُوحٍ.

أي: واقرأْ- يا مُحمَّدُ- على قَومِك المُشرِكينَ خَبَرَ نوحٍ عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ مع قَومِه الذينَ كذَّبوه فأهلَكَهم اللهُ؛ لِيَحذَرَ قومُك من أن يُصيبَهم اللهُ بعِقابِه.

إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِ يَا قَوْمِ إِن كَانَ كَبُرَ عَلَيْكُم مَّقَامِي وَتَذْكِيرِي بِآيَاتِ اللّهِ فَعَلَى اللّهِ تَوَكَّلْتُ.

أي: حينَ قال لِقَومِه: يا قومي، إن كان عَظُم وثقُلَ عليكم لُبثِي بين أظهُرِكم، وشَقَّ عليكم وَعظي إيَّاكم بالدَّلائِلِ والبراهينِ الإلهيَّةِ، فعَزَمتُم على أن تنالوني بسوءٍ- فعَلى اللهِ اعتمَدْتُ؛ فهو مَن ينصُرُني، ويمنَعُ أذاكم عني.

كما قال تعالى: قَالُوا لَئِنْ لَمْ تَنْتَهِ يَا نُوحُ لَتَكُونَنَّ مِنَ الْمَرْجُومِينَ * قَالَ رَبِّ إِنَّ قَوْمِي كَذَّبُونِ * فَافْتَحْ بَيْنِي وَبَيْنَهُمْ فَتْحًا وَنَجِّنِي وَمَنْ مَعِيَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ [الشعراء: 116 - 118].

فَأَجْمِعُواْ أَمْرَكُمْ وَشُرَكَاءكُمْ.

أي: فأعِدُّوا أمْرَكم، واعزِموا جميعًا على إيذائي، وادعُوا مَن تدعونَ مِن دونِ اللهِ لإعانتِكم.

ثُمَّ لاَ يَكُنْ أَمْرُكُمْ عَلَيْكُمْ غُمَّةً.

أي: ثمَّ لا يكُنْ أمرُكم خفيًّا مُشكِلًا، فيه لبسٌ عليكم.(68)

ثُمَّ اقْضُواْ إِلَيَّ وَلاَ تُنظِرُونِ.

أي: ثمَّ أَمضُوا ما تحدِّثونَ أنفسَكم به فيَّ، وأنفِذوا قضاءَكم نَحوِي، وافرُغُوا مِن أمري، ولا تُمهِلوني.

فَإِن تَوَلَّيْتُمْ فَمَا سَأَلْتُكُم مِّنْ أَجْرٍ إِنْ أَجْرِيَ إِلاَّ عَلَى اللهِ وَأُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ مِنَ الْمُسْلِمِينَ

(72).

---

(68) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (232/12)، ((تفسير القرطبي)) (363/8)، ((تفسير ابن كثير)) (283/4)، ((تفسير السعدي)) (ص: 369).

قال القرطبي: (أي: لِيَكنْ أمرُكم ظاهرًا مُنكَشِفًا، تتمَكَّنونَ فيه ممَّا شِئتُم، لا كمَن يخفَى أمرُه، فلا يقدِرُ على ما يُرِيدُ).

((تفسير القرطبي)) (363/8).

وقال ابنُ كثير: (أي: ولا تجعَلوا أمرَكم عليكم مُلتَبِسًا، بل افصِلوا حالَكم معي).

((تفسير ابن كثير)) (283/4).

وقال محمد رشيد رضا: (أي: خفيًّا فيه شيءٌ مِن الحَيرةِ أو اللَّبسِ الذي يقتضي التردُّدَ في الإنفاذِ، بعد العزمِ والإجماعِ، بل كونوا على عِلمٍ وبصيرةٍ فيه؛ لكيلا تتحوَّلوا عنه بظهورِ الخطأِ أو التردُّدِ في كونِه هو الصَّواب).

((تفسير المنار)) (376/11).

فَإِن تَوَلَّيْتُمْ فَمَا سَأَلْتُكُم مِّنْ أَجْرٍ.

أي: قال نوحٌ لِقَومِه: فإن أعرَضْتُم– يا قومِ– عن دَعوتي لكم إلى توحيدِ اللهِ وطاعتِه، فإنِّي لم أسألْكم على دَعوتي مالًا، حتى تُعرِضوا عن الحَقّ.

إِنْ أَجْرِيَ إِلاَّ عَلَى اللهِ.

أي: ما ثَوابي على دَعوتِكم إلى الحَقِّ إلَّا على اللهِ الذي أرسَلَني إليكم، ولا أريدُ ثوابًا مِن غيرِه.

وَأُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ مِنَ الْمُسْلِمِينَ.

أي: وأمَرَني اللهُ أن أكونَ مِن المُستَسلمينَ له، الموحِّدينَ المُنقادينَ له بالطَّاعةِ، وأنا مُمتَثِلٌ ما أمَرَني به.

فَكَذَّبُوهُ فَنَجَّيْنَاهُ وَمَن مَّعَهُ فِي الْفُلْكِ وَجَعَلْنَاهُمْ خَلاَئِفَ وَأَغْرَقْنَا الَّذِينَ كَذَّبُواْ بِآيَاتِنَا فَانظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُنذَرِينَ (73).

فَكَذَّبُوهُ فَنَجَّيْنَاهُ وَمَن مَّعَهُ فِي الْفُلْكِ.

أي: فكذَّب نوحًا قومُه، فنجَّيناه مِن الغَرَق هو ومَن معه على دينِه، ممَّن حُمِلَ معه في السَّفينة.

وَجَعَلْنَاهُمْ خَلاَئِف.

أي: وجعَلْنا مَن نجَّينا في السَّفينةِ مع نوحٍ خلائِفَ في الأرضِ، يخلُفُ بَعضُهم بعضًا بعد إغراقِ قَومِ نُوحٍ.

وَأَغْرَقْنَا الَّذِينَ كَذَّبُواْ بِآيَاتِنَا.

أي: وأغرَقْنا بالطُّوفانِ قَومَ نوحٍ؛ لأنهم كذَّبوا برسالةِ نوحٍ عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ.

كما قال تعالى: فَكَذَّبُوهُ فَأَنْجَيْنَاهُ وَالَّذِينَ مَعَهُ فِي الْفُلْكِ وَأَغْرَقْنَا الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا إِنَّهُمْ كَانُوا قَوْمًا عَمِينَ [الأعراف: 64].

وقال سُبحانه: وَقَوْمَ نُوحٍ لَمَّا كَذَّبُوا الرُّسُلَ أَغْرَقْنَاهُمْ [الفرقان: 37].

فَانظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُنذَرِينَ.

أي: فانظُرْ- يا محمَّدُ- كيف كان آخِرُ أمرِ القَومِ الذين أنذَرهم نوحٌ عِقابَنا على شِرْكِهم باللهِ وتكذيبِهم لِرَسولِه؛ أعقبَهم ذلك أنَّا أهلَكْناهم.

كما قال تعالى: قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِكُمْ سُنَنٌ فَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَانْظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُكَذِّبِينَ [آل عمران: 137].

سُورةُ يُونُس

الآيات (74-78)

ثُمَّ بَعَثْنَا مِنْ بَعْدِهِ رُسُلًا إِلَى قَوْمِهِمْ فَجَاءُوهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ فَمَا كَانُوا لِيُؤْمِنُوا بِمَا كَذَّبُوا بِهِ مِنْ قَبْلُ كَذَلِكَ نَطْبَعُ عَلَى قُلُوبِ الْمُعْتَدِينَ (74) ثُمَّ بَعَثْنَا مِنْ بَعْدِهِمْ مُوسَى وَهَارُونَ إِلَى فِرْعَوْنَ وَمَلَئِهِ بِآيَاتِنَا فَاسْتَكْبَرُوا وَكَانُوا قَوْمًا مُجْرِمِينَ (75) فَلَمَّا جَاءَهُمُ الْحَقُّ مِنْ عِنْدِنَا قَالُوا إِنَّ هَذَا لَسِحْرٌ مُبِينٌ (76) قَالَ مُوسَى أَتَقُولُونَ لِلْحَقِّ لَمَّا جَاءَكُمْ أَسِحْرٌ هَذَا وَلَا يُفْلِحُ السَّاحِرُونَ (77) قَالُوا أَجِئْتَنَا لِتَلْفِتَنَا عَمَّا وَجَدْنَا عَلَيْهِ آبَاءَنَا وَتَكُونَ لَكُمَا الْكِبْرِيَاءُ فِي الْأَرْضِ وَمَا نَحْنُ لَكُمَا بِمُؤْمِنِينَ (78)

غريب الكلمات:

وَمَلَئِهِ: الملأ: أشرافُ النَّاسِ ووجُوهُهم، أو الجماعةُ يجتمعونَ على رأيٍ، فيملؤونَ العيونَ منظرًا، والنفوسَ بهاءً وجلالًا، ويُقالُ: فلانٌ ملءُ العيونِ، أي: معظَّمٌ عندَ مَن رآه، وقيل: وُصِفوا بذلك؛ لأنَّهم يتمالئونَ، أي: يتظاهرونَ عليه، وأصلُ (ملأ): يدلُّ على المساواةِ، والكمالِ في الشيءِ.

لِتَلْفِتَنَا: أي: لتَصْرِفَنا، والالتفاتُ: الانصرافُ عمَّا كنتَ مُقبِلًا عليه، وأصلُ (لفت): يدلُّ على اللَّيِّ، وصَرفِ الشَّيءِ عن جِهتِه المُستَقيمةِ.

تفسير الآيات:

ثُمَّ بَعَثْنَا مِن بَعْدِهِ رُسُلاً إِلَى قَوْمِهِمْ فَجَآؤُوهُم بِالْبَيِّنَاتِ فَمَا كَانُواْ لِيُؤْمِنُواْ بِمَا كَذَّبُواْ بِهِ مِن قَبْلُ كَذَلِكَ نَطْبَعُ عَلَى قُلوبِ الْمُعْتَدِينَ (74).

ثُمَّ بَعَثْنَا مِن بَعْدِهِ رُسُلاً إِلَى قَوْمِهِمْ فَجَآؤُوهُم بِالْبَيِّنَاتِ.

أي: ثمَّ أرسَلْنا من بعدِ نوحٍ رُسُلًا إلى قَومِهم، فجاؤوهم بالمُعجزاتِ، والبَراهينِ الواضحةِ الدالَّةِ على صِدقِهم.

فَمَا كَانُواْ لِيُؤْمِنُواْ بِمَا كَذَّبُواْ بِهِ مِن قَبْلُ.

أي: فما كان المُشرِكونَ لِيُؤمِنوا بما جاءتهم به رسُلُهم؛ بسبَبِ تكذيبِهم بالحَقِّ حين جاءَهم أوَّلَ مرَّةٍ.

كما قال تعالى: وَنُقَلِّبُ أَفْئِدَتَهُمْ وَأَبْصَارَهُمْ كَمَا لَمْ يُؤْمِنُوا بِهِ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَنَذَرُهُمْ فِي طُغْيَانِهِمْ يَعْمَهُونَ [الأنعام: 110].

كَذَلِكَ نَطْبَعُ عَلَى قُلوبِ الْمُعْتَدِينَ.

أي: كما خَتَمْنا على قلوبِ السَّابِقينَ فلم يُؤمِنوا، نختِمُ أيضًا على قلوبِ المُجاوِزينَ الحَدَّ بالشِّركِ، وتكذيبِ الرُّسُلِ، فلا يؤمِنون؛ عقوبةً لهم.

كما قال تعالى: تِلْكَ الْقُرَى نَقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنْبَائِهَا وَلَقَدْ جَاءَتْهُمْ رُسُلُهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ فَمَا كَانُوا لِيُؤْمِنُوا بِمَا كَذَّبُوا مِنْ قَبْلُ كَذَلِكَ يَطْبَعُ اللَّهُ عَلَى قُلُوبِ الْكَافِرِينَ [الأعراف: 101].

ثُمَّ بَعَثْنَا مِن بَعْدِهِم مُّوسَى وَهَارُونَ إِلَى فِرْعَوْنَ وَمَلَئِهِ بِآيَاتِنَا فَاسْتَكْبَرُواْ وَكَانُواْ قَوْمًا مُّجْرِمِينَ

(75).

ثُمَّ بَعَثْنَا مِن بَعْدِهِم مُّوسَى وَهَارُونَ إِلَى فِرْعَوْنَ وَمَلَئِهِ بِآيَاتِنَا فَاسْتَكْبَرُواْ.

أي: ثمَّ أرسَلْنا من بعد الأنبياءِ الذين جاؤوا بعدَ نوحٍ، موسى وهارونَ إلى فِرعونَ والأشرافِ مِن قَومِه بمُعجِزاتِنا الواضحةِ، فكذَّبوا بها، واستكبَروا عن اتِّباعِ الحَقّ.

كما قال تعالى: ثُمَّ بَعَثْنَا مِنْ بَعْدِهِمْ مُوسَى بِآيَاتِنَا إِلَى فِرْعَوْنَ وَمَلَئِهِ فَظَلَمُوا بِهَا فَانْظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُفْسِدِينَ [الأعراف: 103].

وَكَانُواْ قَوْمًا مُّجْرِمِينَ.

أي: وكان فِرعونُ وقَومُه أصحابَ ذُنوبٍ كبيرةٍ وآثامٍ عظيمةٍ؛ ولذلك استكبَروا عن اتِّباعِ الحَقّ.

كما قال تعالى: إِنَّ فِرْعَوْنَ عَلَا فِي الْأَرْضِ وَجَعَلَ أَهْلَهَا شِيَعًا يَسْتَضْعِفُ طَائِفَةً مِنْهُمْ يُذَبِّحُ أَبْنَاءَهُمْ وَيَسْتَحْيِي نِسَاءَهُمْ إِنَّهُ كَانَ مِنَ الْمُفْسِدِينَ [القصص: 4].

وقال سُبحانه: فَاسْتَخَفَّ قَوْمَهُ فَأَطَاعُوهُ إِنَّهُمْ كَانُوا قَوْمًا فَاسِقِينَ [الزخرف: 54].

فَلَمَّا جَاءهُمُ الْحَقُّ مِنْ عِندِنَا قَالُواْ إِنَّ هَذَا لَسِحْرٌ مُّبِينٌ (76).

أي: فلمَّا جاءَتْهم المُعجزاتُ الواضحةُ التي أيَّدنا بها موسى، قالوا: إنَّ هذا الَّذي جاء به موسى لَسِحْرٌ ظاهِرٌ!!

كما قال تعالى: وَأَدْخِلْ يَدَكَ فِي جَيْبِكَ تَخْرُجْ بَيْضَاءَ مِنْ غَيْرِ سُوءٍ فِي تِسْعِ آيَاتٍ إِلَى فِرْعَوْنَ وَقَوْمِهِ إِنَّهُمْ كَانُوا قَوْمًا فَاسِقِينَ * فَلَمَّا جَاءَتْهُمْ آيَاتُنَا مُبْصِرَةً قَالُوا هَذَا سِحْرٌ مُبِينٌ * وَجَحَدُوا بِهَا وَاسْتَيْقَنَتْهَا أَنْفُسُهُمْ ظُلْمًا وَعُلُوًّا فَانْظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُفْسِدِينَ [النمل: 12– 14].

وقال سُبحانه: وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مُوسَى بِآيَاتِنَا وَسُلْطَانٍ مُبِينٍ * إِلَى فِرْعَوْنَ وَهَامَانَ وَقَارُونَ فَقَالُوا سَاحِرٌ كَذَّابٌ [غافر: 23–24].

قَالَ مُوسَى أَتَقُولُونَ لِلْحَقِّ لَمَّا جَاءكُمْ أَسِحْرٌ هَذَا وَلاَ يُفْلِحُ السَّاحِرُونَ (77).

قَالَ مُوسَى أَتَقُولُونَ لِلْحَقِّ لَمَّا جَاءكُمْ أَسِحْرٌ هَذَا.

أي: قال موسى لهم مُنكِرًا عليهم ومُوبِّخًا لهم: أتقولونَ عن المُعجزاتِ التي جِئتُكم بها: إنَّها سِحرٌ مُبينٌ؟! أسِحرٌ هذا الحَقُّ الذي تُبصِرونه؟!

وَلاَ يُفْلِحُ السَّاحِرُونَ.

أي: ولا ينجو السَّاحِرونَ، ولا يفوزونَ في الدُّنيا ولا في الآخرةِ.

كما قال تعالى: إِنَّمَا صَنَعُوا كَيْدُ سَاحِرٍ وَلَا يُفْلِحُ السَّاحِرُ حَيْثُ أَتَى [طه: 69].

قَالُوٓاْ أَجِئْتَنَا لِتَلْفِتَنَا عَمَّا وَجَدْنَا عَلَيْهِ آبَاءنَا وَتَكُونَ لَكُمَا الْكِبْرِيَاء فِي الأَرْضِ وَمَا نَحْنُ لَكُمَا بِمُؤْمِنِينَ (78).

قَالُوٓاْ أَجِئْتَنَا لِتَلْفِتَنَا عَمَّا وَجَدْنَا عَلَيْهِ آبَاءنَا.

أي: قالوا: أجئتَنا- يا موسى- لِتصرِفَنا بسِحرِك عن دينِنا الذي وَجَدْنا عليه آباءَنا مِن قبلِ مجيئِك، وتأمُرَنا أن نَعبُدَ اللهَ وحده، ونترك عبادةَ آلهتِنا؟!

وَتَكُونَ لَكُمَا الْكِبْرِيَاء فِي الأَرْضِ.

أي: ولتكونَ لكما عَظمةُ المُلكِ، وعِزُّ السُّلطانِ في أرضِ مِصرَ؟

وَمَا نَحْنُ لَكُمَا بِمُؤْمِنِينَ.

أي: وقالوا تكبُّرًا وعنادًا: وما نحنُ لكما- يا موسى وهارونُ- بمصدِّقينَ ومُقِرِّينَ بأنَّكما رسولانِ مِن عندِ اللهِ.

كما قال تعالى: وَقَالُوا مَهْمَا تَأْتِنَا بِهِ مِنْ آيَةٍ لِتَسْحَرَنَا بِهَا فَمَا نَحْنُ لَكَ بِمُؤْمِنِينَ * فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمُ الطُّوفَانَ وَالْجَرَادَ وَالْقُمَّلَ وَالضَّفَادِعَ وَالدَّمَ آيَاتٍ مُفَصَّلَاتٍ فَاسْتَكْبَرُوا وَكَانُوا قَوْمًا مُجْرِمِينَ * وَلَمَّا وَقَعَ عَلَيْهِمُ الرِّجْزُ قَالُوا يَا مُوسَى ادْعُ لَنَا رَبَّكَ بِمَا عَهِدَ عِنْدَكَ لَئِنْ كَشَفْتَ عَنَّا الرِّجْزَ لَنُؤْمِنَنَّ لَكَ وَلَنُرْسِلَنَّ مَعَكَ بَنِي إِسْرَائِيلَ * فَلَمَّا كَشَفْنَا عَنْهُمُ الرِّجْزَ إِلَى أَجَلٍ هُمْ بَالِغُوهُ إِذَا هُمْ يَنْكُثُونَ [الأعراف: 132–135].

سُورةُ يُونُس

الآيات (79-82)

وَقَالَ فِرْعَوْنُ ائْتُونِي بِكُلِّ سَاحِرٍ عَلِيمٍ (79) فَلَمَّا جَاءَ السَّحَرَةُ قَالَ لَهُمْ مُوسَى أَلْقُوا مَا أَنْتُمْ مُلْقُونَ (80) فَلَمَّا أَلْقَوْا قَالَ مُوسَى مَا جِئْتُمْ بِهِ السِّحْرُ إِنَّ اللَّهَ سَيُبْطِلُهُ إِنَّ اللَّهَ لَا يُصْلِحُ عَمَلَ الْمُفْسِدِينَ (81) وَيُحِقُّ اللَّهُ الْحَقَّ بِكَلِمَاتِهِ وَلَوْ كَرِهَ الْمُجْرِمُونَ (82)

تفسير الآيات:

وَقَالَ فِرْعَوْنُ ائْتُونِي بِكُلِّ سَاحِرٍ عَلِيمٍ (79).

أي: وقال فِرعونُ لِقَومِه: أحضِروا إليَّ مِن المدائنِ كلَّ ساحرٍ ماهرٍ بالسِّحرِ.

كما قال تعالى: قَالَ الْمَلَأُ مِنْ قَوْمِ فِرْعَوْنَ إِنَّ هَذَا لَسَاحِرٌ عَلِيمٌ * يُرِيدُ أَنْ يُخْرِجَكُمْ مِنْ أَرْضِكُمْ فَمَاذَا تَأْمُرُونَ * قَالُوا أَرْجِهْ وَأَخَاهُ وَأَرْسِلْ فِي الْمَدَائِنِ حَاشِرِينَ * يَأْتُوكَ بِكُلِّ سَاحِرٍ عَلِيمٍ [الأعراف: 109-112].

فَلَمَّا جَاءَ السَّحَرَةُ قَالَ لَهُم مُّوسَى أَلْقُواْ مَا أَنتُم مُّلْقُونَ (80).

أي: فلمَّا جاء السَّحرةُ قال لهم موسى: اطرَحوا على الأرضِ ما تريدون طرحَه، مما مَعَكم من الحِبالِ والعِصِيِّ.

كما قال تعالى: وَجَاءَ السَّحَرَةُ فِرْعَوْنَ قَالُوا إِنَّ لَنَا لَأَجْرًا إِنْ كُنَّا نَحْنُ الْغَالِبِينَ * قَالَ نَعَمْ وَإِنَّكُمْ لَمِنَ الْمُقَرَّبِينَ * قَالُوا يَا مُوسَى إِمَّا أَنْ تُلْقِيَ وَإِمَّا أَنْ نَكُونَ نَحْنُ الْمُلْقِينَ * قَالَ أَلْقُوا [الأعراف: 113-116].

وقال سُبحانه: قَالُوا يَا مُوسَى إِمَّا أَنْ تُلْقِيَ وَإِمَّا أَنْ نَكُونَ أَوَّلَ مَنْ أَلْقَى * قَالَ بَلْ أَلْقُوا فَإِذَا حِبَالُهُمْ وَعِصِيُّهُمْ يُخَيَّلُ إِلَيْهِ مِنْ سِحْرِهِمْ أَنَّهَا تَسْعَى [طه: 65-66].

﴿فَلَمَّا أَلْقَوْاْ قَالَ مُوسَى مَا جِئْتُم بِهِ السِّحْرُ إِنَّ اللّهَ سَيُبْطِلُهُ إِنَّ اللّهَ لاَ يُصْلِحُ عَمَلَ الْمُفْسِدِينَ (81)﴾.

فَلَمَّا أَلْقَواْ قَالَ مُوسَى مَا جِئْتُم بِهِ السِّحْرُ.

أي: فلمَّا ألقَى السَّحرةُ حِبالَهم وعِصيَّهم، وسَحَروا أعيُنَ النَّاسِ، قال موسى للسَّحَرةِ: الذي جِئتُم به هو السِّحرُ، وليس ما جئتُكم به ممَّا أسمَيتُموه سِحرًا.

القِراءاتُ ذاتُ الأثَرِ في التَّفسيرِ:

1- قِراءةُ آلسِّحْرُ بالمَدِّ والهَمزِ، على أنَّ الاستفهامَ مِن موسى للسَّحَرةِ عما جاؤوا به، أسِحرٌ هو أم غيرُه؟ فهو استفهامٌ على جهةِ التَّوبيخِ؛ لأنَّهم قد عَلِموا أنَّه سِحرٌ.[69]

2- قِراءةُ السِّحْرُ بألف وصلٍ مِن غَيرِ مَدٍّ ولا همزٍ، على وجهِ الخَبَرِ مِن موسى أنَّ الذي جاء به سَحَرةُ فِرعونَ هو السِّحرُ، لا ما جاء به موسى.[70]

---

(69) قرأ بها أبو عمرٍو، وأبو جعفرٍ.
يُنظر: ((النشر)) لابن الجزري (1/378).
ويُنظر لمعنَى هذه القراءةِ: ((الحجة في القراءات السبع)) لابن خالويه (ص: 183)، ((حجة القراءات)) لابن زنجلة (ص: 335)، ((البسيط)) للواحدي (11/279).

(70) قرأ بها الباقون.
يُنظر: ((النشر)) لابن الجزري (1/378).
ويُنظر لمعنَى هذه القراءةِ: ((تفسير ابن جرير)) (12/242)، ((الحجة في القراءات السبع)) لابن خالويه (ص: 183)، ((حجة القراءات)) لابن زنجلة (ص: 335).

إِنَّ اللَّهَ سَيُبْطِلُهُ.

أي: إنَّ اللهَ سيُذهِبُ سِحرَكم، ويُظهِرُ بُطلانَه للنَّاسِ بما يُظهِرُه على يَدي من المعجزةِ.

كما قال تعالى: فَلَمَّا أَلْقَوْا سَحَرُوا أَعْيُنَ النَّاسِ وَاسْتَرْهَبُوهُمْ وَجَاءُوا بِسِحْرٍ عَظِيمٍ * وَأَوْحَيْنَا إِلَى مُوسَى أَنْ أَلْقِ عَصَاكَ فَإِذَا هِيَ تَلْقَفُ مَا يَأْفِكُونَ * فَوَقَعَ الْحَقُّ وَبَطَلَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ * فَغُلِبُوا هُنَالِكَ وَانْقَلَبُوا صَاغِرِينَ [الأعراف: 116–119].

إِنَّ اللَّهَ لَا يُصْلِحُ عَمَلَ الْمُفْسِدِينَ.

أي: إنَّ اللهَ لا يُصلِحُ أعمالَ الذين يَسعَونَ في أرضِ اللهِ بما يَكرَهُه كالسَّحَرةِ، فلا يُتِمُّها لهم فينتَفِعونَ بها، ولا يثيبُهم عليها.(71)

---

(71) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (244/12)، ((البسيط)) للواحدي (279/11)، ((تفسير أبي السعود)) (170/4)، ((تفسير ابن عاشور)) (257/11).

قال ابنُ عطيةَ: (قوله: إِنَّ اللَّهَ لَا يُصْلِحُ عَمَلَ الْمُفْسِدِينَ يصِحُّ أن يكونَ مِن كلامِ موسى عليه السَّلامُ، ويصِحُّ أن يكونَ ابتداءَ خَبَرٍ من اللهِ تعالى).

((تفسير ابن عطية)) (136/3).

وقال ابنُ عاشورٍ: (إنما كان السحرةُ مفسدينَ؛ لأنَّ قصدَهم تضليلُ عقولِ الناسِ؛ ليكونوا مسخَّرين لهم، ولا يعلموا أسبابَ الأشياءِ، فيبقوا آلةً فيما تأمرُهم السحرةُ، ولا يهتدوا إلى إصلاحِ أنفسِهم سبيلًا، أمَّا السحرةُ الذين خاطَبهم موسَى عليه السلام فإفسادُهم أظهرُ؛ لأنَّهم يُحاوِلونَ إبطالَ دَعوةِ الحَقِّ والدِّينِ القَويمِ، وترويجَ الشِّركِ والضَّلالاتِ).

((تفسير ابن عاشور)) (257/11).

وَيُحِقُّ اللَّهُ الْحَقَّ بِكَلِمَاتِهِ وَلَوْ كَرِهَ الْمُجْرِمُونَ (82).

وَيُحِقُّ اللَّهُ الْحَقَّ بِكَلِمَاتِهِ.

أي: ويُثبِّتُ اللهُ الحقَّ الذي جاء مِن عندِه، ويُوضِّحُه ويُظهِرُه على مَن خالَفَه، بكَلِماتِه الكونيَّةِ، وكَلِماتِه التنزيليَّةِ التي يُوحيها إلى رسلِه، ومِنها الإخبارُ بإظهارِ الحقِّ وإعزازِه.

كما قال تعالى: وَيُرِيدُ اللَّهُ أَنْ يُحِقَّ الْحَقَّ بِكَلِمَاتِهِ وَيَقْطَعَ دَابِرَ الْكَافِرِينَ * لِيُحِقَّ الْحَقَّ وَيُبْطِلَ الْبَاطِلَ وَلَوْ كَرِهَ الْمُجْرِمُونَ [الأنفال: 7–8].

وَلَوْ كَرِهَ الْمُجْرِمُونَ.

أي: يُحِقُّ اللهُ الحَقَّ وإن كَرِه العُصاةُ الآثمونَ ذلك.

سُورةُ يُونُس

الآيات (83–86)

فَمَا آمَنَ لِمُوسَى إِلَّا ذُرِّيَّةٌ مِنْ قَوْمِهِ عَلَى خَوْفٍ مِنْ فِرْعَوْنَ وَمَلَئِهِمْ أَنْ يَفْتِنَهُمْ وَإِنَّ فِرْعَوْنَ لَعَالٍ فِي الْأَرْضِ وَإِنَّهُ لَمِنَ الْمُسْرِفِينَ (83) وَقَالَ مُوسَى يَا قَوْمِ إِنْ كُنْتُمْ آمَنْتُمْ بِاللَّهِ فَعَلَيْهِ تَوَكَّلُوا إِنْ كُنْتُمْ مُسْلِمِينَ (84) فَقَالُوا عَلَى اللَّهِ تَوَكَّلْنَا رَبَّنَا لَا تَجْعَلْنَا فِتْنَةً لِلْقَوْمِ الظَّالِمِينَ (85) وَنَجِّنَا بِرَحْمَتِكَ مِنَ الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ (86)

غريب الكلمات:

ذُرِّيَّةٌ: الذُرِّيَّةُ: الأولادُ وأولادُ الأولادِ، فهي اسمٌ يَجمعُ نَسلَ الإنسانِ مِن ذَكَرٍ وأُنثَى، قيل: أصلُها مِن ذرأ، أي: خلَق؛ لأنَّها خلقُ الله، وحُذِفت الهمزةُ منها، وقيل: أصلُها مِن الذَّرِّ، بمعنَى التَّفريقِ؛ لأنَّ اللَّه تعالى ذَرَّهم في الأرضِ.

يَفْتِنَهُمْ: أي: يَقتُلَهم ويُعَذِّبَهم، وأصلُ (فتن): يدُلُّ على ابتلاءٍ واختبارٍ.

تفسير الآيات:

فَمَا آمَنَ لِمُوسَى إِلاَّ ذُرِّيَّةٌ مِّن قَوْمِهِ عَلَى خَوْفٍ مِّن فِرْعَوْنَ وَمَلَئِهِمْ أَن يَفْتِنَهُمْ وَإِنَّ فِرْعَوْنَ لَعَالٍ فِي الأَرْضِ وَإِنَّهُ لَمِنَ الْمُسْرِفِينَ (83).

فَمَا آمَنَ لِمُوسَى إِلاَّ ذُرِّيَّةٌ مِّن قَوْمِهِ.

أي: فلم يصدِّقْ بموسى في أوَّلِ دَعوتِه، ويُقِرَّ له بالنبوَّةِ إلَّا قَليلٌ مِن أولادِ قَومِه بني إسرائيلَ.[72]

---

(72) اختُلِف في المراد بالذّرّيّة في قوله تعالى: ﴿فما آمَنَ لِمُوسى إلّا ذُرِّيَّةٌ مِن قَوْمِهِ﴾ على أربعة أقوال: أولها: أنهم أولاد مَن مات مِن بني إسرائيل -لطولِ الزمان- مِن الذين أُرسِل إليهم موسى – عليه السلام –.

وهذا قول مجاهد بن جبر، والأعمش.

وثانيها: أنهم الغلمان من بني إسرائيل؛ لأن فرعون كان يذبحهم فأسرعوا إلى الإيمان بموسى.

وهذا قول زيد بن أسلم.

وثالثها: أنهم مَن آمن مِن قوم فرعون، لا مِن بني إسرائيل.

وهذا قول لعبد الله بن عباس.

ورابعها: أنّ المراد بالذّرّيّة: القليل.

وهو قول عبد الله بن عباس من طريق قتادة بن دعامة، والضحاك بن مزاحم.

ورجَّحَ ابنُ جرير (١٢/ ٢٤٧) القولَ الأولَ -وهو قول مجاهد بن جبر، والأعمش-، وانتَقَدَ القولَ بأنّهم مَن آمن مِن قوم فرعون؛ استنادًا إلى اللغة، والسياق، فقال: «وإنما قلت: هذا القولُ أولى بالصواب في ذلك؛ لأنه لم يَجْرِ في هذه الآية ذكرٌ لغير موسى، فَلَأن تكون الهاء في قوله: ﴿من قومه﴾ مِن ذِكْرِ موسى -لِقُربِها مِن ذِكْرِه- أولى مِن أن تكون من ذِكْرِ فرعون؛ لبعد ذِكْرِه منها؛ إذ لم يكن بخلاف ذلك دليلٌ من خبرٍ ولا نظرٍ.

وبعدُ، فإنّ في قوله: ﴿على خوف من فرعون وملئهم﴾ الدليلُ الواضح على أنّ الهاء في قوله: ﴿إلا ذرية من قومه﴾ من ذِكْر موسى، لا من ذِكْرِ فرعون؛ لأنّها لو كانت من ذِكْرِ فرعون لكان الكلام: على خوف منه.

ولم يكن: ﴿على خوف من فرعون﴾».

ورجَّحَ ابنُ عطية (٤/ ٥١٤ – ٥١٥ بتصرف) القولَ الثالثَ، وانتَقَدَ القولَ الأولَ استنادًا إلى المعروف مِن أخبار بني إسرائيل، والدلالة العقلية، والسياق، فقال: «هذا قول غير واضح، وإذا آمن قومٌ بعد موت آبائهم فلا معنى لتخصيصهم باسم

عَلَى خَوْفٍ مِّن فِرْعَوْنَ وَمَلَئِهِمْ أَن يَفْتِنَهُمْ.

أي: آمَنوا وهم خائفونَ مِن فِرعونَ ومِن أشرافِ قَومِهم- الذين كانوا على مِثلِ ما كان عليه فرعونُ- أن يَصرِفَهم فِرعونُ عن اتِّباعِ الحَقِّ، بمِحنةٍ وبليَّةٍ يُوقِعُها عليهم.

ثم بيَّن أسبابَ خوفِهم منه بقولِه:

وَإِنَّ فِرْعَوْنَ لَعَالٍ فِي الأَرْضِ وَإِنَّهُ لَمِنَ الْمُسْرِفِينَ.

أي: وإنَّ فِرعونَ لجبَّارٌ، متكبِّرٌ على الحَقِّ والخَلْقِ في أرضِ مِصرَ، وإنَّه لَمِنَ المجاوزينَ الحدَّ في الكُفرِ والقَتلِ والبَغيِ.

وَقَالَ مُوسَى يَا قَوْمِ إِن كُنتُمْ آمَنتُم بِاللّهِ فَعَلَيْهِ تَوَكَّلُواْ إِن كُنتُم مُّسْلِمِينَ (84).

أي: وقال موسى لِقَومِه بني إسرائيلَ: يا قومِ، إن كُنتم آمَنتُم باللهِ حقًّا فاعتَمِدوا عليه وَحْدَه في نَصْرِكم، ودَفْعِ الضُّرِّ عنكم، وبه ثِقوا، ولأمْرِه سَلِّموا، إن كنتم مُذعِنينَ له بالطَّاعةِ.

الذرية، ومما يضعف عود الضمير على موسى أنّ المعروف من أخبار بني إسرائيل أنهم كانوا قومًا قد تقدمت فيهم النبوات، وكانوا في مُدَّة فرعون قد نالهم ذُلٌّ مُفْرِط، وقد رجوا كشفه على يد مولودٍ يخرج فيهم يكون نبيًّا، فلما جاءهم موسى – عليه السلام – أصفقوا عليه واتبعوه، ولم يُحْفَظ قطُّ أنّ طائفة من بني إسرائيل كفرت به، فكيف تعطي هذه الآية أنّ الأقل منهم كان الذي آمن؟! ويؤيد [ما قلنا] أيضًا ما تقدَّم مِن محاورة موسى وردِّه عليهم وتوبيخهم على قولهم: هذا سحر. فذكر الله ذلك عنهم، ثم قال: ﴿فما آمن لموسى إلا ذرية﴾ مِن قوم فرعون الذين هذه أقوالهم».

ونحا نَحوَه ابنُ كثير (٧/ ٣٩٠).

فَقَالُواْ عَلَى اللّهِ تَوَكَّلْنَا رَبَّنَا لاَ تَجْعَلْنَا فِتْنَةً لِّلْقَوْمِ الظَّالِمِينَ (85).

فَقَالُواْ عَلَى اللّهِ تَوَكَّلْنَا.

أي: فقال بنو إسرائيلَ: على اللهِ وَحْدَه اعتَمَدْنا، وإليه فوَّضْنا أمْرَنا.

رَبَّنَا لاَ تَجْعَلْنَا فِتْنَةً لِّلْقَوْمِ الظَّالِمِينَ.

أي: قال قَومُ موسى عليه السَّلامُ: ربَّنا؛ لا تُظفِر الكافرينَ بنا، وتُسَلِّطْهم علينا، فيَعتَقِدوا أنَّ غَلَبَتهم علينا لم تقَعْ إلَّا لأنَّهم على الحَقِّ، ونحن على الباطِلِ، فيُفتَنوا بذلك، ويُعرِضوا عن الإقرارِ بالحَقِّ واتِّباعِه.(73)

---

(73) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (96/6)، ((تفسير البيضاوي)) (122/3)، ((تفسير الشربيني)) (33/2)، ((تفسير القاسمي)) (55/6).

ومن اختار المعنَى المذكورَ: أبو حيانَ، والبيضاوي، والشربيني، والقاسمي، تُنظر: المصادر السابقة.

وممن قال بهذا القولِ مِن السَّلفِ: مجاهدٌ في الروايةِ الثانيةِ عنه.

يُنظر: ((تفسير ابن أبي حاتم)) (1976/6)، ((تفسير ابن جرير)) (252/12).

قال محمد رشيد رضا: (ولفظُ (فتنة) هنا يحتملُ معنَى (الفاتن) و(المفتون)، فكأنَّهم قالوا: ربَّنا لا تُسلِّطْهم علينا فيفتنونا، ولا تفتنَّا بهم فنتولَّى عن اتباعِ نبيِّنا، أو نضعف فيه؛ فرارًا مِن شدةِ ظلمِهم لنا، ولا تفتنْهم بنا فيزدادوا كفرًا وعنادًا وظلمًا بظهورِهم علينا، ويظنُّوا أنَّهم على الحقِّ، وأنَّنا على الباطِلِ).

((تفسير المنار)) (384/11).

قال ابنُ عطية (٤/ ٥١٦): «هذا الدعاء على هذا التأويل يتضمن دفع فصلين: أحدهما: القتل والبلاء الذي تَوَقَّعه المؤمنون. والآخر: ظهور الشرك باعتقاد أهلِه أنَّهم أهل الحق، وفي ذلك فساد الأرض.

ونحو هذا المعنى قول النبي – ﷺ –: «بئس الميت أبو أمامة ليهود والمشركين؛ يقولون لو كان نبيًّا لم يمت صاحبه»».

اختُلِف في تأويل قوله تعالى: ﴿ربنا لا تجعلنا فتنة للقوم الظالمين﴾ على قولين: أحدهما: أنّ المعنى: لا تُسلِّطهم علينا فيفتتنون بنا لظنّهم أنَّهم على حقٍّ.

أو: ربَّنا؛ لا تُسَلِّطْهم علينا فيَفْتنونا عن دينِنا.

وَنَجِّنَا بِرَحْمَتِكَ مِنَ الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ (86).

أي: وخلِّصْنا– يا رَبَّنا– برَحمتِك مِن بَطشِ وسُلطانِ قَومِ فِرعونَ الكافرينَ.

والآخر: لا تسلطهم علينا فيفتنونا.

وذَهَب ابنُ جرير (١٢/ ٢٥٣ – ٢٥٤) إلى أنّ القوم استعاذوا بالله من كل معنًى يكون صادًّا لقوم فرعون عن الإيمان بالله بأسبابهم، فقال: «الصواب من القول في ذلك أن يُقال: إنّ القوم رغبوا إلى الله في أن يُجيرهم مِن أن يكونوا مِحْنَةً لقوم فرعون وبلاءً، وكلُّ ما كان مِن أمرٍ كان لهم مصدَّة عن اتباع موسى والإقرار به، وبما جاءهم به، فإنّه لا شك أنّه كان لهم فتنة، وكان مِن أعظم ذلك أن يُسلّطوا عليهم؛ فإنّ ذلك كان لا شكَّ –لو كان– مِن أعظم الأمور لهم إبعادًا من الإيمان بالله ورسوله. وكذلك من المصدَّة كان لهم عن الإيمان: أن لو كان قوم موسى عاجلتهم مِن الله محنةٌ في أنفسهم مِن بَلِيَّة تنزل بهم، فاستعاذ القومُ بالله مِن كل معنًى يكون صادًّا لقوم فرعون عن الإيمان بالله بأسبابهم».

وذكر ابنُ عطية (٤/ ١٣٨) قولًا ثالثًا، ثم انتقَدَه، فقال: «ويحتمل اللفظ من التأويل –وقد قالته فرقة– أنّ المعنى: لا تفتنهم وتبتلهم بقتلنا، فتعذبهم على ذلك في الآخرة.

وفي هذا التأويل قَلَقٌ بَيِّنٌ».

سُورَةُ يُونُس

الآيات (87–89)

وَأَوْحَيْنَا إِلَى مُوسَى وَأَخِيهِ أَنْ تَبَوَّآ لِقَوْمِكُمَا بِمِصْرَ بُيُوتًا وَاجْعَلُوا بُيُوتَكُمْ قِبْلَةً وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَبَشِّرِ الْمُؤْمِنِينَ (87) وَقَالَ مُوسَى رَبَّنَا إِنَّكَ آتَيْتَ فِرْعَوْنَ وَمَلَأَهُ زِينَةً وَأَمْوَالًا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا رَبَّنَا لِيُضِلُّوا عَنْ سَبِيلِكَ رَبَّنَا اطْمِسْ عَلَى أَمْوَالِهِمْ وَاشْدُدْ عَلَى قُلُوبِهِمْ فَلَا يُؤْمِنُوا حَتَّى يَرَوُا الْعَذَابَ الْأَلِيمَ (88) قَالَ قَدْ أُجِيبَتْ دَعْوَتُكُمَا فَاسْتَقِيمَا وَلَا تَتَّبِعَانِّ سَبِيلَ الَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ (89)

غريب الكلمات:

تَبَوَّآ: أي: اتَّخِذا، وأصلُ (بوأ): يدُلُّ على رجوعٍ إلى الشَّيءِ.

قِبْلَةً: أي: مَساجِدَ، وأصلُ (قبل): يدلُّ على مواجهةِ الشَّيءِ للشَّيءِ.

زِينَةً: الزِّينةُ: اسمٌ لكلِّ ما يُتَزَيَّنُ به: مِن مَلْبوسٍ ومركوبٍ وحِلْيَةٍ وفِراشٍ وسِلاحٍ، والزَّينُ نَقيضُ الشَّينِ، يُقال: زانَه كذا، وزَيَّنه: إذا أظْهَر حُسنَه؛ إمَّا بالفِعل، أو بالقولِ، وأصلُ (زين) يدلُّ على حُسنِ الشَّيءِ وتَحسينِه.

اطْمِسْ عَلَى أَمْوَالِهِمْ: أي: أهلِكْها، وأذهِبْ آثارَها. وأصلُ (طمس): يدلُّ على مَحوِ الشَّيءِ، ومَسحِه.

تفسير الآيات:

وَأَوْحَيْنَا إِلَى مُوسَى وَأَخِيهِ أَن تَبَوَّءَا لِقَوْمِكُمَا بِمِصْرَ بُيُوتًا وَاجْعَلُواْ بُيُوتَكُمْ قِبْلَةً وَأَقِيمُواْ الصَّلاَةَ وَبَشِّرِ الْمُؤْمِنِينَ (87).

وَأَوْحَيْنَا إِلَى مُوسَى وَأَخِيهِ أَن تَبَوَّءَا لِقَوْمِكُمَا بِمِصْرَ بُيُوتًا.

أي: وأوحَينا إلى موسى وأخيه هارونَ أن اتَّخِذا لِقَومِكما بني إسرائيلَ في أرضِ مِصرَ مساكِنَ.

وَاجْعَلُواْ بُيُوتَكُمْ قِبْلَةً.

أي: واجعَلوا مَساكِنَكم مساجِدَ تصلُّونَ فيها.(74)

---

(74) قال ابنُ كثير (٧/ ٣٩٢ بتصرف): «كأنّ هذا –والله أعلم– لَمّا اشتد بهم البلاء مِن قِبَلِ فرعون وقومه، وضيَّقوا عليهم، أُمِرُوا بكثرة الصلاة، كما قال تعالى: ﴿يا أيها الذين آمنوا استعينوا بالصبر والصلاة﴾ [البقرة: ١٥٣]، وفي الحديث: «كان رسول الله – ﷺ – إذا حَزَبَه أمْرٌ صَلّى».

ولهذا قال تعالى في هذه الآية: ﴿واجعلوا بيوتكم قبلة وأقيموا الصلاة وبشر المؤمنين﴾ أي: بالثواب، والنصر القريب».

اختُلِف في تأويل قوله تعالى: ﴿واجْعَلُواْ بُيُوتَكُمْ قِبْلَةً﴾ على ثلاثة أقوال: أولها: واجعلوا بيوتكم مساجد تصلون فيها.

وثانيها: واجعلوا مساجدكم قِبَلَ الكعبة.

وثالثها: واجعلوا بيوتكم يقابل بعضها بعضًا.

ورجَّح ابنُ جرير (١٢/ ٢٦٠)، وكذا ابنُ عطية (٤/ ٥١٧) القولَ الأولَ –وهو قول ابن عباس من طريق عكرمة، والضحاك، وأبي مالك، ومجاهد، والربيع، وزيد بن أسلم، وإبراهيم النخعيّ–، استنادًا إلى الأغلب من الاستعمالِ في كلامِ العرب، والدلالة العقلية، فقال ابنُ جرير: «ذلك أن الأغلب من معاني البيوت –وإن كانت المساجد بيوتًا–: البيوت المسكونة، إذا ذكرت باسمها المطلق دون المساجد؛ لأنّ المساجد لها اسم هي به معروفة خاصٌّ لها، وذلك: المساجد.

فأمّا البيوت المطلقة بغير وصلها بشيء، ولا إضافتها إلى شيء: فالبيوت المسكونة.

وكذلك القِبْلة، الأغلب من استعمال الناس إيّاها في قِبَلِ المساجد وللصلوات.

وَأَقِيمُواْ الصَّلاَةَ.

أي: وأدُّوا ما أمَرَكم اللهُ به من الصَّلَواتِ بحُدودِها في أوقاتِها.

وَبَشِّرِ الْمُؤْمِنِينَ.

أي: وبَشِّر– يا موسى– المؤمنينَ بالنَّصرِ والثَّوابِ.

وَقَالَ مُوسَى رَبَّنَا إِنَّكَ آتَيْتَ فِرْعَوْنَ وَمَلأهُ زِينَةً وَأَمْوَالاً فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا رَبَّنَا لِيُضِلُّواْ عَن سَبِيلِكَ رَبَّنَا اطْمِسْ عَلَى أَمْوَالِهِمْ وَاشْدُدْ عَلَى قُلُوبِهِمْ فَلاَ يُؤْمِنُواْ حَتَّى يَرَوُاْ الْعَذَابَ الأَلِيمَ (88).

وَقَالَ مُوسَى رَبَّنَا إِنَّكَ آتَيْتَ فِرْعَوْنَ وَمَلأهُ زِينَةً وَأَمْوَالاً فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا.

أي: وقال موسى: يا رَبَّنا إنَّك أعطيتَ فِرعونَ وأشرافَ قَومِه زينةً يتزَيَّنونَ بها، كالأثاثِ، وأنواعِ الحُليِّ، والثِّيابِ، والبيوتِ، والمَراكِبِ، وأعطيتَهم أموالًا كثيرةً في هذه الحياةِ الدُّنيا.

فإذا كان ذلك كذلك، وكان غير جائز توجيه معاني كلام الله إلا إلى الأغلب من وجوهها المستعمل بين أهل اللسان الذي نزل به، دون الخفيّ المجهول، ما لم تأت دلالة تدل على غير ذلك، ولم يكن على قوله: ﴿واجعلوا بيوتكم قبلة﴾ دلالةٌ تقطع العذرَ بأن معناه غير الظاهر المستعمل في كلام العرب؛ لم يَجُزْ لنا توجيهه إلى غير الظاهر الذي وصفنا.
وكذلك القول في قوله: ﴿قِبْلة﴾».

رَبَّنَا لِيُضِلُّواْ عَن سَبِيلِكَ.

أي: قال موسى: يا ربَّنا إنَّك أعطيتَهم الزِّينةَ والأموالَ استدراجًا منك؛ كي تفتِنَهم فيَضِلُّوا ويُضِلُّوا غيرَهم عن اتِّباعِ دينِك؛ عقوبةً منك لهم.

القِراءاتُ ذاتُ الأثَرِ في التَّفسيرِ:

1- قراءةُ لِيُضِلُّوا بمعنى: ليُضِلُّوا النَّاسَ عن سبيلِك، ويَصُدُّوهم عن دينِك.(75)

2- قراءةُ لِيَضِلُّوا بمعنى: ليَضِلُّوا هم أنفُسُهم عن سبيلِك.(76)

رَبَّنَا اطْمِسْ عَلَى أَمْوَالِهِمْ.

أي: يا ربَّنا أتْلِفْ أموالَ فِرعونَ ومَلَئِه، فلا ينتَفِعوا بها.(77)

---

(75) قرأ بها عاصمٌ وحمزةُ والكسائيُّ وخَلَف.
يُنظر: ((النشر)) لابن الجزري (262/2).
ويُنظر لمعنى هذه القراءة: ((تفسير ابن جرير)) (261/12)، ((معاني القراءات)) للأزهري (383/1)، ((حجة القراءات)) لابن زنجلة (ص: 335).

(76) قرأ بها الباقون.
يُنظر: ((النشر)) لابن الجزري (262/2).
ويُنظر لمعنى هذه القراءة: ((تفسير ابن جرير)) (261/12)، ((معاني القراءات)) للأزهري (383/1)، ((حجة القراءات)) لابن زنجلة (ص: 336).

(77) اختُلِف في تأويل قوله تعالى: ﴿ربنا اطمس على أموالهم﴾ على قولين: أحدهما: غَيِّر أموالهم عن هيئتها، وبَدِّلها إلى غير الحال التي هي بها.
والثاني: أهلكها ودمِّرها.

وَاشْدُدْ عَلَى قُلُوبِهِمْ.

أي: واطبعْ– يا ربَّنا– على قلوبِهم بالكُفرِ، واجعَلْها قاسيةً.

فَلاَ يُؤْمِنُواْ حَتَّى يَرَوُاْ الْعَذَابَ الأَلِيمَ.

أي: فلا يُؤمنوا بالحَقّ حتى يُعايِنوا العذابَ المُوجِعَ الذي يَهلِكون به، فلا ينفعُهم إيمانُهم حينئذٍ.

قَالَ قَدْ أُجِيبَت دَّعْوَتُكُمَا فَاسْتَقِيمَا وَلاَ تَتَّبِعَآنِّ سَبِيلَ الَّذِينَ لاَ يَعْلَمُونَ (89).

قَالَ قَدْ أُجِيبَت دَّعْوَتُكُمَا.

أي: قال الله: قد أجبتُ دَعوتَكما– يا موسى وهارونُ– على فِرعونَ ومَلَئِه.

فَاسْتَقِيمَا.

أي: فاستَقِيما واثْبُتا على دينِكما، واستمِرَّا على دعوةِ فِرعونَ وقومِه إلى الحَقّ إلى أن يأتيَهم العذابُ.

وذَهَب ابنُ جرير (١٢/ ٢٦٣) إلى القول الأول –وهو قول محمد بن كعب القرظي، وأبي العالية، والربيع، وقتادة، وسفيان، وأبي صالح، والضحاك بن مزاحم، وعبد الرحمن بن زيد بن أسلم– مستندًا إلى اللغةِ، وأقوال السلف، والنظائر؛ وذلك نحو قوله: ﴿مِن قَبْلِ أنْ نَطْمِسَ وُجُوهًا فَنَرُدَّها عَلى أدْبارِها﴾ [النساء: ٤٧]، يعني به: من قبل أن نُغيّرها عن هيئتها التي هي بها.

وَلاَ تَتَّبِعَآنِّ سَبِيلَ الَّذِينَ لاَ يَعْلَمُونَ.

أي: ولا تسلُكا طريقَ الذين يَجهَلونَ أنَّ اللهَ لا يُخلِفُ الميعادَ، فيَستعجِلونَ وعيدَه وقضاءَه، فعذابي واقعٌ بفِرعونَ وقَومِه.

سُورةُ يُونُس

الآيات (90–92)

وَجَاوَزْنَا بِبَنِي إِسْرَائِيلَ الْبَحْرَ فَأَتْبَعَهُمْ فِرْعَوْنُ وَجُنُودُهُ بَغْيًا وَعَدْوًا حَتَّى إِذَا أَدْرَكَهُ الْغَرَقُ قَالَ آمَنْتُ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا الَّذِي آمَنَتْ بِهِ بَنُو إِسْرَائِيلَ وَأَنَا مِنَ الْمُسْلِمِينَ (90) آلْآنَ وَقَدْ عَصَيْتَ قَبْلُ وَكُنْتَ مِنَ الْمُفْسِدِينَ (91) فَالْيَوْمَ نُنَجِّيكَ بِبَدَنِكَ لِتَكُونَ لِمَنْ خَلْفَكَ آيَةً وَإِنَّ كَثِيرًا مِنَ النَّاسِ عَنْ آيَاتِنَا لَغَافِلُونَ (92)

غريب الكلمات:

بَغْيًا: أي: ظلمًا، مصدرُ بَغَى يَبْغي إذا ظلَم، أو: هو طلبُ الاستعلاءِ بغيرِ حقٍّ، وأصلُ البغي: الفسادُ، وتجاوزُ الحدِّ، يقال: بَغَى الجرحُ: إذا ترامَى إلى فسادٍ.

وَعَدْوًا: أي: اعتداءً، وأصلُ (عدو): يدُلُّ على تجاوُزٍ في الشَّيءِ، وتقَدُّمٍ لِما ينبغي أن يُقتصَرَ عليه.

تفسير الآيات:

وَجَاوَزْنَا بِبَنِي إِسْرَائِيلَ الْبَحْرَ فَأَتْبَعَهُمْ فِرْعَوْنُ وَجُنُودُهُ بَغْيًا وَعَدْوًا حَتَّى إِذَا أَدْرَكَهُ الْغَرَقُ قَالَ آمَنتُ أَنَّهُ لا إِلِهَ إِلاَّ الَّذِي آمَنَتْ بِهِ بَنُو إِسْرَائِيلَ وَأَنَاْ مِنَ الْمُسْلِمِينَ (90).

وَجَاوَزْنَا بِبَنِي إِسْرَائِيلَ الْبَحْرَ.

أي: وقَطَعنا ببني إسرائيلَ البَحرَ عندما خرجوا من مِصرَ مع نبيِّهم موسى عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ.

فَأَتْبَعَهُمْ فِرْعَوْنُ وَجُنُودُهُ بَغْيًا وَعَدْوًا.

أي: فتَبِعَ بني إسرائيلَ فرعونُ وجنودُه؛ استعلاءً عليهم واعتداءً.

حَتَّى إِذَا أَدْرَكَهُ الْغَرَقُ قَالَ آمَنتُ أَنَّهُ لا إِلِهَ إِلاَّ الَّذِي آمَنَتْ بِهِ بَنُو إِسْرَائِيلَ وَأَنَاْ مِنَ الْمُسْلِمِينَ.

أي: حتى إذا أحاط الغَرَقُ بفِرعونَ قال عند الموتِ: أقررتُ بأنَّه لا إلهَ إلَّا اللهُ الذي آمَنَ به قومُ موسى، وأنا من الموحِّدينَ لله، المُستَسلِمينَ المُنقادينَ له بالطَّاعةِ.

آلآنَ وَقَدْ عَصَيْتَ قَبْلُ وَكُنتَ مِنَ الْمُفْسِدِينَ (91).

أي: قال اللهُ لِفرعونَ: آلآنَ تتوبُ، وتؤمِنُ باللهِ، وتستسلِمُ له بعد فواتِ الأوانِ، وقد عصيتَه قبلَ نزولِ عذابِه، وكنتَ مِنَ المُفسِدينَ في الأرضِ الذين ظَلَموا العبادَ، وأضَلُّوهم، وصَدُّوهم عن سبيلِ الله؟!

فَالْيَوْمَ نُنَجِّيكَ بِبَدَنِكَ لِتَكُونَ لِمَنْ خَلْفَكَ آيَةً وَإِنَّ كَثِيرًا مِّنَ النَّاسِ عَنْ آيَاتِنَا لَغَافِلُونَ (92).

فَالْيَوْمَ نُنَجِّيكَ بِبَدَنِكَ.

أي: قال اللهُ لِفَرعونَ: فاليومَ نجعَلُ جَسَدَك وما تقلَّدتَه مِن دروعِ الحربِ بعدَ غرَقِك، على مكانٍ مرتَفعٍ مِن الأرضِ، فيَتَبَيَّن للنَّاسِ هلاكُك.

لِتَكُونَ لِمَنْ خَلْفَكَ آيَةً.

أي: لِتَكونَ- يا فرعونُ- لِمَن بَعدَك من النَّاسِ عِبرةً بعد إيقانِهم بهلاكِك وقدرةِ الله على كلِّ ذلك، فيَنزَجِروا عن الكُفرِ باللهِ ومَعصيتِه، ويَرَوا عاقِبةَ الطُّغيانِ، ويخافوا غضَبَ اللهِ.

وَإِنَّ كَثِيرًا مِّنَ النَّاسِ عَنْ آيَاتِنَا لَغَافِلُونَ.

أي: وإنَّ كثيرًا مِن النَّاسِ مُعرِضونَ عن تأمُّلِ آياتِنا، وعن التفكُّرِ فيها، والاعتبارِ بها.

سُورةُ يُونُس

الآيات (93-95)

وَلَقَدْ بَوَّأْنَا بَنِي إِسْرَائِيلَ مُبَوَّأَ صِدْقٍ وَرَزَقْنَاهُمْ مِنَ الطَّيِّبَاتِ فَمَا اخْتَلَفُوا حَتَّى جَاءَهُمُ الْعِلْمُ
إِنَّ رَبَّكَ يَقْضِي بَيْنَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فِيمَا كَانُوا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ (93) فَإِنْ كُنْتَ فِي شَكٍّ مِمَّا
أَنْزَلْنَا إِلَيْكَ فَاسْأَلِ الَّذِينَ يَقْرَءُونَ الْكِتَابَ مِنْ قَبْلِكَ لَقَدْ جَاءَكَ الْحَقُّ مِنْ رَبِّكَ فَلَا تَكُونَنَّ
مِنَ الْمُمْتَرِينَ (94) وَلَا تَكُونَنَّ مِنَ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِ اللَّهِ فَتَكُونَ مِنَ الْخَاسِرِينَ (95)

غريب الكلمات:

مُبَوَّأَ صِدْقٍ: أي: مَنزِلًا محمودًا مُختارًا، وأصل (بوأ): يدلُّ على الرُّجوعِ إلى شَيءٍ.

الْمُمْتَرِينَ: أي: المتردِّدينَ، من المِريةِ: وهي التردُّدُ في الأمرِ، وهي أخصُّ من الشَّكِّ.

تفسير الآيات:

وَلَقَدْ بَوَّأْنَا بَنِي إِسْرَائِيلَ مُبَوَّأَ صِدْقٍ وَرَزَقْنَاهُم مِّنَ الطَّيِّبَاتِ فَمَا اخْتَلَفُواْ حَتَّى جَاءهُمُ الْعِلْمُ إِنَّ رَبَّكَ يَقْضِي بَيْنَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فِيمَا كَانُواْ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ (93).

وَلَقَدْ بَوَّأْنَا بَنِي إِسْرَائِيلَ مُبَوَّأَ صِدْقٍ.

أي: ولقد أنزَلْنا وأسكنَّا بني إسرائيلَ مَنازِلَ حَسَنَةً محمودةً مُختارةً.[78]

كما قال الله تعالى: وَأَوْرَثْنَا الْقَوْمَ الَّذِينَ كَانُوا يُسْتَضْعَفُونَ مَشَارِقَ الْأَرْضِ وَمَغَارِبَهَا الَّتِي بَارَكْنَا فِيهَا وَتَمَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ الْحُسْنَى عَلَى بَنِي إِسْرَائِيلَ بِمَا صَبَرُوا وَدَمَّرْنَا مَا كَانَ يَصْنَعُ فِرْعَوْنُ وَقَوْمُهُ وَمَا كَانُوا يَعْرِشُونَ [الأعراف: 137].

وَرَزَقْنَاهُم مِّنَ الطَّيِّبَاتِ.

أي: ورَزَقْنا بني إسرائيلَ مِن الرِّزقِ الحلالِ الطَّيِّبِ النَّافِعِ، من الأطعِمةِ والأشرِبةِ وغيرِها.

---

(78) ذَهَبَ ابنُ عطية (٤/ ٥٢٥) إلى ما ذهب إليه قتادة، وعبد الرحمن بن زيد بن أسلم: «أنّ الله بوأهم بلاد الشام، وبيت المقدس».

فقال مستندًا إلى أخبار بني إسرائيل: «الأول أصحُّ، بحسب ما حُفِظ من أنّهم لن يعودوا إلى مصر.

ثم علَّقَ قائلًا:» على أنّ في القرآن: ﴿كذلك وأورثناها بني إسرائيل﴾ [الشعراء: ٥٩]، يعني: ما تَرَكَ القبط من جنات وعيون وغير ذلك.

وقد يحتمل أن يكون ﴿وأورثناها﴾ معناه: الحالة من النعمة، وإن لم يكن في قطر واحد".

كما قال تعالى: وَظَلَّلْنَا عَلَيْكُمُ الْغَمَامَ وَأَنْزَلْنَا عَلَيْكُمُ الْمَنَّ وَالسَّلْوَى كُلُوا مِنْ طَيِّبَاتِ مَا رَزَقْنَاكُمْ وَمَا ظَلَمُونَا وَلَكِنْ كَانُوا أَنْفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ [البقرة: 57].

وقال سُبحانه: وَإِذِ اسْتَسْقَى مُوسَى لِقَوْمِهِ فَقُلْنَا اضْرِبْ بِعَصَاكَ الْحَجَرَ فَانْفَجَرَتْ مِنْهُ اثْنَتَا عَشْرَةَ عَيْنًا قَدْ عَلِمَ كُلُّ أُنَاسٍ مَشْرَبَهُمْ كُلُوا وَاشْرَبُوا مِنْ رِزْقِ اللَّهِ وَلَا تَعْثَوْا فِي الْأَرْضِ مُفْسِدِينَ [البقرة: 60].

فَمَا اخْتَلَفُواْ حَتَّى جَاءهُمُ الْعِلْمُ.

أي: فما اختلَفَ بنو إسرائيلَ في الإقرار بنبوَّة محمَّدٍ صلى الله عليه وسلَّم وبمبعثِه، حتَّى جاءَهم ما كانوا به عالِمينَ، فبُعِثَ صلَّى الله عليه وسلَّم بنعتِه وصفتِه، وجاءَهم القُرآنُ، فاختَلفوا حينئذٍ، فآمن بعضُهم بنبوَّتِه، وكفر بها بعضُهم، ولم يكنْ ينبغي لهم ذلك.(79)

كما قال تعالى: وَلَقَدْ آتَيْنَا بَنِي إِسْرَائِيلَ الْكِتَابَ وَالْحُكْمَ وَالنُّبُوَّةَ وَرَزَقْنَاهُمْ مِنَ الطَّيِّبَاتِ وَفَضَّلْنَاهُمْ عَلَى الْعَالَمِينَ * وَآتَيْنَاهُمْ بَيِّنَاتٍ مِنَ الْأَمْرِ فَمَا اخْتَلَفُوا إِلَّا مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَهُمُ الْعِلْمُ بَغْيًا بَيْنَهُمْ إِنَّ رَبَّكَ يَقْضِي بَيْنَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فِيمَا كَانُوا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ * ثُمَّ جَعَلْنَاكَ عَلَى شَرِيعَةٍ مِنَ الْأَمْرِ فَاتَّبِعْهَا وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَ الَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ [الجاثية: 16 – 18].

---

(79) ذكر ابنُ عطية (٤/ ٥٢٦) أنّ قوله: ﴿فما اختلفوا حتى جاءهم العلم﴾ يحتمل معنيين: الأول: فما اختلفوا في نبوة محمد وانتظاره حتى جاءهم وبان علمه وأمره، فاختلفوا حينئذ.

وعلّق عليه بقوله: «وهذا التخصيص هو الذي وقع في كتب المتأولين، وهذا التأويل يحتاج إلى سند».

الثاني: أنّ بني إسرائيل لم يكن لهم اختلاف على موسى في أول حاله، فلما جاءهم العلم والأوامر وغرق فرعون اختلفوا.

وذكر أن اللفظ يحتمله.

إِنَّ رَبَّكَ يَقْضِي بَيْنَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فِيمَا كَانُواْ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ.

أي: إنَّ ربَّك– يا مُحمَّدُ– يحكُمُ بين المُختَلِفين فيك مِن بني إسرائيلَ يومَ القيامةِ فيما كانوا فيه يختَلِفونَ مِن أمرِك، فيُدخِلُ المؤمنينَ بك الجنَّةَ، ويُدخِلُ المكذِّبينَ بك النَّارَ.

فَإِن كُنتَ فِي شَكٍّ مِّمَّا أَنزَلْنَا إِلَيْكَ فَاسْأَلِ الَّذِينَ يَقْرَؤُونَ الْكِتَابَ مِن قَبْلِكَ لَقَدْ جَاءكَ الْحَقُّ مِن رَّبِّكَ فَلاَ تَكُونَنَّ مِنَ الْمُمْتَرِينَ (94).

فَإِن كُنتَ فِي شَكٍّ مِّمَّا أَنزَلْنَا إِلَيْكَ فَاسْأَلِ الَّذِينَ يَقْرَؤُونَ الْكِتَابَ مِن قَبْلِكَ.

أي: فإنْ كنتَ– يا محمَّدُ– في شكٍّ من حقيقةِ ما أخبَرْناك في القرآنِ مِن أنَّ بني إسرائيلَ لم يختَلِفوا في أمرِك إلَّا مِن بعدِ مَجيئِك– لأنَّهم يَجِدونَك مكتوبًا عندهم، ويَعرِفونك بصِفاتِك الواردةِ في كُتُبِهم– فاسألْ أهلَ الكِتابِ الذين يقرؤونَ التوراةَ والإنجيلَ مِن قبلِك؛ فإنَّهم يَعلَمونَ صحَّةَ ذلك.(80)

(80) قال ابنُ عطية (٤/ ٥٢٦): «الصــواب في معنى الآية: أنَّها مُخاطَبة للنبي – ﷺ –، والمراد بها: ســواه مِن كلّ مَن يمكن أن يشكّ أو يعارض».

وقال ابنُ جرير (١٢/ ٢٨٩): «لو قال قائل: إنّ هذه الآية خُوطِب بها النبيُّ – ﷺ –، والمراد بها: بعضُ مَن لم يكن صــحَّت بصــيرته بنبوته – ﷺ –، مِمَّن كان قد أظهر الإيمانَ بلســانه، تنبيهًا له على موضــع تعرُّف حقيقة أمره الذي يزيل اللبس عن قلبه، كما قال –جل ثناؤه–: ﴿يا أيُّها النَّبِيُّ اتَّقِ اللَّهَ ولا تُطِعِ الكافِرِينَ والمُنافِقِينَ إنَّ اللَّهَ كانَ عَلِيمًا حَكِيمًا﴾ [الأحزاب: ١]؛ كان قولًا غيرَ مدفوعةٍ صِحَّتُه».

وقال ابنُ القيم (٢/ ٤٤) مبيّنًا المقصــود بالخطاب في الآية: «المقصــود به: إقامةُ الحُجَّة على منكري النبوات والتوحيد، وأنهم مُقِرُّون بذلك لا يجحدونه ولا ينكرونه، وأنّ الله ســبحانه أرســل إليهم رُسُــلَه، وأنزل عليهم كتبه بذلك، وأرســل ملائكته إلى أنبيائه بوحيه وكلامه، فمن شَكَّ في ذلك فليسأل أهل الكتاب.

كما قال تعالى: قُلْ كَفَى بِاللَّهِ شَهِيدًا بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ وَمَنْ عِنْدَهُ عِلْمُ الْكِتَابِ [الرعد: 43].

وقال عزَّ وجلَّ: وَإِنَّهُ لَفِي زُبُرِ الْأَوَّلِينَ * أَوَلَمْ يَكُنْ لَهُمْ آيَةً أَنْ يَعْلَمَهُ عُلَمَاءُ بَنِي إِسْرَائِيلَ [الشعراء: 196–197].

وقال جلَّ جلالُه: الَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ مِنْ قَبْلِهِ هُمْ بِهِ يُؤْمِنُونَ * وَإِذَا يُتْلَى عَلَيْهِمْ قَالُوا آمَنَّا بِهِ إِنَّهُ الْحَقُّ مِنْ رَبِّنَا إِنَّا كُنَّا مِنْ قَبْلِهِ مُسْلِمِينَ [القصص: 52–53].

وقال تبارك وتعالى: قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ كَانَ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ وَكَفَرْتُمْ بِهِ وَشَهِدَ شَاهِدٌ مِنْ بَنِي إِسْرَائِيلَ عَلَى مِثْلِهِ فَآمَنَ وَاسْتَكْبَرْتُمْ إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ [الأحقاف: 10].

فأخرج هذا المعنى في أوجز عبارة، وأدلها على المقصود، بأن جعل الخطاب لرسوله الذي لم يشك قط، ولم يسأل قط، ولا عرض له ما يقتضي ذلك.

وأنت إذا تأملت هذا الخطاب بدا لك على صفحاته: مَن شكّ فليسأل، فرسولي لم يشكّ، ولم يسأل».

وبنحوه قال ابنُ تيمية (٣/ ٤٩٢ – ٤٩٧).

وذكر ابنُ عطية (٤/ ٥٢٦) أنّ قومًا قالوا: الكلام بمنزلة قولك: إن كنت ابني فبرني.

وانتقده بقوله: «وليس هذا المثال بجيد، وإنما مثال هذه قوله تعالى لعيسى: ﴿أأنت قلت للناس اتخذوني﴾ [المائدة: ١١٦]».

وذكر (٤/ ٥٢٧) أنّ قوله: ﴿مما أنزلنا إليك﴾ يريد به أنّ بني إسرائيل لم يختلفوا في أمره إلا من بعد مجيئه، وبين أنّ هذا قول أهل التأويل قاطبة، ثم علَّق بقوله: «وهذا هو الذي يشبه أن ترتجى إزالة الشك فيه من قِبَل أهل الكتاب».

ثم أورد احتمالًا آخر، فقال: «ويحتمل اللفظ أن يريد بـ» ما أنزلنا «: جميع الشرع».

وانتقده بأنّه بعيد بالمعنى؛ لأنّ ذلك لا يعرف ويزول الشك فيه إلا بأدلة العقل، لا بالسماع من مؤمني بني إسرائيل.

لَقَدْ جَاءكَ الْحَقُّ مِن رَّبِّكَ فَلاَ تَكُونَنَّ مِنَ الْمُمْتَرِينَ.

أي: أُقسِمُ إنَّه قد جاءك– يا مُحمَّدُ– الحَقُّ اليقينُ مِن ربّك بأنَّك رسولُ اللهِ، وأنَّ الذين أُوتوا الكتابَ مِن قَبلِك يَعلَمونَ ذلك، فلا تكوننَّ مِن الشاكّينَ في صحَّةِ ذلك، واستمِرَّ على ما أنت عليه من اليَقينِ.

وَلاَ تَكُونَنَّ مِنَ الَّذِينَ كَذَّبُواْ بِآيَاتِ اللّهِ فَتَكُونَ مِنَ الْخَاسِرِينَ (95).

أي: ولا تكوننَّ– يا مُحمَّدُ– من المكذِّبينَ بآياتِ القُرآنِ، فتكونَ من الخاسرينَ أنفُسَهم بدخولِ النَّارِ، المُضَيِّعينَ سعادةَ الدُّنيا والآخرةِ، فاثبُتْ على ما أنت عليه من التَّصديقِ بالقُرآنِ.

سُورةُ يُونُس

الآيات (96–100)

إِنَّ الَّذِينَ حَقَّتْ عَلَيْهِمْ كَلِمَتُ رَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ (96) وَلَوْ جَاءَتْهُمْ كُلُّ آيَةٍ حَتَّى يَرَوُا
الْعَذَابَ الْأَلِيمَ (97) فَلَوْلَا كَانَتْ قَرْيَةٌ آمَنَتْ فَنَفَعَهَا إِيمَانُهَا إِلَّا قَوْمَ يُونُسَ لَمَّا آمَنُوا
كَشَفْنَا عَنْهُمْ عَذَابَ الْخِزْيِ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَمَتَّعْنَاهُمْ إِلَى حِينٍ (98) وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ لَآمَنَ
مَنْ فِي الْأَرْضِ كُلُّهُمْ جَمِيعًا أَفَأَنْتَ تُكْرِهُ النَّاسَ حَتَّى يَكُونُوا مُؤْمِنِينَ (99) وَمَا كَانَ لِنَفْسٍ أَنْ
تُؤْمِنَ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ وَيَجْعَلُ الرِّجْسَ عَلَى الَّذِينَ لَا يَعْقِلُونَ (100)

غريب الكلمات:

الرِّجْسَ: أي: العذابَ، ويُطلَقُ أيضًا على: القذرِ المنتنِ، وأصلُ (رجس): يَدُلُّ على اختِلاطٍ.

تفسير الآيات:

إِنَّ الَّذِينَ حَقَّتْ عَلَيْهِمْ كَلِمَتُ رَبِّكَ لاَ يُؤْمِنُونَ (96).

أي: إنَّ الذين وجبَت عليهم كَلِمةُ رَبِّك- يا مُحمَّدُ- بأنَّهم يصيرونَ إلى ما قدَّرَه اللهُ لهم مِن الاستمرارِ على الكُفرِ والموتِ عليه؛ لا يُؤمِنونَ إيمانًا ينفَعُهم قبل مَوتِهم.

وَلَوْ جَاءتْهُمْ كُلُّ آيَةٍ حَتَّى يَرَوُاْ الْعَذَابَ الأَلِيمَ (97).

أي: ولو جاءتْهم كلُّ آيةٍ مِن الآياتِ الكونيَّةِ المُعجِزة الخارِقةِ، والآياتِ الشَّرعيَّةِ المُنزَّلةِ كالقُرآنِ، فإنَّهم لا يُؤمِنونَ حتى يُعايِنوا العذابَ المُوجِعَ فيُؤمِنوا، وحينئذٍ لا ينفَعُهم الإيمانُ.

فَلَوْلاَ كَانَتْ قَرْيَةٌ آمَنَتْ فَنَفَعَهَا إِيمَانُهَا إِلاَّ قَوْمَ يُونُسَ لَمَّآ آمَنُواْ كَشَفْنَا عَنْهُمْ عَذَابَ الخِزْيِ فِي الْحَيَاةَ الدُّنْيَا وَمَتَّعْنَاهُمْ إِلَى حِينٍ (98).

فَلَوْلاَ كَانَتْ قَرْيَةٌ آمَنَتْ فَنَفَعَهَا إِيمَانُهَا إِلاَّ قَوْمَ يُونُسَ.

أي: ما آمَنَ أهلُ قريةٍ مِن القُرى الهالكةِ في وقتٍ ينفَعُهم إيمانُهم فيه، إلَّا قَومَ النَّبيِّ يُونُسَ عليه الصَّلاة والسَّلامُ، آمَنوا كُلُّهم في وقتٍ يَنفَعُهم فيه الإيمانُ، حين رأَوا آيةً تدُلُّ على العذابِ قبل نُزولِه بهم.

لَمَّآ آمَنواْ كَشَفْنَا عَنْهُمْ عَذَابَ الخِزْيِ فِي الْحَيَاةَ الدُّنْيَا وَمَتَّعْنَاهُمْ إِلَى حِينٍ.

أي: لَمَّا آمَنوا رَفَعْنا عنهم عذابَ الذُّلِّ الذي وعدَهم به نبيُّهم في الحياةِ الدُّنيا– وكان قد قرُبَ نُزولُه بهم– وتَرَكْناهم يستَمتِعونَ في الدُّنيا إلى آخِرِ أعمارِهم المكتوبةِ.(81)

وَلَوْ شَاء رَبُّكَ لآمَنَ مَن فِي الأَرْضِ كُلُّهُمْ جَمِيعًا أَفَأَنتَ تُكْرِهُ النَّاسَ حَتَّى يَكُونُواْ مُؤْمِنِينَ (99).

وَلَوْ شَاء رَبُّكَ لآمَنَ مَن فِي الأَرْضِ كُلُّهُمْ جَمِيعًا.

أي: ولو شاء ربُّك– يا محمَّدُ– لألهَمَ كلَّ من في الأرضِ الإيمانَ فآمنوا باللهِ، وبما جِئتَ به، لكنَّه لم يشَأْ ذلك؛ لِمُخالفتِه مقتضَى حِكمتِه سُبحانَه.(82)

---

(81) قال ابنُ كثير (٧/ ٤٠٣): «اختلف المفسرون: هل كشف عنهم العذاب الأخروي مع الدنيوي؟ أو إنما كشف عنهم في الدنيا فقط؟ على قولين: أحدهما: إنما كان ذلك في الحياة الدنيا، كما هو مقيد في هذه الآية.
والقول الثاني: فيهما؛ لقوله تعالى: ﴿وأرسلناه إلى مائة ألف أو يزيدون فآمنوا فمتعناهم إلى حين﴾ [الصافات: ١٤٧ – ١٤٨] فأطلق عليهم الإيمان، والإيمان مُنقِذ من العذاب الأخروي، وهذا هو الظاهر».

(82) ذكر ابنُ عطية (٤/ ٥٣٠ – ٥٣١) أنّ معنى الآية: أنّ هذا الذي تَقَدَّم إنّما كان جميعه بقضاء الله عليهم ومشيئته فيهم، ولو شاء الله لكان الجميع مؤمنًا، فلا تأسف أنت –يا محمد– على كُفْرِ مَن لم يؤمن بك، وادعُ ولا عليك، فالأمرُ محتوم، أفتريد أنت أن تُكْرِه الناس بإدخال الإيمان في قلوبهم وتضطرهم إلى ذلك والله – عز وجل – قد شاء غيره.
ثم علَّق بقوله: «فهذا التأويل الآيةُ عليه محكمة، أي: ادعُ وقاتِل مَن خالفك، وإيمان مَن آمن مصروف إلى المشيئة».
وذكر أنّ فرقة قالت: المعنى: أفأنت تكره الناس بالقتال حتى يدخلوا في الإيمان.
وزَعَمَتْ أنّ هذه الآية في صدر الإسلام، وأنها منسوخة بآية السيف، ثم علَّق بقوله: «والآية –على كلا التأويلين– رادَّةٌ على المعتزلة».

كما قال تعالى: وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ لَجَعَلَ النَّاسَ أُمَّةً وَاحِدَةً وَلَا يَزَالُونَ مُخْتَلِفِينَ * إِلَّا مَنْ رَحِمَ رَبُّكَ وَلِذَلِكَ خَلَقَهُمْ وَتَمَّتْ كَلِمَةُ رَبِّكَ لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنَ الْجِنَّةِ وَالنَّاسِ أَجْمَعِينَ [هود: 118- 119].

وقال سُبحانه: وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَجَمَعَهُمْ عَلَى الْهُدَى فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ الْجَاهِلِينَ [الأنعام: 35].

أَفَأَنتَ تُكْرِهُ النَّاسَ حَتَّى يَكُونُواْ مُؤْمِنِينَ.

أي: أفأنت- يا مُحمَّدُ- تُلزِمُ النَّاسَ، وتضطرُّهم إلى الإيمانِ، حتى يكونوا مُؤمِنينَ بما جئتَهم به؟ ليس ذلك إليك، ولا قُدرةَ لك عليه، بل اللهُ تعالى هو من يَهدي ويُضِلُّ مَن يشاءُ مِن عِبادِه، لا بإكراهِك لهم على ذلك.

كما قال تعالى: لَيْسَ عَلَيْكَ هُدَاهُمْ وَلَكِنَّ اللَّهَ يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ [البقرة: 272].

وقال سُبحانه: إِنَّكَ لَا تَهْدِي مَنْ أَحْبَبْتَ وَلَكِنَّ اللَّهَ يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ [القصص: 56].

وقال عزَّ وجلَّ: أَفَمَنْ زُيِّنَ لَهُ سُوءُ عَمَلِهِ فَرَآهُ حَسَنًا فَإِنَّ اللَّهَ يُضِلُّ مَنْ يَشَاءُ وَيَهْدِي مَنْ يَشَاءُ فَلَا تَذْهَبْ نَفْسُكَ عَلَيْهِمْ حَسَرَاتٍ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ بِمَا يَصْنَعُونَ [فاطر: 8].

وَمَا كَانَ لِنَفْسٍ أَن تُؤْمِنَ إِلاَّ بِإِذْنِ اللهِ وَيَجْعَلُ الرِّجْسَ عَلَى الَّذِينَ لاَ يَعْقِلُونَ (100).

وَمَا كَانَ لِنَفْسٍ أَن تُؤْمِنَ إِلاَّ بِإِذْنِ اللهِ.

أي: وما ينبغي لنفسٍ أن تؤمِنَ وتهتديَ إلَّا بقضاءِ اللهِ وقَدَرِه ومَشيئتِه، فلا تُجهِدَنَّ نفسَك- يا مُحمَّدُ- في طلَبِ هُداها، وبلِّغْها وعيدَ اللهِ، ثمَّ خَلِّها؛ فإنَّ هُداها بيَدِ خالِقِها، ولا تكفي دعوتُك في حصولِ الإيمانِ حتى يأذَنَ اللهُ لِمَن دَعوتَه أن يؤمِنَ.

وَيَجْعَلُ الرِّجْسَ عَلَى الَّذِينَ لاَ يَعْقِلُونَ.

أي: ويجعَلُ اللهُ غضَبَه وعذابَه على الذينَ لا يَعقِلونَ آياتِه، وحُجَجَه، ومواعِظَه، وأوامِرَه ونواهِيَه.

سُورةُ يُونُس

الآيات (101-103)

قُلِ انْظُرُوا مَاذَا فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا تُغْنِي الْآيَاتُ وَالنُّذُرُ عَنْ قَوْمٍ لَا يُؤْمِنُونَ
(101) فَهَلْ يَنْتَظِرُونَ إِلَّا مِثْلَ أَيَّامِ الَّذِينَ خَلَوْا مِنْ قَبْلِهِمْ قُلْ فَانْتَظِرُوا إِنِّي مَعَكُمْ مِنَ
الْمُنْتَظِرِينَ (102) ثُمَّ نُنَجِّي رُسُلَنَا وَالَّذِينَ آمَنُوا كَذَلِكَ حَقًّا عَلَيْنَا نُنْجِ الْمُؤْمِنِينَ (103)

تفسير الآيات:

قُلِ انظُرُواْ مَاذَا فِي السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ وَمَا تُغْنِي الآيَاتُ وَالنُّذُرُ عَن قَوْمٍ لاَّ يُؤْمِنُونَ (101).

قُلِ انظُرُواْ مَاذَا فِي السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ.

أي: قُلْ- يا مُحَمَّدُ- للمُشرِكينَ الذين يسألونَك الآياتِ: انظُروا ماذا في السَّمواتِ مِن الشَّمسِ والقَمَرِ والنُّجومِ والسَّحابِ، وفي الأرضِ مِن الجِبالِ والبِحارِ، والأنهارِ والأشجارِ، والثِّمارِ والدوابِّ وغيرِ ذلك من المخلوقاتِ الصَّغيرةِ والكبيرةِ، فتفَكَّروا فيها واعتَبِروا؛ فإنَّها دالَّةٌ على وحدانيَّةِ اللهِ في ربوبيَّتِه وألوهيَّتِه، وعلى كمالِ قُدرتِه وعظيمِ صِفاتِه، فتُغنيكم عن طلَبِ الآياتِ.[83]

---

(83) ذكر ابنُ عطية (٤/ ٥٣١ – ٥٣٢) أنّ الله أعْلَمَ في آخر هذه الآية أنّ النظر في الآيات والسماع مِن النذر –وهم الأنبياء– لا يُغْنِي إلا بمشيئة الله، وأنّ ذلك غير نافع لقوم قد قضى الله أنهم لا يؤمنون، ثم علَّق بقوله: «وهذا على أن تكون» ما «نافية».

ثم بيَّن أنه يجوز أن يُعَدَّ استفهامًا على جهة التقرير الذي في ضمنه نفي وقوع الغناء، ويكون في الآية –على هذا– توبيخٌ لحاضري رسول الله – ﷺ – من المشركين.

ثم قال: «ويحتمل أن تكون» ما «في قوله: ﴿وما تغني﴾ مفعولة بقوله: ﴿انظروا﴾، معطوفة على قوله: ﴿ماذا﴾، أي: تأملوا قدر غناء الآيات والنذر عن الكفار إذا قبِلوا ذلك كفعل قوم يونس فإنّه يرفع بالعذاب في الدنيا والآخرة، وينجي من الهلكات، فالآية على هذا تحريض على الإيمان».

وبيَّن أنّ تجوز اللفظ –على هذا التأويل– إنّما هو في قوله: ﴿لا يؤمنون﴾.

وَمَا تُغْنِي الآيَاتُ وَالنُّذُرُ عَن قَوْمٍ لاَّ يُؤْمِنُونَ.

أي: وما تنفعُ الآياتُ السَّماويةُ والأرضيَّةُ، والرسلُ المُنذِرةُ قومًا سبَقَ في علمِ اللهِ أنَّهم لا يُؤمنونَ.

كما قال تعالى: وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ ذُكِّرَ بِآيَاتِ رَبِّهِ فَأَعْرَضَ عَنْهَا وَنَسِيَ مَا قَدَّمَتْ يَدَاهُ إِنَّا جَعَلْنَا عَلَى قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً أَنْ يَفْقَهُوهُ وَفِي آذَانِهِمْ وَقْرًا وَإِنْ تَدْعُهُمْ إِلَى الْهُدَى فَلَنْ يَهْتَدُوا إِذًا أَبَدًا [الكهف: 57].

وقال عزَّ وجلَّ: حِكْمَةٌ بَالِغَةٌ فَمَا تُغْنِ النُّذُرُ [القمر: 5].

وقال سُبحانه: إِنَّ الَّذِينَ حَقَّتْ عَلَيْهِمْ كَلِمَتُ رَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ * وَلَوْ جَاءَتْهُمْ كُلُّ آيَةٍ حَتَّى يَرَوُا الْعَذَابَ الْأَلِيمَ [يونس: 96–97].

فَهَلْ يَنتَظِرُونَ إِلاَّ مِثْلَ أَيَّامِ الَّذِينَ خَلَوْاْ مِن قَبْلِهِمْ قُلْ فَانتَظِرُواْ إِنِّي مَعَكُم مِّنَ الْمُنتَظِرِينَ (102).

فَهَلْ يَنتَظِرُونَ إِلاَّ مِثْلَ أَيَّامِ الَّذِينَ خَلَوْاْ مِن قَبْلِهِمْ.

أي: فهل ينتظِرُ هؤلاء المُشرِكونَ المكَذِّبونَ لك– يا مُحَمَّدُ– من النِّقمةِ والعذابِ، إلَّا مِثلَ وقائعِ اللهِ تعالى في الأممِ الماضيةِ مِن قَبلِهم، المكَذِّبةِ لِرُسُلِهم؟

قُلْ فَانتَظِرُواْ إِنِّي مَعَكُم مِّنَ الْمُنتَظِرِينَ.

أي: قُل- يا مُحمَّدُ- لهم: فانتَظِروا عذابَ اللهِ، إنِّي معكم من المُنتَظرينَ ما يحُلُّ بكم مِن العذابِ والهلاكِ الذي وعَدَكم اللهُ.

ثُمَّ نُنَجِّي رُسُلَنَا وَالَّذِينَ آمَنُواْ كَذَلِكَ حَقًّا عَلَيْنَا نُنجِ الْمُؤْمِنِينَ (103).

ثُمَّ نُنَجِّي رُسُلَنَا وَالَّذِينَ آمَنُواْ.

أي: ثم نُنجِّي رسُلَنا والمُؤمِنينَ بهم مِن عَذابِنا الواقِعِ على قَومِهم.

كَذَلِكَ حَقًّا عَلَيْنَا نُنجِ الْمُؤْمِنِينَ.

أي: كما أنجَينا الرُّسُلَ السَّابقينَ والمؤمنينَ بهم حين نزولِ العَذابِ، كذلك نفعَلُ بك- يا مُحمَّدُ- وبالمُؤمِنينَ بك، فنُنَجِّيكم جميعًا، حقًّا ووعدًا أوجَبْناه علينا لا نُخلِفُه.

كما قال تعالى: إِنَّ اللَّهَ يُدَافِعُ عَنِ الَّذِينَ آمَنُوا [الحج: 38].

وقال سُبحانه: إِنَّا لَنَنْصُرُ رُسُلَنَا وَالَّذِينَ آمَنُوا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَيَوْمَ يَقُومُ الْأَشْهَادُ [غافر: 51].

سُورةُ يُونُس

الآيات (104–109)

قُلْ يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنْ كُنْتُمْ فِي شَكٍّ مِنْ دِينِي فَلَا أَعْبُدُ الَّذِينَ تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَلَكِنْ أَعْبُدُ
اللَّهَ الَّذِي يَتَوَفَّاكُمْ وَأُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ (104) وَأَنْ أَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا وَلَا تَكُونَنَّ
مِنَ الْمُشْرِكِينَ (105) وَلَا تَدْعُ مِنْ دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَنْفَعُكَ وَلَا يَضُرُّكَ فَإِنْ فَعَلْتَ فَإِنَّكَ إِذًا مِنَ
الظَّالِمِينَ (106) وَإِنْ يَمْسَسْكَ اللَّهُ بِضُرٍّ فَلَا كَاشِفَ لَهُ إِلَّا هُوَ وَإِنْ يُرِدْكَ بِخَيْرٍ فَلَا رَادَّ لِفَضْلِهِ يُصِيبُ
بِهِ مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ وَهُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ (107) قُلْ يَا أَيُّهَا النَّاسُ قَدْ جَاءَكُمُ الْحَقُّ مِنْ رَبِّكُمْ فَمَنِ
اهْتَدَى فَإِنَّمَا يَهْتَدِي لِنَفْسِهِ وَمَنْ ضَلَّ فَإِنَّمَا يَضِلُّ عَلَيْهَا وَمَا أَنَا عَلَيْكُمْ بِوَكِيلٍ (108)
وَاتَّبِعْ مَا يُوحَى إِلَيْكَ وَاصْبِرْ حَتَّى يَحْكُمَ اللَّهُ وَهُوَ خَيْرُ الْحَاكِمِينَ
(109)

غريب الكلمات:

حَنِيفًا: أي: مُقبلًا على اللهِ، مُعرضًا عما سِواه، وقيل: مائلًا عن الشركِ والدِّينِ الباطلِ إلى التوحيدِ، والدِّينِ الحقِّ المستقيمِ، وأصلُ الحنفِ: الميلُ عن الشيءِ بالإقبالِ على آخرَ، فالحنفُ ميلٌ عن الضلالةِ إلى الاستقامةِ، وأصلُه ميلٌ في إبهامي القدمينِ، كل واحدةٍ على صاحبتِها، وقيل: حنيفًا، أي: مسلمًا مستقيمًا.

بِوَكِيلٍ: الوكيلُ: المانعُ والحافظُ والكفيلُ، ووكيلُ الرجلِ في مالِه هو الذي كفَله له، وقام به، والتوكُّلُ يُقال على وجهينِ، يُقال: توكَّلتُ لفلانٍ بمعنى: توليتُ له، ويُقال: وكلتُه فتوكَّل لي، وتوكلتُ عليه بمعنَى: اعتمدتُه، وأصلُ (وكل): يدلُّ على اعتمادِ غيرِك في أمرِك.

تفسير الآيات:

قُلْ يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِن كُنتُمْ فِي شَكٍّ مِّن دِينِي فَلاَ أَعْبُدُ الَّذِينَ تَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللهِ وَلَكِنْ أَعْبُدُ اللهَ الَّذِي يَتَوَفَّاكُمْ وَأُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ **(104)**.

قُلْ يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِن كُنتُمْ فِي شَكٍّ مِّن دِينِي فَلاَ أَعْبُدُ الَّذِينَ تَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللهِ.

أي: قُلْ- يا مُحمَّدُ-: يا أيُّها النَّاسُ، إن كُنتُم في شَكٍّ مِن صِحَّةِ دِينِ الإسلامِ الذي أدعوكم إليه، فإنِّي لا أعبدُ الذين تَعبُدونَ مِن دونِ اللهِ، مِن الأصنامِ والأوثانِ وغَيرِها من المخلوقاتِ التي لا تستحِقُّ العبادةَ.

وَلَكِنْ أَعْبُدُ اللهَ الَّذِي يَتَوَفَّاكُمْ.

أي: ولكنْ أعبدُ اللهَ الذي يُميتُكم ويَقبِضُ أرواحَكم، ثمَّ يَبعَثُكم وإليه مَرجِعُكم؛ لِيُجازيَكم بأعمالِكم، فهو وَحْدَه المُستحِقُّ للعبادةِ.

وَأُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ.

أي: وأمَرَني اللهُ أن أكونَ مِن جملةِ المُؤمنينَ المصدِّقينَ بما أوحَى إليَّ، الموعودينَ بالنَّجاةِ مِن العذابِ، والنصرِ على أعدائهم وأعدائِه.

كما قال تعالى: قُلْ إِنَّنِي هَدَانِي رَبِّي إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ دِينًا قِيَمًا مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ * قُلْ إِنَّ صَلَاتِي وَنُسُكِي وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ * لَا شَرِيكَ لَهُ وَبِذَلِكَ أُمِرْتُ وَأَنَا أَوَّلُ الْمُسْلِمِينَ [الأنعام: 161–163].

وقال سبحانه: إِنَّمَا أُمِرْتُ أَنْ أَعْبُدَ رَبَّ هَذِهِ الْبَلْدَةِ الَّذِي حَرَّمَهَا وَلَهُ كُلُّ شَيْءٍ وَأُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ مِنَ الْمُسْلِمِينَ [النمل: 91].

وَأَنْ أَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا وَلاَ تَكُونَنَّ مِنَ الْمُشْرِكِينَ (105).

وَأَنْ أَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا.

أي: وأمَرَنِي اللهُ بِقَولِه: أقِمْ نفسَك على دينِ الإسلامِ، واستَقِمْ عليه مُخلِصًا لله وَحدَه، مائلًا عن كلِّ دينٍ سواه.

وَلاَ تَكُونَنَّ مِنَ الْمُشْرِكِينَ.

أي: ولا تكونَنَّ– يا مُحَمَّدُ– من المُشرِكينَ في عبادةِ اللهِ، لا في حالِهم ولا عقائِدِهم، ولا أعمالِهم.

كما قال تعالى: وَلَقَدْ أُوحِيَ إِلَيْكَ وَإِلَى الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكَ لَئِنْ أَشْرَكْتَ لَيَحْبَطَنَّ عَمَلُكَ وَلَتَكُونَنَّ مِنَ الْخَاسِرِينَ * بَلِ اللَّهَ فَاعْبُدْ وَكُنْ مِنَ الشَّاكِرِينَ [الزمر: 65–66].

وَلاَ تَدْعُ مِن دُونِ اللهِ مَا لاَ يَنفَعُكَ وَلاَ يَضُرُّكَ فَإِن فَعَلْتَ فَإِنَّكَ إِذًا مِّنَ الظَّالِمِينَ (106).

وَلاَ تَدْعُ مِن دُونِ اللهِ مَا لاَ يَنفَعُكَ وَلاَ يَضُرُّكَ.

أي: ولا تعبُدْ- يا مُحمَّدُ- مِن دونِ اللهِ مِن الأصنامِ وغَيرِها ما لا ينفَعُك إن عبَدْتَه، ولا يضُرُّك إن عصَيتَه.

فَإِن فَعَلْتَ فَإِنَّكَ إِذًا مِّنَ الظَّالِمِينَ.

أي: فإنْ عَبَدتَ غيرَ اللهِ، فإنَّك- يا محمَّدُ- من الظَّالِمينَ لأنفُسِهم بالشِّرْكِ، الواضعينَ العبادةَ في غيرِ مَوضِعِها.

وَإِن يَمْسَسْكَ اللّهُ بِضُرٍّ فَلاَ كَاشِفَ لَهُ إِلاَّ هُوَ وَإِن يُرِدْكَ بِخَيْرٍ فَلاَ رَآدَّ لِفَضْلِهِ يُصَيبُ بِهِ مَن يَشَاء مِنْ عِبَادِهِ وَهُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ (107).

وَإِن يَمْسَسْكَ اللّهُ بِضُرٍّ فَلاَ كَاشِفَ لَهُ إِلاَّ هُوَ.

أي: وإن يُصِبْك اللهُ- يا مُحمَّدُ- بشدَّةٍ وبلاءٍ-كمَرَضٍ أو فقرٍ- فلا يَكشِفُه عنك ويرفَعُه إلَّا اللهُ وَحدَه المُستَحِقُّ للعبادةِ.

كما قال سُبحانه: قُلْ أَفَرَأَيْتُم مَا تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ إِنْ أَرَادَنِيَ اللَّهُ بِضُرٍّ هَلْ هُنَّ كَاشِفَاتُ ضُرِّهِ أَوْ أَرَادَنِي بِرَحْمَةٍ هَلْ هُنَّ مُمْسِكَاتُ رَحْمَتِهِ [الزمر: 38].

وَإِن يُرِدْكَ بِخَيْرٍ فَلاَ رَآدَّ لِفَضْلِهِ.

أي: وإنْ يُرِدِ اللهُ لك الخيرَ- يا محمَّدُ- فلا أحدَ مِن الخَلقِ يَقدِرُ على ردِّ فَضلِه وإحسانِه.

كما قال تعالى: مَا يَفْتَحِ اللَّهُ لِلنَّاسِ مِنْ رَحْمَةٍ فَلَا مُمْسِكَ لَهَا وَمَا يُمْسِكْ فَلَا مُرْسِلَ لَهُ مِنْ بَعْدِهِ [فاطر: 2].

وعن ابنِ عبَّاسٍ رَضِيَ اللهُ عنهما، قال: ((كنتُ خَلفَ رَسولِ اللهِ – ﷺ – يومًا، فقال: يا غُلامُ، إنِّي أعلِّمُك كَلِماتٍ: احفَظِ اللهَ يَحفَظْك، احفَظِ اللهَ تَجِدْه تُجاهَك، إذا سألتَ فاسألِ اللهَ، وإذا استعَنْتَ فاستعِنْ باللهِ، واعلَمْ أنَّ الأُمَّةَ لو اجتمَعَت على أن ينفَعوك بشَيءٍ، لم ينفَعوك إلَّا بشَيءٍ قد كتَبَه اللهُ لك، ولو اجتمَعوا على أن يضُرُّوك بشَيءٍ، لم يضُرُّوك إلَّا بشيءٍ قد كتَبَه اللهُ عليك، رُفِعَت الأقلامُ، وجَفَّت الصُّحُف)).(84)

يُصَيبُ بِهِ مَن يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ.

أي: يُصيبُ اللهُ بالضُّرِّ والخيرِ من يَشاءُ مِن عبادِه.

---

(84) أخرجه الترمذي (2516)، وأحمد (2669)، والطبراني في ((المعجم الأوسط)) (5417).
صحَّحه الترمذيُّ، وحسَّنه ابنُ رجبٍ في ((جامع العلوم والحكم)) (1/459)، وابنُ حجرٍ في ((موافقة الخبر الخبر)) (1/327)، وصحَّح إسناده أحمد شاكر في تحقيق ((مسند أحمد)) (4/233)، وصحَّحه الألبانيُّ في ((صحيح الترمذي)) (2516)، وابنُ بازٍ في ((مجموع فتاوى ابن باز)) (1/160).

وَهُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ.

أي: وهو الغَفورُ لذُنوبِ عِبادِه التَّائبين، الرَّحيمُ بالمؤمنينَ.

قُلْ يَا أَيُّهَا النَّاسُ قَدْ جَاءَكُمُ الْحَقُّ مِن رَّبِّكُمْ فَمَنِ اهْتَدَى فَإِنَّمَا يَهْتَدِي لِنَفْسِهِ وَمَن ضَلَّ فَإِنَّمَا يَضِلُّ عَلَيْهَا وَمَا أَنَاْ عَلَيْكُم بِوَكِيلٍ (108).

قُلْ يَا أَيُّهَا النَّاسُ قَدْ جَاءَكُمُ الْحَقُّ مِن رَّبِّكُمْ.

أي: قُل- يا مُحمَّدُ- لجميعِ النَّاسِ: يا أيُّها النَّاسُ، قد أتاكم الحَقُّ المبينُ الذي لا مِريةَ فيه ولا شَكَّ، وهو القُرآنُ الذي نزَلَ مِن عند رَبِّكم، فيه بيانُ دِينِكم، وصَلاحُ أحوالِكم.

فَمَنِ اهْتَدَى فَإِنَّمَا يَهْتَدِي لِنَفْسِهِ.

أي: فمَن اهتَدى بهذا القرآنِ واتَّبعه، فإنَّما ينفَعُ نفسَه.

وَمَن ضَلَّ فَإِنَّمَا يَضِلُّ عَلَيْهَا.

أي: ومن ضلَّ عن القرآنِ فخالفَ طريقَ الحَقِّ، فإنَّما يضرُّ نفسَه.

وَمَا أَنَاْ عَلَيْكُم بِوَكِيلٍ.

أي: وقُلْ- يا مُحمَّدُ- للنَّاسِ: وما أنا بمُسَلَّطٍ عليكم، وقاهرٍ لكم حتى تُؤمِنوا، ولا بحفيظٍ عليكم حتى أحفظَ أعمالَكم وأحاسِبَكم عليها.

كما قال تعالى: قَدْ جَاءَكُمْ بَصَائِرُ مِنْ رَبِّكُمْ فَمَنْ أَبْصَرَ فَلِنَفْسِهِ وَمَنْ عَمِيَ فَعَلَيْهَا وَمَا أَنَا عَلَيْكُمْ بِحَفِيظٍ [الأنعام: 104].

وقال عزَّ وجلَّ: إِنَّا أَنْزَلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ لِلنَّاسِ بِالْحَقِّ فَمَنِ اهْتَدَى فَلِنَفْسِهِ وَمَنْ ضَلَّ فَإِنَّمَا يَضِلُّ عَلَيْهَا وَمَا أَنْتَ عَلَيْهِمْ بِوَكِيلٍ [الزمر: 41].

وَاتَّبِعْ مَا يُوحَى إِلَيْكَ وَاصْبِرْ حَتَّى يَحْكُمَ اللَّهُ وَهُوَ خَيْرُ الْحَاكِمِينَ (109).

وَاتَّبِعْ مَا يُوحَى إِلَيْكَ.

أي: واتَّبعْ- يا محمَّدُ- ما أوحَى اللهُ إليك من القرآنِ، فصدِّقْ بأخبارِه، واعمَلْ بأحكامِه.

وَاصْبِرْ حَتَّى يَحْكُمَ اللَّهُ.

أي: واصبِرْ على التمسُّكِ بما يُوحَى إليك، وعلى أذى المُشرِكينَ، حتَّى يقضيَ اللهُ بينك وبينهم.

كما قال تعالى: وَاصْبِرْ وَمَا صَبْرُكَ إِلَّا بِاللَّهِ وَلَا تَحْزَنْ عَلَيْهِمْ وَلَا تَكُ فِي ضَيْقٍ مِمَّا يَمْكُرُونَ [النحل: 127].

وقال عزَّ وجلَّ: إِنَّ رَبَّكَ يَقْضِي بَيْنَهُمْ بِحُكْمِهِ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْعَلِيمُ * فَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ إِنَّكَ عَلَى الْحَقِّ الْمُبِينِ [النمل: 78-79].

وَهُوَ خَيْرُ الْحَاكِمِينَ.

أي: واللهُ خيرُ الحاكِمينَ بالعدْلِ بين المُتَخاصِمينَ، فسيَحكُمُ بينك- يا محمَّدُ- وبين مَن خالَفوك.

تمَّ بحمدِ اللهِ المجلدُ التَّاسعُ

ويَليهِ المجلدُ العاشرُ، وأوَّلُه تفسيرُ سورةِ هودٍ

الفهرس

" نُسْخَةٌ إِلِكْتِرُونِيَّةٌ، حُقُوقُهَا مَحْفُوظَةٌ لِكُلِّ مُسْلِمٍ "

نسخة إلكترونية

المغني في التفسير

المُحرِّرُ الجامعُ لِتفاسِيرِ السَّلَفِ

[تهذيبُ التَّفْسيرِ المُحرَّرِ لِلدُّرَرِ السَّنيَّة]

[مُطرَّزًا بحاشيةٍ مِنْ تحْريراتٍ وترْجيحاتٍ وتعْليقاتِ عُيونِ تفاسيرِ المُحقِّقينَ في التَّفْسيرِ:

{ابْنِ جريرٍ، وابْنِ عطيَّةَ، وابْنِ تيْميَّةَ، وابْنِ قيِّمِ الجوْزيَّة، وابْنِ كثيرٍ، رحِمهُمُ اللَّهُ تعالَى}

كتبَهُ واعْتنَى بِهِ

د/ هانِي بْن عبْده

د/ آلاء رِضا